

د. يوسف إدريس

مدينة الأمل



مَدِينَةُ الْمَلَائِكَةِ

الاخراج الفنى : محمد قطب

د. يوسف إدريس

مَنِيخَةُ الْإِثْلَةِ



الهيئة العامة للكتاب

١٩٨٩

مدينة الملائكة

فى لحظة احساس بالالفاعلية والضيق بالصبر وانعدام الدور والجدوى ، لحظة من تلك اللحظات التى كثيرا ما تنتاب آينا منا أمام ما يتصوره وما يجده من عقبات هائلات كأنها جبال تفاهات شامخة ، دق جرس التليفون دقا دولينا فى العاشرة مساء :

- ألو .. صباح الخير « دهشت » .. أقصد مساء الخير .. فلان ؟!

- نعم .. صباح الخير أو مساء الخير .. أهلا وسهلا ..
- أنا عفاف لطفى السيد .. الدكتورة عفاف لطفى السيد الأستاذة فى جامعة لوس أنجلوس »

- أهلا وسهلا .. عفاف لطفى السيد ؟!

- نعم ..

- ابنة أستاذ الجيل ؟

- ابنته الروحية ولكن والدى كان سعيد لطفى السيد
باشا شقيقه ..

– أول رئيس للاذاعة المصرية ؟

– تماما .

– أهلا وسهلا .. أهلا وسهلا ..

– لقد كلفتني جامعة لوس أنجلوس بأن أعرض عليك أن تحضر الى الجامعة كأستاذ كاتب زائر لمدة ربع عام أو عام حسبما يسمح وقتك فما رأيك ؟!

كان أول خاطر سريع أن أقبل فورا ، ففي تلك اللحظة كنت مستعدا لتلبية أى نداء قدرى يأتينى ولو بالذهاب الى واق الواق .

لقد كنت أختار اذا سألتنى أحد السائلين عن هواياتى ، كنت أفتش حياتى فلا أجد لى هواية واحدة تصلح للذكر ، فلا أنا رياضى ولا شطرنجى ولا لى أى نشاط اجتماعى أنتمى والانطواء أحب الى كثيرا من الجلوس فى ناد ، ولا أصطاد بالبندقية وحظى فى صيد السمك صفرا ، أخيرا جدا اكتشفت ان كثرة حبى للسفر تعد هوايتى الحقيقية ، والعام الماضى كله تقريبا قضيته على سفر ، دعوة لحضور مهرجان الشعر الشبابى فى العراق ، دعوة من الجمعية العربية السويدية لاستوكهلم ، دعوة من وزارة العلاقات الثقافية الخارجية لزيارة فرنسا ، دعوة من هيئة (البروهيلفيسيا) السويسرية « ما يقابل المجلس القومى للثقافة عندنا » لزيارة سويسرا وكان رفيقى فى الدعوة صديقى وأستاذى الدكتور لويس عوض الذى لا أمل مداعبته ولم أمل طوال الأسابيع الثلاثة التى قضيناها فى سويسرا .. وها هى الآن دعوة الى كاليفورنيا ولوس أنجلوس وجامعة عتيده مهيبه اسمها Ucla .

ولكن انبثاقة الرغبة فى التلبية سرعان ما توقفت ، فقد رنت فى أذنى كلمة « أستاذ » ولو كان زائرا للجامعة . .

فكل الدعوات السابقة كانت دعوات ثقافية سياحية ومقابلات مع كتاب وفنانين ومثقفين وحضور مؤتمرات .
تنحنحت وقلت :

— يا دكتورة عفاف . . تقولين أستاذا زائرا ؟

— نعم .

— ولكن أستاذ ماذا ؟ أستاذ لتدريس الأدب العربى ؟

— شىء كهذا .

— ولكن هذا التدريس لم أجربه أبدا ولا أصلح له ، لا أطيق أن أكون أستاذا أو أدرس شيئا ، فأنا كثير التغيير والتبديل فى آرائى ، والحقيقة عندى باللغة الصعوبة فى الوصول الى مرحلة اليقين فيها والأستاذ لابد أن يكون قد « وصل » الى ما يتصور انه الحقيقة ليستطيع أن « يعلمها » لغيره . . ألا تعرفون هذا فى جامعة لوس أنجلوس عنى ؟ أنا دكتور طبيب يا دكتورة ولم أنل أية دكتوراه وكنت قد تنازلت عن اللقب ككاتب وظللت ردحا طويلا أكتب اسمى فقط الى أن عيننى الأستاذ هيكل فى الأهرام ورأى أن يكتب اسمى مضافا اليه لقب دكتور ، وهكذا ذهبت مثلا ، والتصق اللقب بى وكان نبوءة المرحوم الشاعر كامل الشناوى قد تحققت ، اذ حين خلفت ابنى الأول والأكبر (سامح) ظللت طويلا حائرا فى تسميته فقد كنت أريد أن أسميه محمدا وكانت أمه قد قرأت قصة لى اسمها « لعبة البيت » وبطلها حافل اسمه سامح فأصرت على أن تسميه « سامحا » حتى لا يفضب منا اللغويون » اذ أن العائلتين مليئتان باسم محمد ،

ويومها - وأنا حائر فى اختيار الاسم قال المرحوم كامل الشناوى : اسمع يا يوسف . . ما رأيك أن تسميه دكتور « المرحوم كان دائم التشهير بطبى ومتطببى » بحيث ستجبر الناس على أن يقولوا : « دكتور يوسف ادريس » يقولها لسامح وان لم يقولوها لى .

طبعاً لم أقل كل هذا للدكتورة عفاف فهى تتكلم من مسافة لا تقل عن سبعة عشر ألف كيلو متر والدقيقة بالشىء الفلانى ، ولكن فكرت فى كل هذا وفى جملة لخصت لها الموقف : أنا لا أصلح أستاذ أدب أو مدرسا لتلاميذ .

فوجئت بها تقول : ولكننا نعرف هذا ولهذا دعوناك .

- دعوتمونى لهذا ؟!

- نعم . . لتعطينا وتعطى الخريجين المتخصصين وأعضاء

تدريس الأدب العربى رؤيتك كمبدع فى القصة والمسرح .

- ولكن هناك فى جامعات مصر أساتذة كبار يفيدونكم

أكثر .

- فى الحقيقة نحن نتبع نظاماً أصبح معمولاً به فى أمريكا الآن وهو دعوة الروائيين والشعراء وكتاب القصة والمسرح كأساتذة زائرين يناقشهم الطلبة فى أعمالهم ويقتربون من المبدعين الخلاقين لكى يثيروا فيهم حبهم للأدب والفن ويدخلوا تيارات غير أكاديمية على عقولهم بحيث لا تعود الجامعات أديرة مقفلة بعيدة عن الواقع العلمى أو الفنى الحى ولهذا نحن نرحب بالكتاب ليقولوا هم نظرتهم الشخصية أو النقدية الى عملية الخلق والى آرائهم فى النقد حتى فى طريقة تدريس الفن أو الأدب . .

ورغم ان الكلام كان مقنعا جدا ، الا أن فكرة أستاذ
وجامعة ودراسة ظلت تدور فى عقلى وتقترب من محيط
الرفض حتى وأنا أقول لها :

- ولكن ثلاثة أشهر مدة طويلة .
- سوف تجد انها ليست كذلك حين تأتى .
- اذن شكرا يا دكتورة على الدعوة ومبدئيا أنا أقبلها .

★ ★

سبع عشرة ساعة من الطيران المتواصل ١١ ساعة من
القاهرة لنيويورك، وانتظار ساعتين ثم ست ساعات للوصول
الى لوس أنجلوس .

برأس دار حول نصف الكرة الأرضية فى رحلة متصلة
وصلت « مدينة الملائكة » « أنجلوس بالاسبانى تعنى ملائكة،
وأنا بالكاد أدرك من أنا ، وبدا لى المطار الكبير المتوهج
بالأضواء وبالسلالم وبالوجوه لوحة قد اختلطت وتداخلت ،
لوحة لا بد رسمها تجرىدى مجنون ، ولولا أنى لمحت وسطها
وجها أعرفه جيدا هو زميلنا السابق فى الأهرام الدكتور
ابراهيم كروان عضو مركز الدراسات بها أو هكذا خيل الى،
اذ كانت قد أضيفت الى وجهه ذقن صغيرة أنيقة جعلته يبدو
وكأنه جزء من اللوحة يضيع فى عدم اليقين .

ولكنه كان هو .

وكان الوقت متأخرا اذ كان صباح اليوم التالى قد
أشرق فى القاهرة بل حل ظهره وليله ويوشك فجر يوم جديد
أن يأتى ان لم يكن قد جاء فعلا .

لم تكن تلك أول مرة أزور فيها لوس أنجلوس فقد زرتها عام ١٩٦٦ وكنت تلك المرة مدعوا من قبل جامعة شيكاغو وقمت بجولة فى أهم المدن الامريكية .

ولكن هذه لوس أنجلوس أخرى تماما ، عام ٦٦ كانت مدينة متوسطة الكبر والمباني وكانت تختلف عن غيرها من المدن الأمريكية فى خلوها من ناطحات السحاب المشهورة أو ندرتها ، ولكن هذه المدينة أصبحت غابة من ناطحات السحاب المهيبة بل من مدينة واحدة تكاثرت مثل (أمبيا) عمرانية مخيفة الأبعاد فأصبحت خمس أو ربما ست مدن تكاد مدينة بيفرلى هيلز « حيث هوليوود » تصبح أقلها أهمية .

فجأة وافقت على الحقيقة ، أنا فى بلد غريب تماما ، وكأن الدعوة كانت فرصة لكى أغمى عيني وأقذف نفسى فى سفرة أخرى ، وهأنذا أفيق على حقيقة انى فى مدينة رهيبة الغنى والأبعاد ، أقصر شارع فيها طوله سبعون كيلو مترا ، وعربات بوليسها واسعافها لا تكف عن النعيق ، والعربات الامريكية الهائلة الحجم كثيرة كثيرة وصفوفا صفوفا تدبر حمراء وتقبل بأنوار بيضاء ساطعة ماذا أتى بى يا ربى وماذا أفعل هنا ، وماذا سأفعل فى الجامعة غدا أو على الأصح بعد أن تذهب عنى « تولة » الرحلة !؟

أقول أغمضت عيني وقذفت بنفسي فى تلك السفرة لأسباب لا علاقة لها بأهمية الدعوة أو الجامعة بقدر ما كانت أسبابا تتعلق بى شخصا ، كنت فى الحقيقة أريد أن أخلد الى نوع من الانفراد بالنفس وتأمل طويل لا تقطعه علاقات أو نشاطات أو زيارات لحياتى ، فمنذ عام ١٩٥٨ حين ارتبطت كتابتى بالصحافة وتركت الطب ، هددت خواطرى التى

اعترضت على الفكرة بقولي لنفسي : انها مجرد فترة قصيرة جدا ، أجرب فيها الكتابة للصحافة ، اذ لا مناص لكاتب القصة القصيرة ، وحتى المسرح من الالتحاق بالصحافة ان آجلا أو عاجلا ، فالقصة القصيرة الحديثة المكتوبة هي الابنة الشرعية للصحافة ، لولا الصحافة ما وجدت ، فكاتب القصة القصيرة لا يستطيع أن يصدر كتابا في كل مرة يكتب فيها قصة قصيرة لابد أن ينشرها في مجلة أو جريدة ثم يجمعها - أو لا يجمعها - في كتاب بعد ذلك ، والمسألة في العادة تبدأ بنية نشر القصص القصيرة ثم يبدأ الكاتب ينزلق الى كتابة خاطره ، ثم اقتراحا ، ثم صورة قلمية وفي النهاية يجد نفسه منغمسا تماما في دور الكاتب الصحفي ، ذلك ان الصحافة تحمل الكاتب حملا الى مشاكل الناس ، مشاكل الاقتصاد والثقافة والسياسة والتعليم والامكان والمواصلات وحتى الحب . يصل أيضا الى مشاكله وليس الى قصصه ، فقط .

وأفقت لأجد نفسي قد قضيت أكثر من ربع قرن كتبت أثناءها أكثر من ثلاثة آلاف موضوع صحفي وهو كم يعادل ما كتبته فنا عدة مرات ، وقبل أن أشرع في رحلتي الأخيرة تلك كنت قد انتهيت من مراجعة كثير من هذه المقالات وتنسيقها في أربعة كتب صدر بعضها ولا يزال الآخر في انتظار الصدور ، وحين راجعت هذا العدد المهول من المقالات اكتشفت اني ما تركت مشكلة من مشاكل الشعب المصري أو العربي الا وكتبت عنها ونبتهت اليها ، حتى تجريف الأرض الزراعية كتبت عنه منذ خمس سنوات بعنوان : الذين يأكلون أمهم « أي الأرض » ومن مشاكل تلوث البيئة الى مشاكل السياسة والسياسيين والتلوث الثقافي والتعليمي والتربوي حتى الانفجار السكاني كتبت عنه في الخمسينات .

وهنا استوقفنى سؤال مفجع ، دعك من الأصدقاء النقاد
وكاتبى المقالات الصحفية الذين سلخونى طوال السبعينات
حول نهايتى ككاتب فن « وهروبى » الى الكتابة الصحفية ،
فهؤلاء كنت أجيبهم بقولى : ان نهاية الأرب فى فهم الأدب هى
أن يبادر الكاتب وينشئ شيئاً من أجل الآخرين ، فاذا شب
حريق فى دار اخوانه الآخرين هؤلاء أترك الناس تحرق
البيت والآخرين وينزوى فى ركن يكتب عما حدث قصة أو
رواية أو مسرحية أو يتصرف كالرجال ويشمر عن ساعده
وبكل ما يملك يساعد فوراً فى اطفاء الحريق وبعد هذا
يكتب القصة أو لا يكتبها ، هذا شئ غير مهم بالمره فالكاتب
ليس صانعاً ماهراً لكراس مذهب أو كراسى مقاه ليس حرفى
قصة ورواية ومسرحية ، الكاتب روحه معلقة بروح
شعبه ، فى مشنقة واحدة أو فى باقة حرية واحدة ، الكاتب
هو « أول » من يبادر وآخر من ينكص ، الكاتب ظاهرة
اجتماعية بيولوجية قبل أن يكون ظاهرة فردية هدفها ذاتى
محض ، أن يكون أكثر أهل صنعتة اتقاناً لحرفته أو أكثرهم
امتيازاً على أقرانه ..

مئات المقالات قرأتها وأنا أراجع الكتب الأربعة
والسؤال المفجع يقف كاللقمة فى زور الواقع ، وماذا صنعت
تلك المقالات ؟!

لابد انها صنعت شيئاً ، كثيراً أو قليلاً ، غير مهم ،
قصدي الصنع أجده فى كل مكان أذهب اليه ، وصحيح انها
غيرت فى تفكير كثيرين ، ولكن هل غيرت حقاً فى الواقع ،
هل حلت فعلاً مشاكل ، هل أخذت بها أى حكومة أو حتى أى
مصلحة ؟!

ذلك أمر أترك الحكم عليه للناس وللتاريخ ..

ولكنى ككاتب لا بد أن أراجع دورى الآن .

فلقد كنت أكتب فى السبعينات فى فترة اتسمت
بغياب - معظم الوقت - للمعارضة وللراى الآخر السياسى
والاقتصادى والثقافى والاجتماعى ، والآن ومنذ نهاية عام
٨١ ونحن فى حقبة أخرى ، هناك أحزاب معارضة ، تعارض
حتى رئيس الجمهورية فى قراراته ، وهناك صحف معارضة
مقالاتها وكتابها السياسيون والثقافيون والعلميون أعلى
صوتا من أعلى الأصوات التى تكتب الراى الآخر فيما يسمى
بالصحف القومية .

هناك اذن حياة حزبية شبه كاملة ، ودور « قائم مقام »
المعارضة أصبح على رآى لطفى السيد فى معاهدة ٣٦ « غير
ذى موضوع » بعد أن قامت المعارضة القوية الشرعية ..
والتفكير السليم يدعو كلا منا لأن يعود الى تخصصه
واختصاصه وأعظم ما أستطيع أن أفعله الآن أن أنتج قصة
ومسرحية وفنا وفكرا - بالطبع غير منغرل عن الحياة العامة -
بل بتعمقها ويضيف بعدا وجدانيا الى مقالاتنا وخطبنا
وتصريحاتنا العقلانية ، هذا أوان الكاتب والكتاب فالضجة
القائمة فى صحافتنا عربية ومصرية شديدة العلو - ولا نرى
طحنا - وشعبنا حاجته ماسة الى ابداع فنى حقيقى « يكنس »
العناكب والعقارب والثعالب والفيران النرويجى التى
تكالبت على ضمائر الناس تنهشها وتزلزل قيمها ، ان الفن
الحقيقى هو الدفاع الوحيد عن الضمير المصرى والعربى
وضمائرنا لم تكن فى حاجة الى دفاع عنها بقدر ما هى فى
حاجة اليه الآن ..

وليس بالفن وحده ندافع عن ضمائرنا ولكن بالكتابة
الحقيقية الصادقة الصادرة عن تجرد كامل وعن غيرية كاملة

وليس كما هو حادث الآن مع كثير من أصحاب الأعمدة اليومية الثابتة التي أحالوها الى قطاع خاص فى أحيان كثيرة لأهداف خاصة جدا، والكتابة فى الفاضى والمليان لا لهدف الا لتثبيت ملكية « العمود واثبات وضع اليد ، لقد أطلعت وأطلع على الصحافة فى العالم كله بطوله وعرضه وشرقه وغربه ولم أجد هذا النظام الغريب الذى تنفرد به الصحافة المصرية والعربية ، نظام العمود الثابت لسبعة أو عشرة أو أحيانا كتابا أكثر ، يكتبون كل يوم ولا يقولون شيئا بالمرة أو يقولون الشئ نفسه كل يوم ، كل يوم، والغريب أن معظمهم لا يتمتعون بأراء قيمة وقدرة ذائبة فى البحث عن الحقيقة وثقافة عميقة تتيح لهم معرفة موسوعية بحيث يعالجون الأشياء التى يكتبونها بعمق ومن خلال وجهة نظر جديدة ومبتكرة ومحددة ولكنهم فى مجموعهم يشكلون آراء شائعة لا جديد فيها ولا ابتكار غالبا ما تكون قشرية أو أحيانا غوغائية وفى أكثر الأحيان تميل الى المحافظة وتملق الرأى الشائع أو المودة السارية ، فى حين أن كاتباً يستطيع أن يكتب رأيا يوميا لابد أن يكون قائدا فكريا أكثر خطورة بكثير من مارلو أو سارتر أو الحكيم بوذا أو حتى - بموسوعيته - العقاد ..

والنتيجة ضجيج غريب ، تضيع فيه الأصوات المفكرة الدارسة وتفقد الكتابة الصحفية نفسها أهميتها وتصبح كالطين على الأذن ، أشياء تدعو للنعاس .

★ ★

أغمضت عيني وقذفت بنفسى فى آخر مدينة على غرب الدنيا وفى نيتى أن أعتزل العالم ثلاثة أشهر كاملة ، لعل ذرات الرمال الناعمة تذهب عن عيني ، وتتضح الرؤية ،

والضجيج الذى يملأ أذانى ويسد مسام عقلى وتفكيرى يكف،
فأستطيع أن أسمع صوتى الداخلى وأتلمس نوع وطبيعة ما
أريد حقيقة أن أقوله وأفعله ..

ولكنى كنت أحلم .

فمدينة الملائكة التى ذهبت اليها كانت تحفل بضجيج
لم أكن أتصوره وبأصوات صاروخية هذه المرة لا تعيق السمع
ولكن تصم الأذان فعلا .. وكانت تجربة ..

ويا لها من تجربة !

افصلونى - أرجوكم - معه !!

بعد التحية :

مقدمه لسيادتكم الطالب محمد حامد الحماسى ، أمين
اللجنة الثقافية باتحاد المعهد الفنى للفنادق ببور سعيد .

أما بعد - فأنا آسف اذ أبلغك بأننى فصلت من المعهد
بسبب اتباعى لرأى سيادتك ، سامحك الله يا دكتور يوسف
فأنت السبب فى فصلى من المعهد ، فقد قرأت مقالك أو
مفكرتك التى تنشرها كل يوم اثنين فى جريدة الاهرام والتى
كانت تتناول ايقاظ الهمة لدى الرأى العام المصرى بالطريقة
الشرعية لمساندة الانتفاضة الفلسطينية فى الضفة وقطاع
غزة ، وقد ناشدت فى هذا المقال كل التجمعات السياسية
والعمالية والطلابية بأن تتحرك لدعم الانتفاضة وبالذات
ناشدت الاتحادات الطلابية فى الجامعات والمدارس والمعاهد بأن
ترسل برقيات الى الحكومة الاسرائيلية والى سكرتير عام الأمم
المتحدة ومجلس الأمن والى كل الجهات المعنية تندد بأساليب
القمع الدموى التى يتبعها المغتصبون الصهيونيون فى الأرض
المحتلة .

وما كان منى الا أن حاولت أن أساهم في هذا الاحتجاج بطريقتي الخاصة المشروعة بأن أقيم معرضا عن الانتفاضة وذلك بصور ومجلات حائط لتوضيح مدى رجولة الشعب الفلسطيني في مقاومة الاحتلال وتوضيح كفاح الشعب العربى ضد اسرائيل ، وما كان منى الا أن عرضت الأمر على السيد رائد الاتحاد فوافق على احضار الصور وعندما أحضرتها وشاهدها رأى ضرورة موافقة السيد عميد المعهد برغم ان السيد المسئول عن رعاية الشباب قد تحمس لى وشجعتنى على المضى قدما فى نشر ذلك ، وما كان منى الا أن عرضت الأمر برمته على السيد العميد فأبدى استعداده بالموافقة على اقامة المعرض ، ولكنه قال لى : امهلنى الى الغد، فلما جاء الغد فوجئت بدلا من الموافقة بأن مباحث أمن الدولة فى بور سعيد تستدعينى وتحقق معى بأسلوب وطريقة كأننى قمت بعمل اجرامى ضد الدولة ، هذا : وناهيك عن مصادرة كل الصور والمجلات، وعند عودتى الى المعهد حاولت الاستفسار عن سبب هذا كله ، ولكن المفاجأة الكبرى اننى وجدت ان قرارا بفصلى من المعهد قد صدر ، وصدر فى أخرج وقت لأنه لم يبق على امتحانى سوى شهر واحد ، وذلك تحت زعم اننى حاولت اثارة شغب وبلبلة بين صفوف الطلاب باقامة هذا المعرض بالله عليكم هل نحن عرب اما ماذا ، وهل يرضيك ما حدث .

محمد حامد الحماسى

أمين اللجنة الثقافية بالمعهد

الفنى للفنادق ببور سعيد

ما كدت أعر على هذا الخطاب بين أكوام رسائل القراء حتى اكتفيت به وبلغ بي الغيظ حد الكف عن قراءة بقية الرسائل ، وأعود الى منزلى فى حالة ثورة عارمة .

فخلال الأعوام القليلة الماضية ، تلك التى استشرى فيها التطرف بين الجماعات الدينية واليسارية ، والتى أخذنا فيها نحن الكتاب وأولى الراى فى هذا البلد على عاتقنا مهمة أن نفهم الشباب انه لا العنف ولا الارهاب ولا الالتحام بقوات الشرطة والخروج فى مظاهرات تتعدى الحرم الجامعى حيث يختلط الحابل بالنابل وتسود الفوضى ، كان أقصى ما نطمح اليه أن يتعلم الشباب الجامعى الوسائل الشرعية للتعبير عن الراى مثل عقد المؤتمرات داخل مدرجات الكلية ، وتحرير برقيات ورسائل الاحتجاج الى المسئولين أو غير المسئولين قائلين فيها رأيهم بصراحة ووضوح .

سنوات وسنوات ونحن نفعل هذا ، وحين كتبت منذ بضعة أسابيع أطالب الراى العام المصرى بأن يظهر احتجاجه على مذابح إطلاق الرصاص وتكسير الأيدى والضرب ذلك الذى يستعملها الجيش الاسرائيلى بأوامر من شامير وحكومة الليكود ، حين فعلت هذا كنت أحاول أن أناشد الشباب والمؤسسات الشعبية والنقائية أن تظهر احتجاجها بالطريقة الشرعية التى تطالبنا دائما بها الحكومة والمسئولون السياسيون ولهذا فإذا كان هذا التعبير بالطريقة الشرعية جريمة فلا بد اننى أنا وليس أحد غيرى هو المتهم الأول والمعرض فيها ، وقد يقول البعض ان ما جاء بالخطاب غير صحيح ، ولكنى استبعد هذا الاحتمال اذ قد أرسله الطالب باسمه وعنوانه ويعنى ها انه مسئول تماما عن خطابه وأقواله ولهذا فان يتفضل عميد معهد الفنادق بابلاغ مباحث

أمن الدولة ضد هذا الطالب الذى ذهب يأخذ منه الاذن بتعليق الصور بعدما وافق على مشروعه رائدالاتحاد ومسئول رعاية الشباب ولم يعترض العميد وانما طلب استمهاله يوما واحدا ، ذلك اليوم الذى أسرع فيه الى ابلاغ مباحث أمن الدولة عن الجريمة البشعة التى يعتزم الطالب القيام بها نفس الجريمة التى يرتكبها تليفزيوننا كل يوم وفى كل نشرة أخبار وترتكبها صحافتنا وارتكبتها أنا ككاتب وغيرى من عشرات الكتاب اما أن يحدث هذا فان الأمر يشكل جريمة كبرى فى حق الشعب المصرى ، بل أقولها علانية فى حق الحكومة المصرية والرئيس محمد حسنى مبارك .

★ فأولا : كيف يخدع العميد تلميذه وقد كان ممكنا أن يعترض ويرفض انما الذى طالبه هو تأجيل اللغد ، وما هو بتأجيل انما هى وسيلة غير كريمة لتبليغ مباحث أمن الدولة من خلف ظهر الطالب المسكين الذى وثق فى هميده ومشى منذ البداية على خط مستقيم مشروع ، وقد كان باستطاعة العميد أن يرفض عرض الصور والمجلة ، وهذا هو حقه - رفضا شجاعا مباشرا ، اما أن يتظاهر بالموافقة ثم يبلغ مباحث أمن الدولة فهنا نضع أيدينا على بعض العمداء والمديرين الذين تركوا الاشراف العلمى جانبا وأصبحوا ممثلين لأمن الدولة ووزارة الداخلية ليس بناء على توجيهات وزير التعليم ولا استجابة لأوامر وزارة الداخلية وانما هكذا يجندون أنفسهم متطوعين لتلفيق التهم لأولادنا ولفلذة أكبادنا أملا فى أن ينالوا الحفاوة لدى من ؟ لست أدري .

★ وثانيا : ما هذه العلاقة المريبة بين بعض المسئولين فى الجامعات والمعاهد وبين مباحث أمن الدولة عن طريق

الحرس الجامعى أو غيره ، ان العميد كان يختار فى السابق على أساس مقدرته العلمية وبانتخاب أعضاء مجلس الكلية ليزاول وظيفة تعليمية سامية الا وهى رئاسة معهد أو كلية ، أو جامعة . . فهل تبدل الحال وأصبحت قدرة العميد تقاس بمقدار ولائه لأمن الدولة ووزارة الداخلية ؟

★ ثالثا : هذا طالب قارئ قرأ رأيا لكاتب ، وأتبع كما أراد الكاتب الطريق العلنى المشروع ، فكانت النتيجة انه فصل قبل الامتحان بشهر أنا أعرف والقانون يعرف قانون الجامعات انه لا يمكن فصل طالب الا بعد تقديمه لمجلس تأديب فى معهده أو جامعته ، وادانة مجلس التأديب له ، واقتراح عقوبة ، قد يخففها العميد أو مدير الجامعة ، اما أن يفصل طالب دون محاكمة أو تأديب . وانما بمجرد الاتصال بمباحث أمن الدولة فهو شئ جديد حقا جديد على التقاليد الجامعية وجديد على الحكم فى مصر والأهم منه انه يحدث الآن فى عصر نقول فيه كلنا ابتداء من رئيس الجمهورية الى أصغر محرر فى جريدة معارضة أن الديمقراطية هى دعامتنا الأولى لحكم الشعب ، وان وسائل القهر والكبت والحجر على الرأى انتهت من بلادنا تماما وذهبت الى غير رجعة .

أما اذا كان العميد - المباحث - يرى فى عرض صور للمذابح الاسرائيلية ضد الفلسطينيين فى الأرض المحتلة واسرائيل هو عمل ضد الحكومة وضد الحكم وجريمة يستحق عليها الطالب الفصل من معهده فانى لأتعجب ، فاذا كان الأمر جريمة فانا الذى كتبت فى الاهرام وأنا الذى حرضت على ارتكاب تلك (الجريمة) وبالتالى أنا أول من يستحق

العقاب ، فلماذا لم يطالب سيادة العمد بفصلي أنا وحرمانى من الكتابة ، ولماذا لم تفعل مباحث أمن الدولة هذا .

انها ليست فقط مهزلة ، ولكنها وقد علمت بها من خطاب الطالب المستغيث بى ، ومحملنى - وعنده تمام الحق - المسؤولية عن فصله ، لأهيب بالدكتور أحمد فتحى سرور وزير التعليم أن يطلب معاقبتى أنا أولا وعنده مجلس الشورى مالك الصحف بما فيها الاهرام وعنده رئيسه الدكتور على لطفى الذى هو فى الوقت نفسه رئيس المجلس الأعلى للصحافة الذى يملك حق فصلى فأنا الجانى فى الأصل والمعرض ، وما الطالب سوى ضحية بريئة لما كتبت ، ولأنتى لا أعرف بالضبط الجهة التى فصلت الطالب ، فأننى أطالب نفس الجهة الغامضة التى تولت هذا العمل المشين أن تفصلنى أنا أولا ، أم لأنه هو طالب ، مجرد طالب ، وأنا كاتب ، تطبق عليه هو الاجراءات الشاذة ، ولا تطبق على ؟

★ رابعا : نأتى للموضوع نفسه ، هل الاحتجاج بطريقة شرعية قانونية على الاعتداء الوحشى الواقع على اخوتنا وأشقائنا الفلسطينيين جريمة تستحق العقاب ؟

اذا كانت بعض الجهات الرسمية لمباحث أمن الدولة أو وزارة التعليم ترى فى الأمر جريمة ، فالحقيقة ان آخر المتهمين فيها هو ذلك الطالب المسكين ، واذا كنت أنا المعرض ، فان المتهم الأول لا بد أن يكون الرئيس محمد حسنى مبارك الذى كان أول من احتج على تلك الأعمال الاجرامية وأول من أدان حكومة الليكود ورئيسها المتعصب اسحق شامير ، ويأتى بعد هذا السيد صفوت الشريف وزير الاعلام والمستول عن الاذاعة وتعليقاتها وعن التليفزيون وصور التوحش

إلا انساني التي نراها في كل نشرة أخبار ، ثم كل رؤساء تحرير الصحف القومية وصحف المعارضة تلك التي أدانت جميعها هذا العدوان الصارخ والتي طالبت الشعب بالاحتجاج على هذا المنكر بأقل أنواع دفع المنكر باللسان والصورة والكلمة .

اذن لابد أيضا لوزير التربية ورئيس مباحث أمن الدولة أن يبادر بفصل رئيس الجمهورية وكل الكتاب ورؤساء التحرير ، لابد من فعل كل هذا قبل أن تمس شعرة واحدة من شعرات الطالب محمد حامد الحمامي فهم الفاعلون الاصليون المتآمرون الذين يعرضون الناس ضد القمع الاسرائيلي .

أقسم اني من لحظة أن تسلمت هذا الخطاب وأنا في حيرة من أمري ، هل هناك حكومتان في مصر ، واحدة يرأسها حسنى مبارك تقف ضد العدوان الاسرائيلي الفاشم ، وحكومة ثانية سرية لا يعرف أحد بالضبط هويتها ، ولا يملك الامساك بمسئوليتها ، حكومة موالية تماما لاسرائيل ، وتأخذ أوامرها منها ، وتعذب وتضرب وتفصل كل من تسول له نفسه أن يحتج على القمع الاسرائيلي ، فان هذا يعد في نظر تلك الحكومة السرية خروجاً على الخط وجريمة في حق المتعاونين مع اسرائيل .

والغريب في الأمر اني حين أمعنت النظر ، وجدت ان قرارات وأحكام تلك الحكومة السرية الثانية هي التي تنفذ حين يجد الجدد ، وهي المالكة لزام الأمور ، وكأنها الحكومة الفعلية الماسكة بزام الأمور ، وكأن الحكومة الأخرى حكومة كلام وأقوال همها الهاء المواطنين ليس الا .

★ ★

وبعد :

انى لا أريد فتح باب النقد لحكومتنا الشرعية والتي
أعتقد انها لا تزال شرعية ، فالملاحظ من حادثة الاعتداء على
عضو مجلس الشعب ، ومن مد قانون الطوارئ لثلاث
سنوات أخرى تبدأ من ابريل القادم - ثلاثة سنوات -
يا للهول ولماذا لا تمتد كل ثلاثة أشهر أو حتى كل ستة أشهر،
لماذا نحكم على مستقبل مصر خلال السنوات الثلاث القادمة
بالتكبير وبفرض حالة الحرب على الناس ، دون حرب ، بل
فى الواقع باخماد أى صوت يرتفع ضد علاقتنا بإسرائيل ،
شئ لم يحدث فى تاريخ العالم قط ، فديمقراطيتنا التي
لا تزال ينقصها الكثير كانت تحتاج منا الى فتح أكثر لباب
الحرية ، حتى اذا انتهت فترة الأحكام العرفية نجد شعبا
منظما قد تعود على احترام الرأى والرأى الآخر ، أم أننا
سيحكم علينا بأن نظل أطفالا غير مسئولين الى الأبد ؟

الاعتداء على النائب ومد الأحكام العرفية لسته وثلاثين
شهرًا كاملة ، وارغام آلاف الفنانين فى مصر على اجراء
انتخابات حسب القانون المشبوه الجديد «ورجلهم فوق رقبتهم»
ثم تدليل شركات توظيف الأموال والغاء المسئولية الوزارية
وترك أعضاء مجلس الشعب وترك الوزراء كأفراد يواجهون
الأعضاء وحدهم فرادى وكأنه لا توجد هناك وزارة ورئيس
وزراء ومسئولية سياسية بقيادة رئيس الوزراء باعتباره
المسئول الأول عن أى خطأ أو انحراف أو رأى شخصى يجتهد
به وزير .

حالة أحسست معها وأنا أحمل خطاب الطالب المفصول
فصلا تعسفيا لابد أن يكون محل تحقيق تعلن نتيجته ويعلن
اسم ووظيفة فاعله على الملأ ، حالة أحسست معها ان سياسة
الدولة قد أخذت . - وتصبح حكومة يمين صريح لا ينجل

من نفسه وانها ماضية في سياستها تلك - تصم آذانها عن
صرخات الشعب ورأيه وكأنه غير موجود ، ولولا اننى سمعت
تصريحات الرئيس المبارك ضدالحكومة الاسرائيلية وتلويحها
بالقيام بتدمير صواريخ الدفاع التى اشترتها المملكة
السعودية من الصين وقوله : ان أى اعتداء على أى جزء من
الجزيرة العربية يعتبر بمثابة اعتداء على الأرض المصرية
نفسها ، بما معناه ان مصر ستتصدى لهذا الاعتداء بكل
ما تملك من قوة ، ثم كلماته التى تحمل الرد المفحم على
المتعصب شامير وقائد قواته راين ، انه ، اذا حدث شئ
كهذا فان معناه نفس جهود وحالة السلام فى المنطقة بأسرها
ونسف السلام يعنى العودة للحرب ، لولا ان جاءنى صوت
الرئيس مبارك يعلن موقف مصر الحرة التى عانت طويلا من
تعنت امراييل وعانت أكثر من تحيز الولايات المتحدة لأى
سياسة عدوانية اسرائيلية جاءتنى تلك التصريحات فأفاقتنى
من هول ما كنت فيه ، مثلما النشادر فى الانسان الموشك على
الاغماء غما وغيظا وانعدام آية وسيلة حتى للصراخ
أو الاحتجاج .

لتفهم الحكومة الاسرائيلية ولتفهم ادارة ريجان انه
مهما بلغ نقدنا لحكومتنا فاننا ازاء ما يقتربون من جرائم قد
بلغ غيظنا أطراف أنوفنا ، ولولا ثقتنا فى ضخامة ما تواجهه
دولتنا من صعوبات وأهوال خارجية هم القائمون بها
لانفجر شعبنا عن بكرة أبيه عنفا واجتجاجا اذ لم يعد فى
قوس الصبر منزع ، ومستودع المتفجرات داخلنا يكفيه
خطوة ، مجرد خطوة واحدة ، وفعل اجرامى واحد تقتربه
حكومة شامير بدعم من الولايات المتحدة يكفيه خطوة حنى
ينفجر أعتى وأقوى انفجار .

وعلى الباغى تدور الدوائر !!

لقد تبخرت كل أحلامنا في (علاقة خاصة) مع أمريكا
وكل ما كان يأمل فيه الرئيس السادات من ربطنا بالعجلة
الأمريكية والاسرائيلية أثبتت السنوات والتجارب انه جاءنا
بالعكس تماما ، وأن رفضنا وغيظنا من السياسة الاسرائيلية
الأمريكية قاطع ومستعدون معه أن نشعلها جحيما ، فخير لنا
أن نتحمل التعذيب المتواصل الطويل على أيدي تلك العصاة
الدولية التي ليس لها من عمل سوى قهر الشعب وبالذات
قهر الشعب العربي والجائه الى الزحف على البطون والتماس
الرافة من مجرمين لا ذرة رحمة في قلوبهم .

أما أنت يا صديقي محمد حامد الحمامي فاني ان شاء
الله متبن قضيتك الى أن يفصلوني معك ، بل وليفعلوا بي
ما هو أكثر ، أو الى أن يصدروا حكما ببراءتك وتلحق
امتحانك ، فكلنا معك ، واذا كان لنا رأى كما لا بد لأى
كائن حتى أن يكون له رأى ، فنحن والله حائرون فاذا
احتجبنا بفوضى سجنونا بتهمة اثارة الشعب والشغب ، واذا
حاولنا ابداء الرأى بطريقة شرعية متمدينة فصلونا بتهمة
الاثارة والتعريض ومعنى هذا أن الحكومة السرية الغامضة
تريد منا أن نحيا كقطيع الخرفان ، لا ننطق ببنت شفة نمشى
وراء الكباش الخفية هادئين مساقين ويكفيننا أن لنا الحرية
فى السير خلفها كما تسير القطعان ، قطعان لا تفعل الا أن
تشرب وتأكل — هذا اذا وجد الطعام أو الشرب — ونقبل
أيدينا ظهرا لبطن على نعمة الوجود مجرد الوجود ، كائنات
بلا رأى وبلا أى حق فى ابداء الرأى .

اننى والله لا أصدق اننا نعيش فعلا فى القرن العشرين ،
واننا استعدنا لانساننا حقه وحريته ، أهو كابوس مزعج
ما نحن فيه .

أم اننا على شفا بداية جديدة لعهد جديد .

الضحك حتى البكاء

حين اتصل بى صديقى الفنان عادل امام يدعونى
للاضمام لجهود اللجنة الفنية التى أنشئت لدعم الانتفاضة
الفلسطينية الأخيرة والتى اقترح عادل امام اقامة حفل كبير
يخصص دخله لدعم الانتفاضة .

حين حدث الاتصال التليفونى ووضعت السماعة وجدت
نفسى أضحك كما لم أضحك فى حياتى ، فصوت عادل امام
وملامحه ومجرد تصورى له يضحكنى فما بالك اذا تحدث ،
انه ينثر السخرية والابتسامات بتلقائية غريبة وضعها الله
فيه كما وضع فى الياسمين رائحته وفى الكروان حلاوة
صوته ، ولكن هذه المرة لم أكن أضحك من عادل امام ، كنت
أضحك فى الحقيقة فيما آلت اليه أحوال ما كان يسمى
بالرأى العام المصرى عندنا ، لقد كنا خلال القرنين الأخيرين
منشغلين بكل قضايا العالم من معارك روسيا مع اليابان
تلك التى ألف فيها شاعرنا الكبير حافظ ابراهيم قصيدة
مطولة ، الى أقل شرح يحدث فى مئذنة أحد مساجد استامبول
وطوال خمسين عاما نحن ميثفولون بالقضية العربية الى درجة

الالتحام المسلح والقتال ، فماذا بالضبط حدث لنا ؟ اننى متأكد وأعرف ان كل مصرى ومصرية ينتفض جسده غضبا وغيظا مما تفعله حكومة الاحتلال الاسرائيلى بسكان قطاع غزة والضفة ، وأعلم أن الجميع - حتى الأطفال - يستنزلون اللعنات على جنود الاحتلال كلما رأوا منظرا كهذا فى النشرة مع انها نشرة مخففة جدا بالقياس الى نشرات الأخبار فى التليفزيون البريطانى (الذى يملك اليهود نفوذا كبيرا فيه) والامريكى الذى يملكونه كله .

وأطلع أنا الى رد الفعل العام فى مصر فلا أكاد أجد حتى رد الفعل الوحيد الصادر عن نقابة المحامين لم أقتنع به تمام الإقتناع ، فهو مثل بعض الحكومات العربية لا يجد أمامه الا الحكومة المصرية يلومها ويعنفها ويوبخها ويتهمها بالخيانة ويطالبها بالغاء وتجميد كامب ديفيد وكأن هذا الالغاء هو الذى سيوقف تكسير وضرب وقتل الفلسطينيين فى الضفة وغزة ، ولقد كانت كامب ديفيد كارثة ، على الأقل فى شقها الفلسطينى بكل معنى الكلمة ، ولكنها عندى غير مهمة بالمرّة انما المهم اننا ربطنا فيها وفى العجلة الاسرائيلية علنا أما ما حدث فى السر فقد كان أدهى اذ قد ربطنا وكأنما للابد بالعجلة الامريكية الاسرائيلية أيضا ، وأصبحت اليد المصرية مشلولة تماما ، أقصد اليد المصرية الرسمية ، بل أصبحت محل سخط هذه الدوائر الفاجرة الأغراض ، وما محاولة افشال رحلة الرئيس المصرى الى أمريكا بهذا الفتور الامريكى وتوريطة فى مبادرة لم يقبلوها حتى هم أنفسهم الا مثل واحد على أنه لا الأمريكان ولا الاسرائيليون يريدون لمصر أو لرئيسها أن يقوى أو أن يعود يتزعم العرب كما هو الشئ الطبيعى تماما ، وانما يريدون لمصر ولرئيسها أن

تكون دائما مكسورة الارادة والجناح ، مجرد دولة عربية
أخرى مثلها مثل أصغر دولة عربية تعدادها ربع مليون ،
كيف ستحل هذه التبعية القومية القمحية السلاحية النقدية ،
تلك هي القضية الكبرى والاولى اذا أردنا أن نعود لان نكون
أو تنمحي صفحتنا من الوجود •

ولكني هنا لا أتحدث عن مصر الرسمية •

انما أتحدث عن مصر الشعبية ، مصر الراى العام القوي ،
المسمع دائما للعالم صوته •

أين هو هذا الراى العام •

كيف لا تصدر نقابة الصحفيين بياننا الى كل نقابات
الصحفيين فى العالم كله تستنهضهم ضد هذه الهجمة الهمجية
الشرسة على اخواننا الفلسطينيين ؟

أين هو اتحاد الكتاب - وفى مصر والله العظيم تنظيم
اسمه اتحاد الكتاب المصريين - أين صوته أين اتصالاته
باتحادات الكتاب فى العالم ، أين موقفه حيال قضية وقع على
شجبها خمسمائة كاتب ومثقف فرنسى ونشرت فى كبريات
صحفه ، أين هذا كله ؟

نقابة الأطباء ، نقابة الصيادلة نقابة الزراعيين
والمهندسين والتجارىين والاداريين ، كل نقابات مصر ،
سواء على مستوى المصنع أو مستوى المؤسسة أو المستوى
القومى العام •

ان النقابات هي القنوات الشرعية لا يصل صوت الشعب
الى الحكومة المحلية والى العالم كله ، فأين نقابات العمال ،
واتحاد عام العمال ، أين جامعاتنا - باسم الله ماشاء الله

عشر جامعات أو تزيد - لكل منها اتحاد طلابية وثادى هيئة
تدريس ، ورئيس ومجلس ، ومئات المئات من المدارس
الثانوية والفنية ، لو أن ناظر كل مدرسة ومدرسيها وطلبتها
أرسلوا برقية للأمين العام للأمم المتحدة ولرئيس مجلس الأمم
وللرئيس ريجان أو حتى لشامير يلعنون سياسته ويتوعدونه
بالويل والثبور لو أن هذا قد حدث لارتجت أبدان استعمارية
كثيرة ولارتعشت يد راين وهو يوقع الأمر بالضرب فى
المليان ولكن شيئاً من هذا لم يحدث .

ذلك لأننا شعب قد أمراضنا أنفسنا وتولوا هم إضافة
المجرات لمرضنا ، أمراضنا أنفسنا حين فصلنا بين الدين وبين
الوطنية وحين أصبح الصراع يدور حول من المسلم وكيف
يكون الاسلام ، وكيف تكون علاقة المسلمين بغير المسلمين .
الى آخره . .

وهذا كان أعظم ما يطمع اليه الطغاة والبغاة فى كرتنا
الأرضية ، أن يلتهم المسلمون بفتنهم الداخلية مع أن
يواجهوا أعداء أى دين وكل دين أولئك الذين لا ملة لهم
ولا أمان ، وحوش القرن العشرين .

ثم جاءت أحزاب المعارضة حين تكونت الأحزاب لتوجه
مدافعها الرشاشة والثقيلة الى وزير الداخلية وضباط
وزارة الداخلية ، ومع انهم يستحقون النقد على بعض
ما يقترفون ، ولكن عدونا ليس زكى بدر وليس أبو باشا
ولا مكرم محمد أحمد ، عدونا هو شامير وشارون وريجان
الخاضع وراين ، أولئك هم الذين كانوا يتوجب علينا أن
نوجه لهم كل مدافعنا، فنحن لا نزال فى مرحلة تحرر وطنى،
وهم لا يزالون المستعمرين بلا جنود ، ولكن بلقمة العيش

وقطعة السلاح والدولار والسياح ، استعمار من نوع جديد غريب لم يرد في الكتب ولن تجده في المراجع وإنما هو ذا أمامنا في الحقيقة واضح وجلي وصريح ولا يحتاج إلا لذي نظر وبصر ، ولكن أنظارنا مشغولة بالتفرقة بين الدجاج الأبيض والبنى ، وبين الأجور والارتفاع الجنوني في الاسعار ، وأزمة السكن وأزمة المواصلات ، وعمرنا ، طوال عمرنا ، نعاني من مشاكل الحياة في طفولتي كنا نأكل اللحم مرة كل شهر ومع هذا كنا نقاوم ونحارب ونتظاهر ضد الاستعمار والاحتلال غير محتجين أبدا بالفقر أو بالديون أو بالحاجة فقد كانت روح مصر لا تزال حالة في جسدها ولا تزال تغذينا بموثر من الطاقة الروحية على المقاومة .

ولست أعنى باستصراخي للمدارس والجامعات والنقابات أن أدعو الى مظاهرات تجار وتملا الشوارع وتتيح الفرصة للمتربصين بها وبنا لكي يعيشوا فسادا في الارض ، إنما أدعو الى مؤتمرات تعقد في المعاهد العلمية والنقابات لها كل الجلال والخطورة تناقش وضع اخواننا الفلسطينيين الذين تتقطع لهم قلوب الناس في أمريكا نفسها وحتى في إسرائيل مؤتمرات، ليست موجهة ضد حكومتنا لكن تشتبك في صراع داخلي لا يفيد أحدا ، وإنما باشتراك رجال حزب الحكومة أنفسهم في تلك المؤتمرات وبالإشتراك في تلك الممارك السياسية ، حتما ستقل الفجوة ، فجوة العداء الى حد البطش من ناحية ولاستنكار الصارم من ناحية أخرى ، وبتقليل تلك الفجوة يمكن فعلا أن نتحدث بعد هذا عن حوار بين المعارضة والحكومة وعن حلول قومية حقا .

أما أن تتطوح مصر الـ ٥٢ مليونا ويحمل الفنان عادل امام وحده ومن تلقاء نفسه ومعه مجموعة صغيرة جدا من

الفنّانين عبيء التعبير عن غضبة شعب مصرى يبصق فى وجهه دم كل يوم من قبل أعدائه ، ولا يصنع شيئا . فذلك هو ما جعلنى أغرق فى الضحك حتى البكاء .

قطعة من ضمير مصر الحى

من بين الخطابات الكثيرة ، حين قرأت هذا الخطاب (طب) قلبى ، ، رغبا ، أو فرحا أو شعورا غامضا لم أحس به من قبل ، لا أعرف ، أخذت الخطاب وطبقته بعناية ومعه الظرف والى أن عدت الى منزلى بعد ساعات طويلة كنت دائم الاحساس بوجود الخطاب فى جيبى يتحول ، من كلمات غريبة وكأنها رسوم الآراميين على معابدهم ، الى ما يشبه التعميدة ، الى شيء دافئ جميم وأنه قطعة من ضمير مصر تكورت داخل جيبى .

وقبل أى شيء آخر سأعرض لكم الخطاب ، وكنت أفضل لو كنت طبعته بالزنكوغراف لتروا كيف كتب ، لولا علمى ان كثيرين منكم لن يستطيعوا فهمه ربما لرداءة الخط أو اللغة أو حتى الهجاء ، ولهذا أثرت أن أتعب نفسى فى حل الغازه ، وأنشره ، بنفس لغته .

الكاتب الحقانى يوسف ادريس .

باكتب لحضرتك الجواب ده ومعلش أنا ابتدائية قديمة وبافهم كلامك فى الجرنان لأنه سهل وحقانى وعلشان كده أسمع حكيتى (حكايتى) بيقولوا مين شاف منكرا لازم يغيره بايديه ولو مقدرش بلسانه ولو مقدرش بقلبه وده أضعف الايمان ، مش كده ، طيب ، أنا ممرضة وعندى بنتين

بيشتغلوا فى الشركة المصرية (٠٠٠ لا تؤاخذونى لم أذكر اسم الشركة لأنى أخاف على صاحبة الخطاب من الانتقامات الجبائنة) بنتين ماجدة متجوزة ومبسوطة والثانية لسه مخطوبة واحنا ناس على أد حالنا ورأس مالنا جمال البنات وشرفهم وبعدين بنتى الصغيرة مرة جت تعيط وتقول بأن زميلتها اللى بتشتغل فى قسم الهندسة وان مهندس كهربا فضل يعاكسها وهى تصده لغاية ما ضحك عليها وهى متجوزة من مدة بسيطة وأخذها يوصلها لبيتها لأنها سكرتيرة معاه وراح جنينة (٠٠٠٠) وهناك هجم عليها وصدفة شفهم البوليس وهى بتصرخ وبقت قضية ، البنت اترفت وطلقها جوزها وهى كانت بتصرف على أمها لأنها يتيمة اتظلمت أما اللى ضحك عليها فادارة الشركة نقلته لحتة تانيه فى المخازن وبعدين جه مدير عام صاحبه قوى أول حاجة عملها انه بالرشاوى والهدايا رجعه مدير زى ماكان وعشان البنات بيشتغلوا بعقد ٦ شهور بس يتجدد لو وافق مدير عام الهندسة الاثنين يستغلوا الفرصة من غير ضمير مع البنات ضد الأصول والدين والقانون وبعدين جه خطيب بنتى وهو مهندس كبير بالمراكب وكان غلبان زى حالنا وبعدين لقيته بيجيب هدايا بهيالة وكثير قوى وبعدين اشترى عربية بلونور (بولونيز) قلت منين الفلوس دى كلها ضحك وقال شيلنى واشيلك فقلت له يعنى ايه ، مخدرات ؟ ضحك وقال لا أنا باشتغل فى مراكب البحر الأحمر ومفتش هندسى (٠٠٠) مريض بالفلوس وكل حاجة النص بالنص وكل الهدايا لما بطلبها بيكون جايينها وكل الاصلاحات أو أى حاجة عايز أشتريها من بره وكله بثمانه قلت له مش فاهمه قال مدير عام الهندسة جاهز ويوافق على اللعب مادام شيلنى واشيلك فقلت : بس ده مال حرام ده مال حرام والمراكب والناس اللى

فيها ممكن يجرا لهم حاجة ضحك وقال ، هو حد حاسس أو شايف ما هو المراكب بتتعمل وأدى مركب الطقم محبوب من فى ألمانيا علشان الحاجات لما ركبوها كانت خسرانة والسرقات شغالة على ودته هو أنا بس تعالى شوفى زمايلي عندهم عربات وفلوس وعمارات زى الرز والبركة فى المدير الجديد .
وحضرتك يا دكتور هل يرضيك قلة الشرف والنصب ده وفين المباحث والوزير، أنا ح أفك خطوبة بنتى لأن ده مال حرامى بس ما أقدرش أخليها تسبب الشغل لأنها بتصرف علينا وأبوها ميت ، بس هى خايفة ليحبرها على الرذيلة أو يضجكوا عليها وتبقى فضيحة أرجوك احمينا قبل ماتقع الفاس فى الراس السلام .

الحاجة أم هاشم

بلوك المساكن الشعبية (.)

انى آسف انى أخفيت عن عمد بعض التفاصيل .
والأسماء ولكن الخطاب عندي وتحت تصرف السيد سليمان متولى وزير النقل والمواصلات .

ولكن حتى وزير النقل لن يستطيع حمايتك يا سيدتى فالفساد قد استشرى فى بعض القطاعات الى درجة يدهجيز أى وزير بشرى عن ايقافه .

بل وأنا أرفع هذه الكلمة الى الرئيس محمد حسنى مبارك لا أرفعها نيابة عنك وإنما أرفعها نيابة عن كل سكان البلوكات والعرب والقرى والشقق عن كل الذين لم يدخلوا بعد فى (اللعبة) عن الذين لا يزالون يصرون أن يعيشوا بشرف وفى شرف ، عن الخائفين على أولادهم وبناتهم من عصر قادم يأكل الناس فيه بعضهم بعضا ويتحولون الى ذئاب بشرية لا ترحم أحدا .

نعم الفساد يا سيادة الرئيس . موجود بشكل وياتى فى
الادارة الحكومية والقطاع العام وحتى الخاص وهو فساد
لست أنت صانعه ، انما يلاء حتى فى ظل الثورة وحكم
الرئيس جمال عبد الناصر ، فلقد سمعته مرة فى خطاب عام
يقول ، اننى حينما أضتع ميزانية لمشروع أعرف ان ١٠٪
على الأقل منه ستذهب ستمسرة وسرقات ، ولقد روعتني
الكلمات حقا أن يصرح رئيس الجمهورية بأنه غير قادر على
ايقاف السرقات وأى رئيس جمهورية ، وجاء عصر ما بعد
عبد الناصر لتزيد ال ١٠٪ أضعافا مضاعفة .

ولكن قلب مصر الحقيقى يا سيادة الرئيس لا يزال
سليما وضميرها لم يدخله الغش بعد ، والحاجة أم هاشم
ليست سوى قطعة مجهولة من ذلك الضمير الذى أعلم انه
موجود وانه حى وانه قادر نعم ان الخير لا يزال فى مصر أكثر
بكثير من الشر ، كل ما فى الأمر أن الخير ضعيف جدا لأنه
خير الذين لا صوت لهم ولا مال ، والشر عال مشهور لأنه شر
المزودين بالمال والمشتريين للذمم تصور يا سيادة الرئيس ان
المرأة القادرة الحديدية لا تزال تحيا فى مصر ، وتذهب الى
أى سوبر ماركت وتشتري وينحنى لها كل الموظفين مع انها
مطلوب القبض عليها ومقدمة للمحاكمة وهاربة انها تستطيع
وقادرة أن تشتري حريتها حتى لو حكم عليها بالسجن المؤبد
لأنها تملك المليارات .

وفى خطابك يا سيادة الرئيس توجه نقدك اللاذع لصحف
المعارضة ، والمعارضة السياسية لبعض خطواتك ، ولكنى
أرجوك يا سيادة الرئيس ولو من أجل أولادك الذين سيحيون
فى هذه الذات المصرية أن ترى العين الحمراء مرة لهذا
السرطان المستشري فى الآلة الحاكمة المصرية أن تتحرك

أجهزة التفتيش والقبض والتقديم للمحاكمة ان يعاقب
كل مختلس أو تعاقب ادارة بنك اقضت بغير مستندات أن
يحدث شيء أى شيء يوقف هذا الزحف الشيطاني الكاسح .

والى أن يحدث هذه فيا سيدتى الحاجة أم هاشم حسنة
ما فعلت بفسخ خطبة ابنتك ، وثقى انها لم تمس ، بشجرة .
ولو حدث ، فسأحمل أنا بنفسى القضية الى السيد وزير النقل
وربما الى النائب العام .

الخروج الى الشمال

بلا سبب واضح أحسست ان روحى قد بلغت الحلقوم، ولا يتسرع القارىء ويتصور انها حالة سببها الأحوال العامة التى تجتاح مصر هذه الأيام ، فأنا أعرف انها أحوال عارضة تماما ، وان سببها أيضا مثل السبب عندى يرجع الى حالة من الزهقان الفريب » التى قد تدفع لآى تصرف ، من اطلاق الرصاص ، الى اطلاق السباب ومن الحكومة والمعارضة على حد سواء .

وليست هذه الحالة وليدة اليوم أو هذا الأسبوع ، بل انها كانت تتتابنى وأنا فى طريقى للاجتماع الذى عقده الرئيس حسنى مبارك مع الكتاب والاعلاميين ، والحق ان الرئيس حسنى مبارك فاجأنى ، كما لا بد فاجأ الحاضرين جميعا فيومها صباحا أو فجرا ، كان خبر اطلاق الرصاص على صديقنا العزيز مكرم محمد أحمد قد استفزنا جميعا ، نحن الذين لا نملك سلاحا للدفاع أو الهجوم الا أقلام حبر متواضعة . . . وكنت أتصور ان الاجتماع سيكون محوره هو هذا الحادث الفريد فى تاريخ مصر ، وأن الرئيس سيكون فى روح معنوية مكتئبة لا بد . . . ولكن الرئيس بدأ كلامه

معنا وهو فى روح معنوية عالية لدرجة انى وجدت نفسى
أول الأمر فى حالة استغراب كامل ، وقلت : ربما الرئيس
يريد أن يزيح عن عيوننا ووعينا هذه السحابة الداكنة . .
ولكنه لم يكن يفعل هذا ، كان فعلا يتحدث حديث مصرى ابن
بلد ، يرى المشاكل فى حجمها الطبيعى أو حتى حجمها المصغر
حتى يحس انه أكبر منها ، ويرى المستقبل أكيدا وقادما . .
ومزدهرا ولا ريب فيه ولا شك والحق ان حديثه هذا عدانا
فما لبثنا أن أجلنا انفعالنا بما وقع وانخرطنا فى نقاش
حول مشاكل مصر الكبرى معه . . ولقد تخيلت وأنا أستمع
وأناقش ان هذا الرجل هو بالضبط ما تحتاجه مصر ليقودها
فى هذه الأيام حمدا لله انه ليس فى عصبية هذا أو عدوانية
ذاك ، وان باله طويل طويل ، وأعرف ان هناك مثلا شعبيا
يقول : طول العمر ينيل الأمانى ، ويبدو أن الأمر كذلك
أيضا فى مسألة طول البال فربما طول البال هو الذى سيضع
الجسر الذى تعبر عليه مصر من أزماتها ، ولكنى - وأنا
لا أستطيع أن أمنع نفسى من هذه الصراحة - أحس ان طول
بال الرئيس أطول كثيرا مما يجب أحيانا ، على الأقل أطول
من استطاعتنا نحن كشعب وككتاب على طول البال ، وربما
هذا هو الخلاف الوحيد بين بعضنا وبين الرئيس مبارك -
خلاف « كمى » فى طول البال ، وأبدا ليس خلافا « كيفيا »
على حل المشاكل . .

أقول - وجدت نفسى فى الأسبوع الماضى فى تلك الحالة
التي ذكرتها لكم عني « الزهق » ، « بالصدفة » المعضة كنت
أقرأ مقالة صديقى الكبير الأستاذ خالد محمد خالد فى الوفد
فوجدته يتحدث عن نفس الحالة من الزهق ، وانها ألجأته الى
التاريخ ، وبالتحديد الى قصيدة شوقي فى رثاء أدهم باشا

التركي ، كانت تغريبة ادن تغريبة تاريخية ليتخلص من
حالة الزهق ولكن لأن التاريخ يزيدني زهقا على زهق ، فقد
أثرت أن تكون تغريبتي جغرافية •

وهكذا ركبت العربة ومعى العائلة وانطلقت
شمالا ، ولم أذهب الى الاسكندرية هذه المرة ، اندفعت غربا
الى ما بعد الاسكندرية ، كانت جغرافية مصر الشمالية تنتهى
عندى حوّل العجمى والمكس والدخيلة ، هذه المرة قلت لتفسي
سأظل أسير فى هذا الطريق المزدوج الجميل الى أبعد مدى
ممكن أن أصله ••• فعلا هو طريق مزدوج - وجميل فالى
سنتين قليلة ربما الى العام الماضى فقط كان طريقا من أسوأ
الطرق فى مصر ضيقا مكدسا بعربات النقل هائلة الضخامة
والكارو والمارة والصيادين وفناطيس الغاز وكل ما يخطر
على قلب بشر ••• هذه المرة وجدت اتجاهين حدينيين جدا ،
ربما انتهت منهما هذا العام فقط ، وكنت اتصور ان مجلس
اسكندرية المحلى هو الذى فعل هذا ، لكن عرفت من الأستاذ
عبد الله محمود رئيس مشروعات الشاطئ الشمالى أن وزارة
الاسكان والمجتمعات الجديدة هى التى قامت بإنشاء هذا الطريق
والحق أنى كنت أسمع كثيرا عن وزارة الاسكان ••• والمجتمعات
الجديدة ولكن ، ربما لأنى كنت أحيأ فى القاهرة المخبوكة
المزدحمة كنت أحس أنها وزارة تكاد تكون وهمية أو نظرية
على الأقل ولكن حبي للسفر جعلنى أبدا أرى آثار تلك
الوزارة وذلك الوزير النشيط المهندس حسب الله الكفراوي
من مدينة ٦ أكتوبر الى العاشر من رمضان الى السلام الى
الصالحية الى المشروعات الجديدة فى تلك التى وجدت محافظا
عسكري القدرة على التخيل والتنفيذ اللواء يوسف عفيفي
بمشروعاته السياحية فى منطقة البحر الأحمر ناهيك عن

المشروعات فى محافظتى شمال وجنوب سيناء ، هذه كلها جعلتنى أعتقد اننا انكفأنا على مدننا القديمة ومشاكلها بطريقة جعلتنا لا نكاد نرى العمران الذى يحدث فى أماكن من مصر لم نلتفت لها قبلا وكأننا لا نعتبرها جزءا من مصر أو انها ملكنا .

هذا الساحل الشمالى مثلا صحيح ان الأجانب والدبلوماسيين هم الذين اكتشفوا فكرة مصيف العجمى حيث يستطيع الانسان أن يتحرر تماما من ملابس المدن ونفاق المدن ويترك نفسه للشمس والبحر والهواء الجميل والطبيعة وسواحل هى أجمل ، أجمل شواطئ العالم - وقد زرتها كلها من ميامى بيتش الى بلاجات تايلاند ، وكابرى ونيس . . هذا النوع من الرمال ، هذا الانحدار التدريجى نحو الماء ، هذا اللون الأزرق الفستقى لمياه البحر ، هذا كله لا يمكن أن نجده الا فى شواطئ البحر الأبيض الجنوبية وأجملها جميعا الشواطئ المصرية من مرسى مطروح الى أن تبدأ ضواحي الاسكندرية . . ومن المضحك هنا ان نذكر ان شاطئاً رائعاً كشاطئ مرسى مطروح لم نكتشفه الا عن طريق السينما وعن طريق فيلم ليلي مراد الشهير شاطئ الغرام . . ولولا هذا الفيلم ، ولولا السينما ، والآن لولا التلفزيون لما زادت معلوماتنا عن بلادنا عما كنا قد قرأناه عنها فى كتب الجغرافيا .

المهم - بدأت الرحلة زهقان كما قلت ويا للأثر الساحر للطبيعة فى تغيير معنويات الانسان ومزاجه ، كان أحسد أسباب زهقى لابد هو ضيق الفتحة التى نرى منها حاضر مصر ومستقبلها وواقعها . . ونحن نرى هذا كله من خلال وسائل اعلامنا ، ولأن تلك الوسائل قد ضاقت نظرتها هى الآخرى

حتى ليكاد الانسان يحفظ ماذا ستحتويه كل صفحة من صفحات الجريدة ، وماذا سيكون عليه البرنامج فى كل ليلة وفى كل قناة من قنوات التليفزيون ، حتى برنامج « خمسة سياحة » رغم جمال فكرته وتنفيذه وتقديمه الا أن هذا البرنامج لا يجعلنى « أعيش » المنطقة التى يتحدث عنها ، وأشمها وأفتح صدرى لهوائها وتاريخها وأستنشقها ، لماذا يكون « خمسة » أى خمس دقائق كل يوم لا تكفى حتى ليتعرف الانسان على كنه المكان ، لماذا لا يكون برنامجا أسبوعيا معدا اعدادا جيدا وحافلا بالمعلومات وبالاخراج المتقن للطبيعة وللناس وللآثار ان وجدت . . هذا الساحل الشمالى ، بودى لو كان معى كاميرا فيديو لأصنع للناس شريطا كاملا « للخروج » ، الخروج من الوادى الضيق والمدن المقدسة والأحياء الشعبية المعلقة بسرديّة البشر، هؤلاء الناس جميعا لو رأوا بلادهم على حقيقتها أو على اتساعها ، لو رأوا كم تمتد شواطئها كم ونوع الحياة الكامنة حتى فى صحرائها، لو رأوا مشروعات الوزارة فى واحة سيوة مثلا ، هل عندنا فيلم تسجيلى كامل لكل واحة من واحاتنا ؟ ، فيلم « فتى » يقوم به مخرج كبير كصلاح أبو سيف أو على بدرخان أو على عبد الحالى أو العظيم يوسف شاهين . . ؟

أجل - الخروج ليس من الأزمة ولكن من الوادى الضيق للأزمة ، ذلك الذى طالما نحن محشورون فيه فائنا أبدا لا يمكن أن نرى الحل من خلال نظرتنا التى ضاقت به وضاق بها .

لقد رحت أحلم والعربة تنساب فوق الطريق الطويل لا أحلم فقط بمستقبل القرى السياحية من مارابيللا الى مارينا لماذا هذه الأسماء الايطالية ؟ الى مدينة وزارة الخارجية

الى المشاريع الخاصة - بالمناسبة هناك مدينة سياحية للصحفيين موجودة فى مكان ما على الشاطئ الشمالى وحصلوا من كل منا ألف جنيه وزيادة كوبون ، ولا يوجد لها من أثر لا فى الحقيقة ولا فى الخريطة - أقول ، رحت أحلم بشيء كالذى صنعه اليونان بشواطئها الصخرية الناتئة فلقد عقدت اليونان صفقات رابحة مع شركات عالمية لإنشاء سلسلة من أجمل الفنادق والمنتجعات على جزرها المتعددة ، وإيراد اليونان من هذه المشروعات هائل الضخامة ، فقد كنت فى جزيرة صغيرة من جزر اليونان اسمها « كورفو » وعددت ٨٥ رحلة طيران فى الليلة الواحدة منها واليها ، وشواطئ هذه الجزيرة « مصنوعة » أى أن الرمال منقولة لها من قاع البحر فما بالك برمالنا وشمسنا ومياهنا الفستقية الطبيعية !؟

إنى أرجو أن يكون مشروعا أساسيا من مشروعات مصر للمستقبل العاجل والقريب أن ترصد ما لا يقل عن المليار جنيه لمشروعات الساحل الشمالى لتزويده بشبكة أدق من الطرق والكهرباء والمياه والمطارات وانى متأكد من أن هذا المليار الواحد يستطيع على مدى السنوات العشر القادمة أن يسدد عشرين مليارا من ديون مصر الخارجية وأن يحيى « بلدا » كاملا من جغرافية مصر المهملة اسمه الساحل الشمالى ... شكرا لهذا الوزير الذى أنشأ ميناء دمياط وأحيا الساحل الشمالى وعمل المثير فى صمت ودون اعلانات مدفوعة الأجر أو غير مدفوعة ولا أشكره فقط على هذه الأعمال الكبيرة ولكنى أريد أن أشكره لسبب شخصى ذاتى محض فقد خرجت من القاهرة متجها شمالا وروحي قد بلغت الحلقوم وعدت اليها وقد ردت الى الروح رغم انى لم أمكث فى الرحلة كلها أكثر من أربع وعشرين ساعة .

برقية طويلة مدحت عاصم

أستاذى وصديقى ومعلمى فى الوطنية والفنية
والتقدمية مدحت عاصم . . نعم كما قلت لقد كان شرفا أن
ألقاك طالب طب ينجل من خياله ، وانت الموسيقار المشهور
ملء السمع والبصر ، وأخذت أستمع لك فى منزلك فى
العباسية وانت تعزف سوناتا ضوء القمر لبيتهوفن ثم قطعة
موسيقية لك وكنت أول مرة أستمع فيها الى موسيقار كبير
مصرى يعزف على البيانو من يومها وتلك العلاقة الفنية
الوثيقة التى بنيت على أسس وطنية وثورية وآلة شخصية
تثرى حياتى وتجعلنى كلما رأيتك أرى ان مصر لا تزال
بخير .

قرأت لك ما كتبتة ردا على « نقدى » للتليفزيون ،
واعتبارك ان ما قلته كان تحاملا منى على برامجه وعلى
المجهود الكبيرة التى يبذلها الكثير من أبناءه مع رئيسه
ومسئولى قنواته .

وأذكر لك أيها الصديق العزيز انى أستطيع أن أزعج
— فى هذه النقطة بالذات — انى أكثر منك اتصالا بالعمل
اليومى فى التليفزيون ، وما يتطلبه من جهود خارقة ويقظة
وانتباه لنملة الخطأ اذا حدثت .

ولكنك ظلمتنى وأعتقد انك ظلمت التليفزيون أيضا
. . فأنا لم أكتب « لأنقد » برامج التليفزيون ، صحيح انى
قلت ان معظمها « هلس » وكنت أعنى بالهلس هنا اللعب على
تسلية الجمهور ونفاق طلباته من مسرحيات معادة وكوميديات
لا تضحك . . الا الابله أو المتخلف عقليا وآخرها مسرحيات
عبرى العباقره محمد نجم ذلك الذى ظلمت — والله — أتفرج

لمدة نصف ساعه عليه وهو يحاول استدرار الضحك من جمهور غلبان مسكين فرض عليه فرضا وانا مذهول كيف يمكن أن يسمح التليفزيون بعرض هذا التخلف على الناس، وأيضا أنا هنا لا أنقد . فهكذا هي الحركة المسرحيه للقطاع الخاص وهذا هو المسرح فى نظر البعض .

انى انما كنت فى الواقع أتحدث عن التليفزيون «كجهاز» أصبح دوره فى كل انحاء العالم هو الارتفاع بمستوى تفكير وذوق وأحلام الانسان العادى . . فزمان كانت الثقافة لا توجد الا فى الكتب وكانت هى التى ترفع الذوق والمعرفة والذكاء ثم انتقل هذا الدور الى الصحف ثم الاذاعة وأخيرا هذا الوحش الاعلامى الثقافى العلمى الترفيهى التليفزيون .

واذا كان التليفزيون كوسيلة تعليم واعلام مهم جدا فى بلاد العالم الأول فهو قد أصبح بالنسبة للعالم الثالث الذى نحن منه مسألة حياة أو موت بمعنى أدق مسألة حياة روح هذه الشعوب أو قتلها واستعمارها ثقافيا وفكريا وحضاريا . ولهذا كنت حريصا فى كلمتى عن التليفزيون على القول انى لا أنقد برامج هذه الأيام ولا دور التليفزيون هذه الأيام وانما أنا أذكر دوره منذ انشائه وقيامه والى الآن ، وهو دور كان ولا يزال الى حد كبير يمثل دور « البلياتشو » الذى يزغزغ الناس ويرفه عنهم ويضحكهم وكنت أريده الى جانب هذا أن يقوم بدور المعلم . المعلم لا بالتلقين وانما بالامتناع ودور المثقف ليس فقط ببرامج الأستاذ فاروق شوشة المتخصصة الشيقة وانما ببرامج كلها ثقافة ولكنها لا تخيف الناس بقولها انها برامج ثقافية ، واذا أردت أن تعرف ما أعنى بالضبط فانى أرجو من التليفزيون — ان استطاع — أن يسجل يوما بأكمله من ارسال التليفزيون البريطانى .

أو حتى الهندي ، وأن يذيعه علينا مترجما لنرى الفارق .

نعم . . ان التليفزيون هو أخطر وسيلة اكتشفها البشرية الى الآن في صناعة وصياغة الرأي العام وحتى المواطن الخاص ، والتعامل مع هذا الجهاز يجب أن يتم من منطلق الادراك التام لخطورته الشديدة فنحن مثلا لو كنا قد عملنا تحقيقا تليفزيونيا صريحا عن حالات الغش الجماعي ومع الأساتذة الذين طعنوا بالمطاوى ، ومع الطلبة ، لاجتثنا هذا المرض بأكمله دون أن نذكر نصيحة واحدة . . اذ هكذا يستعمل التليفزيون في المجتمعات الأكثر ذكاء في استعمال التليفزيون والمدرسة لخطورته وأهميته ، والتي تستخدمه كوسيلة عظمى للترقى والتمدن والتحضر ، ولهذا كنت أنقده منذ انشائه .

ولأنى وجدته لم يصنع شيئا طوال أكثر من خمسة وعشرين عاما الا انه رفه عنا قليلا وفي المقابل فرض علينا فكرا متخلفا وخرافات وديماغوجية ، رأيت الى هذا العالم الذى قال منذ أسبوع مضى ، اذا رأيت حلما سيئا فابصق ثلاث مرات الى اليسار حين تصحو من النوم ، واذا رأيت حلما حسنا فابصق ثلاث مرات الى اليمين لدى صحوك من النوم ، أى ثقافة تلك بربك ، أى مفهومات للحياة يرسبها هذا الجهاز، أى كارثة يتعلمها الطفل والمراهق والشاب الذى يأخذ ما يشاهده فى التليفزيون على انه قول لا يناقش ولا يمكن أن يشك فى صحته .

ولهذا أيضا فنحن أمام هذا الجهاز بعد ربع قرن من انشائه فى حاجة الى وقفة لا بد تنتهى بعد نقاشنا حولها الى وضع سياسة اعلامية تليفزيونية ثابتة يكون الهدف منها أن

نرتفع بمستوى الشعب ثقافيا وصحيا وعلميا وتعليميا خلال
السنوات الخمس القادمة بمقدار لا يقل عن ٥٠ في المائة
زيادة على مستوانا الآن .

أيها الصديق العزيز أزلت تختلف معي وتقول ان
قلمي قد (شط) ؟

انا نختنق .. نختنق

الساعة الثالثة بعد الظهر ، نقطة التلاقى بين شارع
الجللاء الذى توجد به الاهرام وبين شارع ٢٦ يوليو نقطة
عبثية تماما وكأنها منتزعة من فيلم تسجيلى عن يوم القيامة ،
يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه ، أو بالمعنى المعاصر يوم
يفز راكب الدراجة من راكب الموتوسيكل من السائر هائما
على وجهه من ديناصورات النقل الكبيرة و « التريللات »
الساحبة وراءها مركبة لا تقل عنها ضخامة من عربات
السوزوكى والتىوتا ورمسيس وعربات الأوتوبيس والعربات
الخاصة وأبدا لا يتوقف المرور فى الاتجاهين معا ، والشاطر
هو الذى « يدخل » على الثانى وقيادة السيارات بالذراع
وبأعلى « سارينة » وبالخبط فى الجنب أو فى الأكصدامات ،
ويا ويل العابز على قدميه أو راكب الدراجة فحياته ممكن
لو لم يستعمل كل بهلوانيته وسرعته ، لو كان مريضا أو
كبير السن ، لو كانت سيدة بدينة ممكن أن ترتفع الى بارئها
فى لحظة ، والغريب انه لم تقع حادثة دموية واحدة فى هذا
التقاطع طوال السنوات العشر التى استعمله فيها عائدا الى

منزلى ، وليس هذا بالطبع لحسن ادارة عسكري المرور المسكين
القادم لتوه من التجنيد الاجبارى ، وانما لاننا نحن انقاهريين
قد علمتنا سنوات التدفق السكانى والازدحام غير البشرى ،
أنماطا كثيرة للسلوك البهلوانى والاتكالية والضرب عرض
الحائط بمخاطر عبور الشوارع والميادين ، ناهيك عن القدرة
على النفاذ بين عربتى نقل مخيفتين أو عربتى أوتوبيس
تكادان تتلاصقان بحمولتيهما البشرية الضخمة المهم انى
لا أكتب هذا انتقادا لحركة المرور فى هذا التقاطع فقد كان
مفروضا أن تحل من زمن كبير ، وكان مفروضا أن يكون
أول نفق تحت الأرض ينشأ فى مصر ان ينشأ فى ميدان
الاسعاف ويشمل بالتالى تقاطع الجلاء مع ٢٦ يوليو فتلك
المساحة ، أو اللامساحة ، هى أكثف حركة مرور فى القاهرة
كلها .

ولكن بما ان القاهرة الجديدة كلها قد نشأت عشوائية
بلا أى استعانة بعلم تخطيط المدن « وهو من أهم العلوم
الهندسية ، وموجود فى كلياتنا ولكن كل خريجه بلا استثناء
يهاجرون الى البلاد التى تخطط مدنها فعلا لدرجة انى قابلت
مرة ثلاثة مهندسين حاملين للدكتوراه فى تخطيط المدن
يعملون فى مدينة بوسطن الامريكية ، واحدة من أجمل مدن
العالم تخطيطا ، بينما قاهرتهم فى مجاعة شديدة لهذا النوع
من المهندسين ، ولكن شئوننا البلدية والقروية لم تكن تحفل
بالتخطيط وحين انتقل الأمر الى محافظة القاهرة والى رؤساء
الأحياء فسدت الأمور أكثر وأكثر ، ولولا ان قيض الله
أخيرا للقاهرة محافظا واسع الأفق والتفكير ، عارفا وقادرا
على عمله بلا أى كلل أو تقاعس هو اللواء يوسف صبرى
أبو طالب ، وبدأ يديننا بلمساته معنى أن تكون المدينة

مخططة ، وأن يكون لكل حديقته ولم يبق الا أن يعود لكل شارع أرصفته ولكل عمارة أمكنة انتظارها .

أقول لا أكتب هذا انتقادا لحركة المرور في تقاطع الجلاء - ٢٦ يوليو، ولكنى أكتبه للمنظر الذى رأيته وشممته واختنقت به ، ولا أزال أفعل كل يوم الساعة الثالثة كما سبق وقلت ، وحركة المرور على أشدها ، موظفون عائدون راكبين وراجلين وأوتوبيسات سردينية المحتوى هرقلية الحجم والجثث وعربات نقل . . الى آخره ، كنت واقفا في إشارة المرور ، احتراما للإشارة التى لا يريد أحد أن يحترمها ، أحاول أن أرى من خلال زجاج السيارة ان كانت الإشارة فتحت أم لاتزال حمراء ، وفجأة تبينت ان هناك ما يشبه العاصفة الرملية أو الترابية بالكاد أستطيع أن أرى من خلالها ، وفتحت زجاج السيارة لأرى المنظر على حقيقته، وكم روعنى ما رأيته ، فلا يوجد ماسورة عادى لعربة أوتوبيس أو نقل أو ميكروباص أو تاكسى قديم الا وهى تنفث نافورة أفقية من الدخان نتيجة اختلاط كيروسياتها بزييتها أو بديزلها ، دخان دخان دخان ، لا يملأ الجو فقط ، ولكنه يخنق التنفس ، ويشير مع التراب الكثير الذى يحفل به الشارع سحباً متجمعة متضاربة منتشرة الى الجوانب والى أعلى واصله الى كل حلق وفتحة عين .

يا الهى ، لكأننى فى قاعة فرن فلاحى قد سدت منافذها وأغلق بابها وقد امتلأت بدخان الحطب المندى .

ربما الذى دفعنى للاحساس بذلك المشهد الم هول الذى لا يمكن أن يحتمله أحد هو اننى كنت عائدا لتوى ، ليس من لندن أو باريس ، وانما من قلب أفريقيا ، كينيا ، وتنزانيا ،

والصومال ، وأفريقيا بلاد أفقر منا بكثير ، ومعظم شوارع ممباسا أو دار السلام ليست مرصوفة وإنما هي مسواة على حالها الترابي ، ولكن ليس هناك تلوث يمثل هذه الكشافة الخائفة ، أذكر اني كنت في نيروبي ، وكنت في طريقى لاتحاد الكتاب الكينيين وكنت أستقل عربة تاكسى ، وكان سائقى اسمه ايليا ، وكان مسلما ، ولما سألته عن هذه المعادلة الغريبة ، قال لى : فى عهد الاستعمار لم يكن يسمح بدخول المدارس الا للمسيحيين فقط ، ولهذا كان كثير من المسلمين يسمون أولادهم بأسماء مسيحية ، كاثولوكية فى الغالب ، ليتمكنهم دخول المدارس ، وانه بعد جلاء الاستعمار بدأت كثرة من تلك العائلات فى العودة الى تسمية أبنائها بأسماء اسلامية .

لا أريد أن أطيل ، فأثناء دردتى مع السائق بدأت العصبية وكثير من الغضب يحفل بهما صوته ، ثم نطقها وقال: هذا السائق الملعون ، ونظرت فرأيت أمامنا سائق عربة نقل ، وكانت العربة هى الوحيدة التى « يفوت » موتورها وينفث دخانا نتيجة اختلاط الزيت بالبنزين داخل المحرك ، تلفت حولى فاذا بنا نسير داخل غابة خضراء يانعة يقطعها هذا الطريق الرفيع ، والغابة كما نعرف تولد الاكسجين ، ومعظم كينيا وشرق أفريقيا غابات خضراء شاسعة ، ومع هذا ونظرا لاحتمال زحف التصحر ، من الصحراء ، مع سنوات الجفاف الطويلة ، فقد بدأت كينيا منذ ثلاث سنوات مشروعا اسمه مشروع الشجرة ، اذ يزرعون كل يوم مائة شجرة جديدة ، داخل بلاد تحفل بغابات وغابات من الاشجار كل هذا خوفا على البلاد والمدن من تلوث الهواء .

وصل الغضب بايليا أقصاه ، وبدأ محاولات خطيرة

مستميتة لكى « يعدى » عربة النقل التى تنفث دخان الزيت
وهو يصرخ ، تلوث .. تلوث ..

.. هذا السائق البسيط يرعبه هذا التلوث ، ويعرف
معناه بالانجليزية فى بلاد لا تكاد تحفل بأية آثار للتلوث!
المضحك انى عرفت من سفيرنا فى كينيا الصديق محمود
عثمان ان فى كينيا بعثة لدراسة البيئة والتلوث يرأسها
الدكتور مصطفى ، واحد من أعظم خبراء البيئة والتلوث
فى العالم ، وموفد هو والبعثة لدراسة التلوث فى حديقة
أفريقيا .. كينيا .

أليس هذا ظلما يا الهى ما بعده ظلم ، يعنى نتج نحن
الشعب المصرى أكبر خبراء العالم فى التلوث ، وتحفل
قاهرتنا الحبيبة بأعلى نسبة للتلوث فى العالم الى درجة انها
وصلت فى بعض الأحيان ، وبالطبع لابد انها كذلك فى
تقاطع ٢٦ يوليو مع الجلاء ، وصلت الى درجة ألف فى المائة
من الحد الأعلى للتسمم التلوثى .

كل هذا ونحن نتنفس التلوث ونبتلع الذرات الخائقة ،
وتمتلئ رئتنا بعامد النقل والأتوبيس ، والمرور لا يفتش
أبدا على العادم ، يكفيه البوية ورقم الشاسية والموتور ،
ويتم الكشف على المركبة . بينما العادم يترك ليضخ فى
شوارعنا وصدورنا ملايين الأمطار المكعبة من الزيت العادم
ناهيك عن التراب وبقية ما تثيره الرياح من قاذورات ، كل
هذا وثمة مؤتمر للبيئة ، مؤتمر عظيم مهول أسفت تماما
اننى لم أتابعه بنفسى شخصا انعقد خلال بضعة الأسابيع
الماضية لدراسة التلوث البيئى فى مصر ، وتلوث مياه النيل،
والتلوث الصوتى الناتج عن استعمال الميكروفونات وبقية
الضججات الصادرة من الشارع المصرى بطريقة لا يمكن أن

تحتملها أى أذن بشرية ، وإذا احتملتها فلا بد أن تصيب العقل الذى يسمعها بالصمم أحيانا ، وبارتباك الوظائف وبالاغتراف التام للقدرة على التركيز أو انجاز النشاطات العقلية الواجب القيام بها .

لهذا انت ترى المواطن فى شارع القاهرة ثائرا يلهث من قلة الأوكسجين تائه الوجهة والتركيز من ضجة الأصوات والميكروفونات سريعا ما يصيبه الكلال والتعب ، نافذ الصبر ، بطيء الحركة ، مصابا بما أسميته (التولة) غالبا ما ينتهى أمره الى كلفة عمله ، أو الانهيار جلوسا على قهوة ، أو أمام مكتب وارم القلب والعقل يلهث بلا تعب ويعرق بلا أى مجهود ، ويقصر عمره ويزداد وزنه من قلة الحركة والنشاط فهو يعيش فى جهنم مليئة بالتلوث ، والدخان ، والغبار ، والضجة الخرافية تحاصره ولا حفنة من هواء نقي ، أو هدوء ، يستطيع معها أن يلتقط أنفاسه أو أنفاس عقله ويعود كائنا بشريا يصلح بما يصلح له أى كائن بشرى فى أى مكان آخر من العالم .

لقد أصبحت الحياة فى قاهرتنا الحبيبة مع كل ما تحفل به من تلوث فى الجو وفى الماء وفى الأصوات ، أصبحت ، معجزة العالم الثامنة لا بد ، فانى لأكتب هذا وأتساءل : كيف بالله مازلنا نحيا ؟

وأعقبه بتساؤل آخر موجه الى حكومتنا : كيف تحكمين الناس والبلاد وهى تحفل بهذا الكم من التلوث ؟

لماذا الطب مقدس ؟

حسن جدا بادرت بفعله نقابة أطباء القاهرة والنقابة العامة للأطباء من احوالة الدكتور أحمد شفيق الى مجلس تأديب لخروجه على المادة الثامنة من آداب مزاولة مهنة الطب . ذلك أن مهنة الطب لها وضعها الخاص بين مختلف المهن التي يزاولها الانسان . فالطبيب ليس مجرد مهني آخر يزاول مهنة أخرى كالمهندسة أو التدريس . الطبيب مهنته صيانة روح وجسد الانسان . وانت حين تذهب للطبيب تسلم نفسك تماما له ، بحيث تؤمن تماما بما يقول ، وتستسلم لمبضعه اذا شاء ان يجرى لك عملية جراحية ، ممكن في أثنائها أن يصنع بجسدك ما يشاء . كذلك اذا ذهبت الى طبيب نفسي ، انت تدلى له بكل الأسرار التي لا تستطيع أن تدلى بها لأخيك أو لصديقك أو الى أعز الناس وأقربهم منك . اذ أنت تعتبره الأمين أمانة عظمى على كل هذه الأسرار ولذلك فكل المهن من قديم الزمان كان ممكنا أن تزاولها بمجرد الحصول على مؤهلاتها ماعدا الطب ، فلا بد أن يقسم قسم أبوقراط أبو الطب في مزاولة عمله بمنتهى الأمانة والمسئولية والصدق والمحافظة على مريضه والعمل بكل ما يملك على شفاؤه . قسم أبوقراط هذا شيء رمزي محض يرمز الى جعل الطبيب الشاب يحس بأهمية وخطورة المهنة التي سيبدأ في مزاولتها ، بل يحس تجاهها بنوع من القداسة والتبجيل . وأذكر ونحن في المدارس الابتدائية انه كان مقررا علينا في كتاب المحفوظات قطعة تتحدث عن الطبيب ما زلت أذكر الى الآن منها هذه الفقرات : رعاك الله يا رسول الرحمة ، ومنقذ المرضى ، وملجأ الملهوف . أن يدك التي تطيب المريض ليست كأيدينا ، ومشرطك الذي يعالجه ليس مبضعا وانما هو اصبع ملاك حارس يجتث العلة . . الخ . .

من أجل هذا تحاط مهنة مزاوله الطب بكل الاحتياطات التى تمنع بعض الأطباء الشاذين - وليس كل الناس أسوياء - من استغلال جهل المريض أو عدم ادراكه حقيقة مرضه أو « النصب » عليه أو الاحتيال أو اساءة استعمال أسراره وأذكر فى هذا القبيل أحد (الزملاء) الأطباء ، زمان ، كان يعمل فى قرية وكانت لديه ثلاجة تضىء اذا فتح بابها كالعادة ، فكان يقول للمريض : تعال . . . أعملك اشاعة . . . ويوقفه أمام الثلاجة فتضىء ثم يغلقه ويقول للمريض : خلاص ، عملنا الاشاعة ويتقاضى منه خمسة جنيهاات اضافية مقابل تلك الاشاعة ، وكثيرة هى أمثلة النصب والاحتيال ، ولكن المهنة فى مجموعها والأطباء فى مجموعهم ، وحسب خبرتى حتى كمريض ، أناس يحتلون أعلى المقامات بالذمة والأمانة والانضباط .

ولهذا يحاط أيضا، استعمال أى عقار جديد، بضمانات شديدة الدقة خاضعة تماما للأصول العلمية ، حتى لا تنقلب المسألة الى فوضى ويصبح أى طبيب حرا فى أن يجرب على مرضاه كل ما يخطر على باله من أدوية يخترعها أو يدعى انها جديدة . لا بد من اقرار أى دواء جديد بواسطة الجهات العلمية المختصة ثم بعد هذا ، ترخص وزارة الصحة باستعماله ويعطى رقم ترخيص * وأى طبيب يستعمل عقارات أو كيماويات غير مرخص باستعمالها عقوبته السجى، وليس مجرد الانذار أو التأديب .

اما أن يؤدى هذا الى تشييط همم الأطباء الذين يريدون أن يخترعوا أو يبتكروا فهذا قول ساذج تماما وغير صحيح بالمرّة فباب الاجتهاد والاختراع مفتوح على مصراعيه ولكن،

ومهم جدا كلمة ولكن هذه ، هناك ضوابط علمية دقيقة
موضوعة كلها لمصلحة المريض ، اذا على الطبيب الذى يكتشف
أو يخترع أن يتقدم الى الجهة العلمية المختصة باكتشافه ،
ويطلب الاذن بالتجريب على الحيوانات ، ومئات الجداول ،
ومتطلبات أخرى كثيرة تتأكد الجهة العلمية من فاعلية الدواء
ومن تركيبه الكيميائى ومن أضراره الجانبية أو عدم
وجودها ، ومن تعارضه مع أدوية أخرى أو عدم تعارضه .
بعد هذا تأذن الجهة العلمية بالترخيص للطبيب بامتعمال
الدواء الجديد ، على المرضى - وأيضا تحت اشراف علمى
دقيق - حتى اذا نجحت التجارب على المرضى ، يعتمد الدواء ،
ويسمح بالنشر عنه فى مؤتمرات الطب والدوريات العلمية
ويصرح لمعامل الأدوية بتصنيعه حينذاك فقط .

اما أن تواجه وسائل الاعلام ، من خلف كل الجهات
العلمية ، بدواء جديد فلو حدث ذلك فى أى بلد فى العالم
لشطب اسم الطبيب من قائمة المزاولين لمهنة الطب وقدم
للمحاكمة فورا ، فالمسائل ليست فوضى ابدا ، بل ان هناك
فى انجلترا قواعد دقيقة لكتابة اللافتة التى تحمل اسم الطبيب
يحيث لا يزيد عن العشرة سنتيمترات بأى حال ، بل ان هناك
مادة فى قانون مزاولة المهنة فى انجلترا تمنع الجرائد
والمجلات من نشر أى شكر للطبيب المعالج على صفحاتها ، فاذا
حدث وقبل الطبيب أن ينشر شكره فان اسمه يشطب فورا من
النقابة أو بتعبير الانجليز أنفسهم « أى يكشط كسطا » من
قائمة الأطباء . . .

فما بالك بعقد المؤتمرات والظهور والسهرات فى
الاذاعة والتليفزيونات؟! ان عودة نقابة الأطباء الى احكام
قبضتها على اخلاقيات مزاوله مهنة الطب فى ظل الفوضى
الأخلاقية والذممية التى تحيا فيها ، لعمل عظيم وجاد وآن
أوانه بعد ما كاد أن يفلت الذمام .

خطاب من راكبة أتوبيس

سلامى تحياتى

رجاء أن أحيط سيادتكم عنما بالآتى ، نحن صنف المرأة
نعانى الأمرين فى المواصلات - الزحام شديد جدا والاختلاط
فيه لا يليق مطلقا ، يعلم الله المواصلات بالنسبة لنا رعب -
وركوب الاتوبيس بالنسبة لى أنا بالذات جهنم العمراء كتبت
لحضرتك بالذات لانك تستطيع ان تقدر مدى الاهانة النفسية
والالام لمجرد اتخاذ الاحتياط والدفاع عن النفس ..

فى اعتقادى هذه الجريمة تعتبر ، زنا واغتيا لا لشرفى
ودينى وجنسى ، يعز على انثى فى بلد بكل هذه الحضارة
والتقدم والعلم والدين ولا يفكر فىنا مسئول أو مسئولة
لأن حضراتكم طبعا بعيدون جدا عن هذا ..

يعز على انكم تفكرون فى بنات غرة اللاتى يرشقن بسهام
فى ظهورهن ونحن هنا نرشق بأمر من السهام ، من كل جهة
يوجد مجرم لعين - أسفة - ويستوى فى ذلك الكبير والعجوز
والطفل ؟! سنة فأكثر - المتعلم الجاهل - النظيف والوجيه
والقذر وكل طبقات الشعب بلا استثناء ..

صورة لا تليق بمصر ولا توصف بكلمات أو عبارات •

لذلك ارجو أن تتكرم سيادتكم وتتخذ الاجراءات مع كل من يهمله الأمر ، فتفصل بيننا وبينهم فى المواصلات بكل الطرق أى ان تخصص أتوبيسات للنساء ، فقط هذه الاتوبيسات تسرى عليها أبونيهات الطالبات والموظفات أى للفتيات التى لا تستطيع استعمال الميكروबाص اذ انه يكلفنا جنيها أو اكثر فى اليوم • واسمح لى ان اقدم لك وللمسؤولين اقتراحا ، لقد قرأت أن هناك ثلاثمائة أتوبيس جديد نازلة تغذى الخطوط من أول مارس ان شاء الله بمعدل ٦٠ أتوبيس كل شهر •

فهل من الممكن تخصيص ٦٠ أتوبيس فقط للنساء ، تعمل بالذات على خطوط ميدان رمسيس - جيزه - شبرا - دوكسى - ميدان التحرير - الجيزة - شبرا - العتبة •

ولخدمة وسط البلد المزدحم حيث الاشارات كثيرة - والفرامل كثيرة وكل فرملة من السائق الأرعن يحدث الالتصاق الهمجى الذى نتألم له كثيرا • لو جلست كل ست لانهلت المسألة • ولكن حتى هذا الجلوس لا يكفى لأنه فى النزول والطلوع والسير داخل كتلة الرجال اشياء لاتليق •

صدقنى اننى أنزل من الأتوبيس ومن كثرة الفرامل والرج والاحتكاك أجد مفاصلى مقلعة وجسدى أشلاء وكرامتى تنزف حتى انى احيانا أبكى •

رجائى ان ينظر فى امرنا كلنا من اجل حفظ كرامة المرأة المصرية •

ولسيادتكم جزيل الشكر مع رجاء عذري للأخطاء
النحوية واللغوية فأنا آسفة أنا مرهقة واعصابي متعبة .

مقدمته

سعاد فهيم منصور

مهندسة زراعية

١٥ شارع الشبيني بالعباسية

السوق ٥١ سنه

والكاتب ناشر هذا الخطاب يتقدم الى رئيس هيئة النقل
العام وأساسا الى الوزير الحاسم المهندس سليمان متولى بهذه
الشكوى وبهذا الاقتراح الذى أؤيده من كل قلبى .

فلنكتشف أنفسنا

ربما نحن لا تزال بعد لا ندرك قيمة حضارتنا في نظر
العالم .

أى انبهار كان يحدث للشخص حين اللقاء وأقدم اليه
نفسى ويعرف أنى مصرى عربى فيعود يشد على يدي ويقول:
انى سعيد جدا أن أقابل ممثلا لأعرق وأول حضارة على
سطح الأرض .

ولقد سألت عالما هنديا عما يعنيه بالضبط بتلك
العبارة . فقال : ليست حضارتكم حضارة ومعمار ولفنة
وعلوم فقط ولكنها الحضارة التى أحدثت فى العالم القديم
ثورة حضارية لا تقل عن الثورة التى أحدثتها الصناعة
واكتشاف البخار والكهرباء والذرة والتكنولوجيا فى عصرنا
الحاضر .

انتم اكتشفتم الزراعة . اكتشفتم أن باستطاعة الانسان
أن يتحكم فى المملكة النباتية والحيوانية بحيث كفت عن النمو
ال تلقائى الذى لا ضابط له ، فأصبحت تزرع المساحات
الشاسعة من الأرض بارادة الانسان وبالتحكم فى البذور
والمياه واختراع أدوات للرى والزراعة . .

كنتم أول من تحكم فى الطبيعة وسخرها فى خدمة الانسان ومن هنا ، لم تكن حضارتكم هى الأولى فقط ، ولكنها بداية تحكم الانسان فى الجماد والحيوان .. مما كان لابد أن يؤدى تلقائيا الى اختراع الآلة وتطور العقلية والعلوم ، ثم مراحل المدنية التى أوصلتنا الى ما نحن فيه الآن .

ثم ابتسم وقال :

— ولو لم يتحكم الكهنة ورجال الدين فى تفكيركم بحيث يوجهون اهتمامكم الأكبر لا لتطوير ما اكتشفتموه وانما للتوقف عنده والتوجه كلية الى الحياة الأخرى ومشاكل الخلود .. لو أعطيتكم نصف اهتمامكم بالموت وما وراء الموت الى الحياة وما يدور فى الحياة ؟

لكنتم وصلتكم الى العلوم الحديثة من أحقاب وأحقاب ؟ ولكن الانسان قد اختصر من رحلة حضارته مئات السنين . ولقد أرقنى قوله كثيرا ، ولا يزال يؤرقنى .. اذ ونحن الآن نحاول استمادة ما فاتنا ، ونحاول الوصول الى أسرار الثورة التكنولوجية الحديثة ، فلا تزال مشكلتنا الكبرى ، كما كانت فى الماضى ، هى مشكلة الهدف لأى هدف نتعلم ، ونستحوذ ، وتصنع ، وتثور ثورتنا الحضارية التالية ، هل نستعملها لنفكر فى الموت وما وراء الموت والنظر الى ما فات وعبادة الأمس وأحيائه واعطاء الظهر للحاضر وآفاق المستقبل ؟

إذا لم تكن نبغى التحضر لنسبق الزمن ونعوض ما فات .. إذا لم تكن نقاتل لنستعيد ذواتنا وأنفسنا لنمضى الى الامام .

إذا لم تكن قد أدركنا اننا تأخرنا لأننا كنا دائما نحيا فى عصر حى بأجسامنا كى نتفرغ للحياة فى الزمن الذى مضى بعقولنا وأحلامنا .

إذا لم يكن هذا كله هو رائدنا ؟! فأبدا سنظل غرباء
كتمثيل المتاحف في عصر حي ، ستظل عقولنا تجرى الى
الأمم لتأخذ من الحياة كل ما تستطيع .

ما غايتنا ؟

وهنا الفيصل . .

هنا لابد أن نتوقف ونسأل :

نحن نريد التحرر لننحضر ونتمدن نريد الكهرباء
لنصنع ، نريد العلم لنخترع ولكن كل هذه وسائل . . إذ
تبقى الغاية ، فما غايتنا من هذا كله ؟

والسؤال مهم ، والتساؤل محتم ، فلقد اخترعنا
التليفزيون وعممناه لننشر ثقافة هز البطن ومجالس الخلفاء
والندماء ، أو بالكثير لنعرض فيه أفلاما قديمة لعقلية قديمة
ولأهداف بالغة التأخر .

والسينما استعملناها لنروج لأسف وأحط القيم .

وصناعة السيارات بذلنا فيها دم القلب لتتكدس
تاكسيات يملكها القادرون .

ووزارة الثقافة استعملناها لنتيج كتباً ميتة ومسرحيات
هابطة .

السؤال مهم . .

فما لم يكن هدفنا واضحاً نرتضيه ونجمع عليه ونوزع
أدواره على كل منا . .

ما لم يكن وراء التحرر، والحرب أو السلام ، والاشتراكية
أو التصنيع ، والتنظيم السيامي أو تحرير الملكية ، ما لم
تكن هذه كلها أجزاء تابعة ومنتهية الى هدف أكبر وأعظم

يصبح الهدف المقدس فى حياتنا ، وتقديسه تابع من تقديس كل منا له واختياره اياه . فانا لن نصل لتحقيق هذه المفردات فقط ولكننا ربما نحققها بطريقة مثيرة للضحك تماما ، اذ نحققها لنصل بطريقة تقديمية جدا الى هدف متخلف جدا ، أو بالأصح نصبح عباقرة الاسراع الى الخلف فى عالم نكاد نستطيع اللحاق به لو أسرعنا الى الامام .

وفقط حين رأيت الآخرين ، الأفقر منا بكثير ، الأقل منا عمرا الذين يروننا الأعرق والأخلد ، بدأت أكتشف نفسى ، أقصد نفوسنا ، وأجد كل نفس لدينا قد أصبحت قارة ، أحاطت نفسها بستار ، ترفض كل شيء . وتهزأ بأى حدث ، وتعيش مثلما غيرنا يعيش ، وكأننا كنا فى انتظار نكسة ٦٧ أو أى كارثة عربية لنقول : بركة يا جامع ! وما الفائدة ؟ لنقول : ولسه ح نرجع نعاقر تانى ؟

وكل عشمى ألا نكون قد خرجنا من هذا كله وقد أضيئت معالم الانسان الآسيوى فى عيوننا ؟ عشمى الأكبر أن يكون كل منا قد خرج بضوء قد تسرب لنفسه هو ؟ وحتى بلا ضغينة يراها ؟ وبلا تأنيب كثير للذات يحادثها ؟ وبحديثه يكشف طاقة أمل ، مهما صغرت ، فهى البداية .

فلنعجل بالبداية

المشكلة أن نعجل بأن نبدأ ، فكل ثانية من الزمن تمر تموت من أعمارنا ثانية ولا تعود تحيا أبدا ، وكل ثانية زمن تموت . . . تموت معها ثانية ارادة . وإذا كان فى نيتنا أن نموت فلا شيء يدعو حينئذ للتعجل أو اليقظة ، أما

إذا كان فى نيتنا أن نحيا ، فمن المستحيل ما دمنا قد اخترنا أن نحيا أن نؤجل الحياة • والحياة ليست مجرد اشعاع أمل ، أو احساس بضرورتها ، أو اعجاب بها • الحياة حركة اذا أردنا أن نكون فلنتحرك ، بل حتى لو قررنا الموت فلنمت كما يموت الأحياء • فلنمت حركة ، فلنمت عملا ، ميتة أخرى غير التمدد فاغرى الأفواه مفتوحى الأعين نتفرج ؟ حتى على آلامنا نتفرج ، وكأن ما يحدث يحدث لغيرنا ؟ وكأن الألم لا يكوننا ، وكأنما ارادتنا جميعا سرقها لص ووضعها فى صندوق وألقى الصندوق فى البحر ، وكل مشكلتنا أن نظل نتساءل أين مفتاح الصندوق ؟ أحيانا نظنه مع ريغان ، وأحيانا مع الدول الكبرى ، وأحيانا لا بد أن أحدا قد دفنه فى رمال سيناء •

والمفتاح — أيها الأعزاء — لم يضع والصندوق والارادة داخلنا لم تسرق ، ولم تضع ، مع أنفاسنا تتردد ، ورهن اشارتنا تكون ، والمسؤولية مسؤوليتنا •

وعلى أنفسنا نحن باستمرار نتفرج ، والنكتة نرويها دائما عن الغير وكان الغير بطلها ، فى حين أن راويها لا يعرف انه البطل ، والمسألة طالت وطالت ، والأحاسيس كثرت وتشعبت •• كل ما فى الأمر أننا فقدنا احساسا لا نزال لم نشعر به ، ونتجنب أن نشعر به ، هو احساسنا بالهجل •

خاتمة

أن ينتهى الكلام عن آسيا ، كأن ينتهى الكلام عن الجنس البشرى والانسان ، مسألة لا يتصورها عقل •• هى ليست قارة فقط ، ولكنها أكثر من ثلثى العالم ، وبين كل ثلاثة

من سكان الأرض تجد اثنين منهم آسيويين . . فهي أضخم القارات عددا ، وأكثر التناقضات تناقضا ، ومن الرأسمالية بأبشع صورها الآسيوية فى اليابان وتايلاند وفورموزا وغيرها ، الى الاشتراكية بأروع صورها الشيوعية فى الصين وكوريا وفيتنام ومن بلاد محايدة وعلى شفا الحياذ ، الى تجارب من الديمقراطية الاشتراكية المعتدلة فى الهند ، الى دكتاتوريات عسكرية ؟ الى شعوب يحكمها الاستعمار ومخابراته ، وشعوب انتزعت حريرتها ، الى انسان لا يزال يعبد الأصنام ، وآخرين أخذوا الماركسية العلمية عبادة ، من نساء على هيئة جبشا ، الى مقاتلات تخصصن فى اسقاط الطائرات ، من حالة الكفاف الى دون الكفاف ، من الابطاطرة الى الرقاق ، ومن بلاد لا ينمو فيها القتاد الى أغنى البلاد . . انها العالم مركزا ومزدحما وواصلا الى أقصى درجات تناقضاته .

البلد الذى خلب لبيى

ومع كل ما رأيت ، فان البلد الذى خلب لبيى فى آسيا هو الهند . . الشعب ، والحضارة . ومن البطولات ليس أعلى من فيتنام ، فى التحلل هناك تايلاند وهونج كونج . فى الطموح المخيف نرى اليابان . فى أى مكان لا بد أن تعثر على نموذج ، والنموذج صارخ ، وفى كل مكان نلاحظ حركة من حركات التاريخ سادرة وسريعة ، لا يوقفها شيء . . . من الواقع أيا كان ، ومهما درت فى أفلاكه ، فى الشرق والجنوب والشمال ، فانى تذهب ستشعر حتما أن لهذا الكون مركزا ، ثقله من ثقل الشمس ، ومكانه الطين . . هناك

هى الحقيقة الكبرى ، ودائما هى فى الطريق لتصبح الحقيقة
الأكبر .

وأجلا أم عاجلا ، شاعت أميركا أم أبت ؟ فمصير آسيا
للصين لا للاستعمار الصينى ، والمائوتسية لا تستعمر ، وانما
للاشعاع العقائدى ، والمذهبى والثقافى والسياسى الصينى .
ومن الآن ترى الاشعاع يتجسد ، والأحزاب الشيوعية-
الصينية النمط تتكاثر وتصبح الأقوى ، وتملك المنطق
الذى لا يقاوم ، الثورة المسلحة التى لا بديل عنها ولا محيص .
بل أكثر من هذا ، سمحت لنفسى - ولست سياسيا -
أن أتصور الغد الآسيوى ، وهو غد يكاد يكون مفاجأة . .
لقد حاولت أمريكا أن تبني اليابان قاعدة رأسمالية تقود
القارة الى معسكر الرأسمال . . ومنذ نهاية الحرب واليابان
تبدو لأمريكا وكأنها أطوع لها من بنائها فى هذا الاتجاه ،
ولكن المسائل بدأت تتكشف ، ومع ازدياد القوة الاقتصادية
اليابانية بدأت اتجاهاتها ، أو رياح اتجاهاتها المستقلة تهب
. . وإذا كانت أميركا قد بذلت المستحيل لتصنع من اليابان
والصين اسفيننا يبقى العداوة بينهما الى الأبد ، فان تقديرى
الشخصى أن الاسفين سيتحول - بطريقة لم يحلم بها أحد -
ومنذ الآن تضع اليابان خططها لتتكامل اقتصاديا مع العملاق
الأحمر المجاور ، وبالصين واليابان معا ، بآسيا الاشتراكية
والرأسمالية التى بدأت تعود لتصبح وطنية بعد أن استنزفت
ما استطاعت استنزافه من رأس المال الأمريكى ، بهما معا ،
فى القريب ، ستنشأ كتلة أو معسكر متكامل متناسق أخذ
من الغرب كل علمه وأسواره الرأسمالية ومن الشرق كل

خلاصة تجاربه الاشتراكية ، وبدأ ، وسيبدأ يحقق لآسيا وجودا لم يكن لها فى يوم من الأيام . . . ومثلما خيل لبعض المعلقين ان احتمال حدوث الحرب بين أميركا وروسيا أقل من حدوثها بين الصين وروسيا ، فالاحتمال الذى سيكشف عنه المستقبل ، ان آسيا بغربها وشرقها بصينها ويابانها ، ستقف وجها لوجه أمام الاتحاد السوفياتى باشتراكيته ، والغرب برأسماله .



واذا كان هذان القطبان الآسيويان فى مركز أقل ، وليسا الدولتين الأعظم بعد ، فان الانفجار الاقتصادى والصناعى فى الصين واليابان يتطور بسرعة مخيفة ، وعلى يد العقلية الآسيوية الدائبة المتقشفة الضامئة الى الوجود والتفوق من زمن طويل ، سيصل الى آفاق لا يمكن أن يتصورها أحد .

عصر آسيا

نحن مقبلون اذن على عصر آسيا . . .

والصراع الآن على أشده .

اليابان تحاول أن تسحب من الرأسمالية الأوروبية والاميركية ، وتصبح هى موردة الصناعة والصناعات لبقية البلاد المرتبطة بالرأسمالية .

والصين تحاول أن تحل محل الاتحاد السوفياتى فى قيادة الثورة ضد الاستعمار والنفوذ الاستعماري بكافة أشكاله فى البلدان التى تبغى التحرر .

واذا انقسم العالم فى بحر السنوات المقبلة ، فانما سينقسم الى حضارة رأسمالية نامية مكتسعة ، وحضارة غربية تحاول الدفاع عن النفس والوقوف فى وجه ثلثى سكان العالم وقد امتلكوا أخطر أسلحة العصر : العلم والتكنولوجيا . . وفوق هذا كله ، قوة النمو المتفجرة الدائمة بعد طول صبر وطول مقاومة .

وسيكون الحياد حينئذ ، حياد بقية أوروبا أو بقية آسيا وأفريقيا ، حيادا من نوع آخر ، ليس فقط حيادا بين المذاهب ، ولا بين الاشتراكية والرأسمالية ، وانما حيادا بين آسيويين لا نهائى العدد ، (أميركيون أوروبيون) انتهت خلافاتهم المذهبية والنظامية يقتلهم الرعب من الخطر « الأصفر » الذى طالما تخيلوا بتنبؤاتهم وجوده . ولكن مع هذا ، أتمنى أن يحدث شيء آخر .

أتمنى أن يكون وقوف الانسان الآسيوى على قدميه ، ووقوف الانسان الأفريقى على قدميه ، فرصة أمام الواقفين على أقدامهم فعلا ، لا لكى يقاوموا هذا الوقوف من الجانب الآخر أو يعتبروه الخطر الساحق ، وانما بداية لمسلم آخر جديد ، وقانون آخر يسود هذا العالم . . قانون المساواة ، قانون العالم الأنضج الاقوى ، قانون لا يعود يسمح بقوة وحيدة ما ، أو حضارة واحدة ما ، أو منتصر واحد ما ، يسود ويخضع له الباقون وانما تبلغ بعقولنا حد الاعتراف ان السيادة المفردة ولت أيامها وان العصر عصر تعاون السادة ، عصر التشارك وليس عصر التفرد ، عصر التقاسم وليس عصر الاحتكار ، عصر التنوع وليس عصر النموذج الواحد ، عصر مساهمة الحضارات أجمع فى رقى

العالم أجمع ، وليس عصر املاء الحضارة الواحدة على
العالم كله .

نعم . . . أتمنى مثلما أدى التوازن الذرى والنوى الى
القضاء الحروب الشاملة ، أن يحدث نفس الشيء حين يوجد
التوازن الحضارى والفكرى ، بحيث ينتهى جشع كل قومية
لاحتلال أرفع مكانة ، وكل كتلة لسحق الأخرى والانفراد
بالزعامة ، أتمنى أن ينتهى الصراع بين الرأسمالية دون
حرب بين بعضهم البعض ، والصراع بين الاشتراكية دون
سفك دماء ، وفى النهاية أتمنى زوال الرأسمالية كنظام
استغلال دون ثمن باهظ دون حرب ضحيتها رجال ونساء
وشيوخ وأطفال ، حياة أى فرد منهم آثمن عندى من أى
شعار ، فالمذاهب لا توجد لتسود بالقتل والمهلكات ، وإذا
كانت الاشتراكية قد قامت لتمنع استغلال الانسان للانسان،
أى قامت بسبب نبيل تماما وشريف وانسانى ، فلا يمكن
ولا يعقل أن يكون الطريق لتحقيقها طريقا تسيل فيه الدماء
نفس هذا الانسان التى قامت لتمنع عنه مجرد الاستغلال .

ولكن المؤسف حقا ان الدماء تسيل لأن المستغلين يقاومون
زوال الاستغلال بضراوة ، المؤسف انهم يستعملون نفس
الذين يسومونهم ويستغلونهم فى الدفاع عنهم وعن عالمهم
تحت أزهى وأبهى الشعارات .

المؤسف ان الخداع مادام قائما ، ومادام هناك مغدوعون
فالصدام حتمى ، وانهيار الدماء حتمية ، والوحشية فى
جنسنا حية لا تزال .

ولا سبيل لانهاء الخداع الا بتحديد الموقف ، ليس فقط
على كل دولة أن تحدد موقفها من الصراع فى العالم ، ولا على

كل شعب ولا علينا كهيئات وأحزاب وتنظيمات ، انما حتى
على كل منها كشخص .

وذاث يوم قالها الفيلسوف ، أنا أفكر فأنا موجود ،
ومنذ قالها تغير العالم ، ولم يعد التفكير يحدث لمجرد التفكير،
وانت لابد أن تفكر اليوم لتتخذ في النهاية موقفا ، وعلى
ذلك فلتصبح الكلمة : أنا لي موقف فأنا موجود .

محال أن يسمح العقل الصحيح لصاحبه أن يكون حيا
عائشا في آسيا أو في أفريقيا أو في أميركا اللاتينية أو
أميركا نفسها وأوروبا ، ولا يكون له موقف في هذا الصراع
الدموي الدائر أمام عينيه . . صراع حتى الموقف السلبي
منه لا يجدى ، فالموقف السلبي يخدم في النهاية الاستعمار
والمستغلين .

وبعد جولة في آسيا الرأسمالية وأوروبا . . وقبلها
أميركا . . لم يعد أمامي الا أن أعلنها صريحة لشعبنا ولكل
شريف في هذا العالم .

نعبث نحن اذا راودنا أمل ، مجرد أمل ، في أى نظام
رأسمالى . نعبث نحن اذا راودنا أمل ، مجرد أمل ، في
تناقض يحدث بين الرأسماليين هنا أو هناك ، فالرأسمالية
الآن تعلمت ونضجت وعرفت قبلنا نحن معنى الوحدة وأهمية
التماسك والتكاتف . ولا تصدقوا أن تناقضا يقوم بين
كروب وجنرال منتورز . . ولا بين سونى وجروتدنج .

نحن نعيش في ظل رأسمالية شديدة الذكاء والتكيف
والخبت ، بارعة القدرة في التنكر ، قوية غنية ، ليس في
جمعيتها أى خير أو استعداد لنصرتنا .

التليفزيون

نعم ، هي ظاهرة استرعت انتباهي حقا ، وذكرت في مرور عابر على كلمتي السابقة، ولكن، لأن الموضوع هام وخطير ولا يلتفت اليه الكثيرون فقد رأيت أن أعود اليها ، متوسعا فيها ، واصلا الى اسبانيا وربما أيضا طرق علاجها .

ذلك الموضوع هو اننا قبل قيام التنظيمات التي تحمل شعار الاسلام وتدعو له ، وتكفر كل من لا يؤمن بطرقها ووسائلها ، وسريان العدوى الى خطباء المساجد ومؤذنيها بحيث تستحيل مدننا وقرانا الى مظاهرات ، ميكروفونية ، رهيبة ساعة الأذان للصلاة بما في ذلك أذان الفجر وتسبيحاته واذاعة الصلوات نفسها من داخل المساجد ضارين عرض الحائط بالآية الكريمة التي تقول : « ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها » ، فالصلاة نوع من العبادة المتأملّة التي تستدعي بالضرورة أن يتأمل الانسان كلام خالقه ، وحكمة ركوعه وسجوده ، بل ويتأمل معاني الفاتحة التي يقرأها والتحيات التي ينهي بها ركعاته .

أقول قبل أن تعرف مصر هذه الظاهرة التي أحالت الدين الإسلامي خاتم الرسائل إلى ضوضاء وأصوات تغلظ من حناجرها وتوجه التهم - والسباب أحياناً - من فوق منابر مساجدنا ، كنا نؤدى طقوس ديننا فى جلال وخشوع ورهبة لأننا كنا نحس أننا - فى الصلاة - لا نواجه بعضنا البعض ، ولا نتخذ الصلاة وسيلة لإظهار براعة علو أصواتنا ولكننا كنا فيها نواجه المولى سبحانه وتناجيه ونسترحمه ونستغفره نتوب إليه هو وحده .

الظاهرة التى استرعت انتباهى هى أنه مع هذا العلو فى الأصوات إلى درجة الغلظة والتعذيب ، خفت صوت الضمير الإسلامى ، وانتشرت الأهوال فى مجتمعنا إلى درجة أن أولياء أمور طلبة الحسينية استعملوا تلك الميكروفونات نفسها فى تفشيش أولادهم وتعليمهم أن الإنسان ينجح فى حياته لا بالجهد والعرق والكدح وإنما بالغش والتزوير والتدليس ، وكان أولياء الأمور هؤلاء ليسوا هم الذين يستيقظون كل يوم لأداء صلاة الفجر ، وكان الدين شىء والأخلاق الحميدة شىء آخر ، وكان ليست الرسالة العظمى للدين هى أن يرفع من تصرفات الإنسان ومواقفه وأحكامه إلى أعلى مستوى ليصبح الإنسان حقاً وصدقاً ظل الله على أرض الله سبحانه الكامل فى صفاته .

لماذا حدث هذا الانقسام ؟

ولماذا أدى هذا الانقسام إلى أن يبرر بعض أعضاء جماعات التكفير لأنفسهم أن يطلقوا النار على رجل دين مريض جاوز السبعين وهو موثق بالحبال ، ويضعوا فوهة المسدس فى عينه اليسرى ، ويطلقوا عليه النار ويقتلوه ، مع أنهم يفعلون هذا رافعين راية العودة للمجد الإسلامى

التلديد ، وكأن هذه الفعلة نفسها وكأن اطلاق النار وحرق الكنائس - تلك التى نهى عنها الاسلام تماما وجرمها هى نفسها الوسيلة للوصول للحكم الاسلامى الحق ، وهل ممكن أن تؤدى الوسائل المجرمة السفاحة الى اقرار مبادئ العدل والتسامح والايمان ورعاية سايع جار وحتى عدم ايداء القطط والحيوانات أو تركها حتى تموت من الجوع .

هل الاسلام ، ذلك الذى أوصى المؤمنين به حتى برعاية الحيوان ممكن أن تكون طريقة الوصول اليه هى بقتل المسلمين دون محاكمة ودون اتهام محدد ودون اجراءات قضائية اسلامية متعددة تضمن للمتهم حقه فى الدفاع عن نفسه بل وأحيانا يوقف أمير المؤمنين عمر بن الخطاب اقامة الحد على السارق اذا وجد ان السرقة حدثت بسبب الجوع أو المجاعة .



وأیضا ليس هذا هو موضوعنا ، فهو موضوع الدين خلقوه أو اختلقوه ، موضوع هدم هذا المجتمع واقامة مجتمع يخضع تماما لديكتاتورية أفكارهم ويتصرفون فيه وكأنهم رسل العناية الالهية لاقامة الحكومة الاسلامية الدينية على الأرض ولو بافراغ الرصاص فى عيون المشايخ أو اطلاق النار على العزل وحرق المحلات والكنائس واذكاء عداوة طائفية مصطنعة لايد فى النهاية أن تؤدى الى حرب دينية طائفية وفى المقابل لا أستطيع أن أناقش الحكومة فى رسائلها فهى مشغولة بواجب المحافظة على الدولة وعلى أرواح المواطنين ، بل ان أخوض فى هذه (الهوجة) الاعلامية القائمة حول الجماعات الاسلامية وتطبيق الشريعة والحل هو

الاسلام وكل تلك الضجة التي يفرحون لها تماما ويريدون لها أن تستمر حتى لا يصبح لا عمل للناس الا الحديث عنهم صباح مساء سواء معهم أو ضدهم ، والحديث معناه الرواج الشعبى والرواج الشعبى هو ركيزة من ركائز الوصول الى هدفهم وهو الحكم .

انى انما أناقش هنا موقف الحكومة وليست حكومة اليوم فقط كما قد يعتقد البعض ، ولكن موقف الحكومات المصرية المتتالية منذ قيام الثورة والى الآن .

فلأمر ما تصورت الحكومة فى الخمسينات الستينات انها تستطيع أن تضرب الوطنيين والحزبيين واليساريين بتملق العواطف الدينية لدى جماهير شعبنا المؤمن حقاً وبالسليقة . والمصريون معروفون بتدينهم الحكيم ، حتى الشعوب العربية نفسها ومنها شعب المملكة العربية السعودية حيث الكعبة وقبر النبى عليه الصلاة والسلام يعترفون بأن الشعب المصرى وأزهره الشريف كانا هما الدعامة الرئيسية التى ارتكزت عليها الدعوة الاسلامية منذ انحلال الدولة الأموية والعباسية .

وهكذا فى الوقت الذى تبنت فيه حكومة الرئيس عبد الناصر قضايا التحرر الوطنى فى كل أنحاء الوطن العربى وأفريقيا وآسيا وحتى أمريكا اللاتينية بدأت البرامج الدينية تأخذ طريقها الى الاذاعة والصحافة ولم يكن التليفزيون قد أنشئ بعد .

ولقد كنت أتابع كثيرا من تلك الأحاديث وأتعجب ، ذلك ان الاسلام موضوع كبير جدا لا يمكن أن ينتهى الحديث عنه بينما تلك الأحاديث كانت تركز على نقطة تكاد تكون واحدة لا تتغير وهى أشعار الشعب وأفراد الشعب بنواقصهم الدينية

وبأنهم لا يعبدون الله كما يجب بحيث يتناسى أفراد الشعب مشكلتهم كمجتمع مع الدولة أو الحكومة وانعدام الديمقراطية فى الحكم أو حتى الشورى وتصبح مشكلة الواحد منهم هى احساسه بالنقص فى كم ونوع تدينه ، وليست المشكلة أبدا هى حكم الفرد المطلق واستثثاره الكامل بالسلطة ، واستثثاره أيضا بقرارات خطيرة مثل قرارات اعلان الحرب أو ايقاف القتال أو ارسال الجيش المصرى الى اليمن أو الكونغو .

وأنا آسف حقا وأنا أقول هذا فأنا أكن لعبد الناصر الزعيم كما وافرا من الاحترام والتقدير اذ يكفى انه كحاكم لم يخن أبدا قضيتنا الوطنية ولم يساوم أبدا عليها .

ونأتى لعصر الرئيس السادات ذلك الذى رفع شعار المنابر ثم حولها الى أحزاب وديمقراطية ساداتية استأثر فيها أيضا بالقرار وبتغيير السياسة المصرية ١٨٠ درجة هنا أيضا لم يكتف الرئيس السادات بتكثيف الجرعة الدينية فى وسائل الاعلام بل وبتقوية المنظمات الشبابية الدينية لضرب الطلبة اليساريين ولكنه رفع نفسه أيضا من رئيس دولة الى الرئيس المؤمن ، أى الى مصاف الرسل ، وكان التليفزيون قد تربع على عرش الأسرة المصرية والشعب كله ، ذلك الجهاز الغريب الذى تفتقت عنه العبقورية الصناعية الغربية ويمثل أحدث وأخطر الوسائل لمخاطبة الراى العام .

واذا كنت هنا أذكر التليفزيون بشكل خاص فلأن أثره لا يعادل آثار كل وسائل الاعلام مجتمعة من صحافة وكتب وإذاعة فقط ولكن أثره يعادل مئات بل آلاف المرات تلك الوسائل . . أن متوسط عدد المشاهدين للتليفزيون فى مصر لا يقل عن الثلاثين مليوناً بينما مستمعو الاذاعة وقراء الصحف والكتب يقلون بكثير جدا عن هذا العدد وليست

المسألة أعدادا فقط ولكن القراءة شيء والاستماع شيء
والرؤية شيء آخر تماما فالتليفزيون يحرك ويوقظ كل
حواس الانسان : وفى نفس الوقت لا يتطلب منه أى مجهود
بالمره ، فهو يستلقى أمامه سلبية مطلقة تاركاً لمواده وكلماته
أن تفعل فعلها فيه دون أى مقاومة تذكر خاصة وأن ٨٠٪
من مشاهديه من الأميين .

ولذلك فالمجتمعات الأوروبية بالذات تستعمل هذا
السلاح الخطير بقدر محكوم ولقد فوجئت مثلاً وأنا فى
السويد بأن التليفزيون لا يذيع الا ثلاث ساعات كل يوم
ومعظمها اما مواد تعليمية واما ارشادات للزراع أو للعمل
واما موضوعات ثقافية ترفع من وعى المواطنين وقدراتهم
على استيعاب مجتمعهم وعيوبه . . واستيعاب العصر كله .
. . وكذلك التليفزيون البريطانى . . انى اتعمد كلما ذهبت
الى لندن أن أذهب اليها يوم جمعة لكى يتاح لى أن أبقى يومى
السبت والأحد رابضاً أمام التليفزيون أتعلم ، أجل أتعلم ،
وبالذات من جامعة الهواء التى يتفننون فى تحويل الرياضة
البحثة مثلاً والرياضة الحديثة وقوانين الكهرباء المعقدة الى
صور ونماذج متحركة تثير شهيتك الى المعرفة والتعلم . .
أما فى برامج المساء فالمحديث هو حوار مفتوح حول مشاكل
المجتمع البريطانى الخارجية والداخلية وبالذات مشاكل-
التعليم والمدارس والصحة وكل هذا بأسلوب رائع جميل
لا يمكنك معه أن تغلق القناة أو تتحول الى أخرى .

هنا فى مصر حين أدخلنا التليفزيون أدخلناه لأسباب
حكومية محضة فهو ارسال الحكومة الى الشعب يحمل أوامرها
ونواهيها ، أما ما يقوله الشعب وما يريد إيصاله للمسؤولين
فسلكه مقطوع تماماً حتى نشرة الأخبار ، يقوم حادث جلل

فى العالم مثل الحرب بين العراق وايران ولكن لان نشرة الاخبار هى نشرة الدولة فلا بد من مقابلات الرئيس أولا ثم مقابلات رئيس الوزراء ثم رئيسى مجلسى الشعب والشورى والوزراء وأخيرا يأتى الخير الذى يحتل الصفحات الأولى لصحف العالم ونشرات أخباره .

وأىضا ليس هذا موضوعنا ولا أريد بهذا الكلام أن أنقد أى مسئول تليفزيونى أو اعلامى سابق أو حالى فأنا أعرف والكل يعرف انهم اناس ينفذون أوامر .

ومن ضمن هذه الأوامر تعلق جماهير مسلمينا باغراقهم بفيض من الأحاديث التى لا يكاد يتابعها المتفقه فى أمور الدين والتى لا تتصل من قريب أو بعيد بمشاكل المواطنين الدنيوية الهائلة . . فى برنامج اسمه حديث الروح استمعت الى حلقة اسمها قضاء حاجات المسلمين وفرحت بالاسم وبكل ما أملك رحت أنصت فهو موضوع يهم المسلمين وقضاء حاجاتهم من الوصايا الاسلامية العظمى فاذا بالشيخ الجليل يحدثنا عن آداب دخول المرحاض فى الاسلام وكيف لابد أن تدخل المرحاض بقدمك اليسرى وأن تجلس وانت غير مواجه الكعبة الشريفة . . وكدت أصعق ولكن لا غرابة فما أكثر الأحاديث التى سمعتها بعد هذا وما كان أبعدا جميعا . الا قلة نادرة - فى البعد ليس فقط عن هموم الناس ومشاكلها وانما عن الحقيقة أيضا . . وذات مرة استمعت الى شيخ جليل آخر مفسرا للآية الكريمة : « وفى السماء رزقكم وما توعدون » وقدم الشيخ الجليل تفسيرا بعيدا عن منطوق الآية وعن مفهومها البسيط اذ فوجئت به يقول ان معنى الآية ان الله سبحانه ينزل المطر على الجبال فتحمل المياه المنحدرة الطمى وتذهب به الى الأنهار ويستعمل الانسان ماء الأنهار

الى الرى فينصب الطمى الأرض وينتج عنها الرزق وفى الجزيرة العربية التى نزل فيها قرآننا الكريم لا توجد أنهار ولا طمى ولم يكن العرب البدو الذين نزل القرآن الكريم لهدايتهم يعرفون حكاية الأمطار التى تسقط على جبال الحبشة وتحمل معها مياه الطمى الى وادى النيل . . الأمثلة كثيرة وليس هذا مجال تعدادها . . ولكنى أردت أن أوضح الى أى مدى أسوء استعمال التليفزيون : صوت الحكومة من ناحية ومن ناحية أخرى نفاق صارخ لنوع غريب من الاسلام فرضه علينا التليفزيون فرضا .

أما النفاق الآخر لجماهير الشعب فهو ذلك الترفيه الأبله الغريب الذى تحفل به قنوات التليفزيون ومنذ انشائه الى الآن : مسرحيات هلس ، أفلام هلس ، برامج هلس فى هلس ، لا يكاد يستثنى الا بعض البرامج القليلة جدا التى تبدو عارية تماما وسط ذئاب الهلس وكلابه النابحة .

ولهذا لم يعد غريبا أن ينتقل الهلس والتفريط فى القيم والاسلام الخالى من المحتوى الحقيقى لرسالة الاسلام العظيمة ، أن ينتقل كل هذا من الشاشة الى الحياة . . وأن تصبح حياتنا فى معظمها ، هلس فى هلس ، وأن تبلغ انتاجية العامل والموظف ٢٧ دقيقة فى اليوم كأننا تحولنا الى متفرجين على الحياة فى عالم جاد يأخذ حياته وأموره بجدية ولا ينجل أبدا من نواقصه وعيوبه بل يفضها ويناقشها ويعالجها .

ظاهرة الدين يأخذون الملايين من البنوك ويهربون أو يعلنون افلاسهم كيف لا يناقشها التليفزيون : الغش الجماعى ، الارهاب ، غلو الأسعار وجشع التجار ، التعليم الخاص الذى أصبح مهزلة والعلاج الخاص الذى أصبح أكثر ربحا من تجارة المخدرات ، سياستنا الخارجية ، قطاعنا العام ، قوانين

الانتخاب ، أحكام القضاء ، ألف قضية وقضية كان من الممكن أن يخوض فيها التليفزيون دون أن تسقط - لا قدر الله - الدولة أو تحدث ثورة فالثورات والسقوط تحدث حين يتجاهل الحكم ما تحفل به صدور الناس وما تختنق به حلوقهم من غيظ مكبوت ، أما المناقشة - وهى الديمقراطية الحقيقية - فهى التى لا تجعل انسانا يمسك ببندقية آلية ويقتل غيره وفى نفس الوقت يعرض نفسه للقتل أو للاعدام . وبصراحة أقل : ان سبب هذا كله هو عدم وجود سياسة اعلامية ، سواء فى جرائدنا أو اذاعتنا وبالذات فى تليفزيوننا - نظرا لأهميته القصوى - لقد اشترى الشعب المصرى تليفزيونات بمليارات الجنيهات ويصرف على ال ٢٦ ألف موظف فى مبنى الاذاعة والتليفزيون الملايين والملايين ، وكل هذا لنرفه عن أنفسنا بعد يوم لم نعمل فيه لنتعب سوى نصف ساعة ٠٠ ووجود سياسة اعلامية يحتم لا بد أن يكون هناك مشروع قومى لمصر الآن ٠٠ صنع فى مصر شعار جميل ولكنه شعار الانتاج أيضا شعار أن ننتج غذاءنا شعار أيضا ؛ ولكن المشروع القومى هو شىء آخر هو « كل » يشمل هذه الأجزاء وغيرها ، ماذا نريد أن نصنعه خلال السنوات العشر القادمة ؟ وكيف نصنعه ؟ ماذا فى مجتمعنا من عيوب تدفعنا الى الاستدانة وكيف نخرج من المأزق ؟ ٠٠ ان أخطر أمور حياتنا متروكة للاتكال وللشطارة الفردية التى أصبحت وسيلة كل مصرى للحصول على قوت يومه وتأمين حياته وكأننا كشعب قد انفكت حزمنا القومية وتحولنا كلنا الى أكل عيش ومستهلكين بطريقة أصبح معها من يفكر فى مصلحة الشعب ماثارا للسخرية والتهكم ٠٠ ولا شك ان هناك خطة معادية وراء فك الشعب المصرى ولكنها خطة تعتمد فى تنفيذها علينا نحن كشعب وعلى اذكاء روح الاتكال والاهمال

وتكريه بعضنا في بعضنا الآخر وقسمتنا الى مسلمين وغير مسلمين وجنود الله وجنود الشيطان واقامة بعض منا لأنفسهم مقام المولى سبحانه وتعالى في محاسبة خلقه ليس فقط عما يفعل أو يرتكب وانما حتى على ما يحتويه مكنون ضميره والحكم عليه واتباع الحكم بالتنفيذ المدعوم المعجل .

واذا كنت أصر على التليفزيون دون سواء فلاننا نؤمن ايماننا لا شك فيه أن هذا الجهاز بما يمتلكه من شعبية وتأثير كفيل بأن يغير تماما من موقف الانسان المصرى وسلوكه وطموحه ويحل الجماعية القومية محل الفردية الانتهازية ويوقظ الضمائر التى ماتت أو فى طريقها الى الموت ويخفض من صوت الميكروفونات العالية التى تصم آذاننا عن أن نسمع أصوات ضمائرنا وأن نتأمل فى هدوء سلوكنا على ضوء تعاليم اسلامنا أو مسيحيتنا .

فى عالم واحد – وأكاد أقسم – يستطيع التليفزيون بـسياسة اعلامية ديمقراطية حقيقية أن يغير تماما من وجه مصر والمصريين ، ذلك الوجه الذى أصبح مشار شكوانا بل وثورتنا بل والباعث الحقيقى الكامئ وراء عمليات القتل ومحاولاته والتعصب الأعمى والارهاب .

فى عام واحد يستطيع التليفزيون أن يعلمنا الكثير ليس على نسق دروس المواد التعليمية وانما باستخدام كل طاقاتنا وذكائنا من أجل أن نبتكر طرقا لمخاطبة شعبنا مخاطبة تعلمه وتمنعه ومنها يصعد الى المستوى الذى يصبح التعليم والتثقيف والادراك والوعى – فى حد ذاتها – متعة لا تقارن بكل متع الأرض .

★★★

الشعب القوى هو الذى يغير

لنؤجل أى موضوع آخر الى حين ، فالיום الاثنين - يوم هام ، اليوم يوم الاستفتاء ، وقد يكون الموضوع المطروح هو نعم أو لا للرئيس حسنى مبارك ، ولكننى أرى الموضوع من زاوية أخرى فالاستفتاء الحقيقى فى رأى هو الاستفتاء حول (وجود أو غياب) الشعب المصرى والارادة الشعبية المصرية ، فكلنا نعلم أن هناك شبه اجماع على اعادة انتخاب الرئيس وانه سينجح فى الاستفتاء ، سينجح فى الاستفتاء ، ما أهمية رأى اذن ، مادام كل شئ يدور وسوف يدور أردت أم لم أرد ؟ .

والواقع ان هذا الموقف الذى درجنا على قوله وسماعه والعودة الى قوله وعودة الاستماع اليه ، ليس فقط قولاً مغلوطة ، ولكنه أصبح يمثل لى مرضاً أصاب رأى العام المصرى لابد من علاجه واستئصاله فحتى لو كان يمثل بعض الحقيقة فان الاعتراف به والاستسلام له هو اذعان الذين على صواب للذين على خطأ واحباط ، ومفيش فايده وكله فاسد ولا أمل فى أى شئ .

ان اى شعب فى الدنيا يستقر على هذه الشعارات
الفاسدة هو شعب مريض يريد أن يمرض نفسه أكثر .
فالرجل الرجل ، والمرأة المرأة حين ينتهى أو تنتهى الى انه
ليس هناك من فائدة وليس هناك مطلقا أمل ، فلا بد ، اذا
كان انسانا صادقا مع نفسه أن ينتحر لأن الحياة فى ظل
احساس كهذا هى شئ أبشع من الموت وأكثر جينا وخسة من
الانتحار ، اذ هى حياة شائكة وحشرات وليست حياة آدميين ،
ان الانسان انسان لأنه قادرا أن يفرض ارادته ونفسه وأن
يدافع عن كيانه ووجوده ، أما الاستسلام المريض للواقع أو
لمنطق الكسل القطيعى فهو أمر غير وارد فى الصفات البشرية
الى الآن ، ولكنه للأسف ساد أكثر من اللازم فى مجتمعنا وأن
الأوان أن يزول .

لقد كبرنا على هذا المنطق ونحن لا ندرى والذى
ساعدنا كثيرا لنكبر هو ست سنوات مضت من حكم الرئيس
مبارك .

فأهم ميزات تلك الأعوام ليست هى المنجزات الضخمة
التي حدثت فى الصناعة والكهرباء والمواصلات والأنفاق ،
انما أهم ميزاتها ان الانسان المصرى أصبح « أكبر » ، أكبر
من التطرف باسم الدين من اضراب مؤسسة الأمن المركزى ،
أكبر من أن يحكم حكما ديكتاتوريا أو يغتصب السلطة عقيد
أو نقيب ، أكبر حتى من أحزابه التي تدعى انها تنطق
باسمه ، أكبر من الفساد أكبر من الأجهزة والاشخاص
المرتشين والصوص اذ يكتشفهم أكبر من أن يرى الظلم أو
الجريمة ويتستر أو يقول : وأنا مالى .

نعم لقد كبرنا كشعب .

لقد أزالَت ثورة ٢٣ يوليو طبقة حكمت منذ ثورة ١٩
بأجنتها المختلفة والى قيام الثورة وقامت الثورة بمبادئ
سته آخرها كان إقامة حياة ديمقراطية سليمة أى حكم الشعب
بالشعب وللشعب وطردت الثورة الاستعمار القديم وقالت :
لا للاستعمار الجديد ، وحاولت أن تصنع لمصر ارادة قومية
عليها ، ونجحت فى هذا تماما ، ولكنها لم تنجح بالشعب
ولا قويت بالشعب ، ولكنها حققت هذا كله بأجهزة الدولة ،
فقويت الدولة ، ولو كان قائد الثورة قد استخلص درس
وقوف الشعب كله معه فى اللحظات التى اهتزت فيها الدولة
بمختلف أجهزتها لكان قد عرف ان قوته الحقيقية لن تتأتى
الا بقوة شعبه وتقوية شعبه ، وجاءت السبعينيات والثمانينات
بدولة تضععت أجهزتها بفعل الهزيمة، ورغم هذا وبالشعب
المقاتل المتحمس وقواته المسلحة كان انتصار أكتوبر ذلك
الذى انتظرنا بعده أن يعم الرخاء . فعم ، ولكن على فئة
خبيثة أفسدت أجهزة الحكم المضعضة أصلا ، ولم تضيف كثيرا
الى قوة الشعب ، بل خفت صوت الشعب لترتفع أصوات
غليظة غوغائية جعلتنا نقف حائرين مذهولين ، أمام هذا
الحادث باسمنا .

وجاء مبارك ، بارادة شعبية ، فقد وضع الشعب فى
لحظة اختيار بين الفوضى والهوس أو بين استمرار الدولة
كدولة واختيار رئيس لها ، فالدولة فى مصر هامة جدا ،
للشعب وللمواطنين ، لآلاف السنين والشعب المصرى يحيا
على هيئة دولة الى أن أصبحت الدولة جزءا لا يتجزأ من
وجوده ، حتى لو كانت دولة ظالمة أو يحكمها أجنبى يحتملها
الشعب لأنه لا يستطيع أن يعود الى حياته كقبائل أو قرى أو
أقطار وما دام قد أخذ صفة المواطنة منذ خمسة آلاف عام ،
فان قبيلته وقريته أصبحت هى مصر كلها ، وأصبحت الدولة

جزءاً لا يتجزأ من كيانه ونحن نقاوم التطرف باسم الدين
أساساً لأنه يهدد وجودنا ككيان وكدولة ويريد أن يعود بنا
القهقري الى حكم الطوائف والنحل .

وقد جاء مبارك كما يعرف الجميع على أجهزة دولة شبه
فاسدة ، وعلى شعب فاقد الثقة تماماً فيما يمكن أن تصنعه
تلك الدولة .

والحقيقة ان هناك شبه أكذوبة قيلت لنا وصدقناها
أكذوبة ان الدولة هي المسؤولة الأولى والأخيرة عنا ، وبالتالي
فان رئيس الدولة عليه أن يقوم بكل العمل ، هكذا كان
الأجانب يحكمون ولـكان الأتراك والمماليك والالبانيون
والمصريون الذين حكموه الملك أو الرئيس أو السلطان هو
الذى عليه أن يحقق لنا ما نطمح فيه أو نحلم به ، فاذا لم
يفعل انتقدناه وشنعنا عليه وأطلقنا حوله النكات ، ونادرا
نادرا ما نشور عليه .

وكان مبارك أول رئيس لجمهورية مصر يدخل فى اطار
وظيفة الرئيس ، فلم يحاول — بحكم تكوينه وطبيعته ، أن
يكون زعيما ، أو محققا لكل شيء ومنجزا وحده للمعجزات
كان على هذا الرئيس أن يبدأ من تحت الصفر ويحاول أن
يعيد النظام الى دولة تخربت والمشكلة انه كان يحاول أن
يعيد هذا النظام بنفس الجهاز المخرب ، فهو لا يستطيع فى
يوم وليلة أن يجد جهازا آخر ، أو حتى اناسا آخرين .

وقد فعل .

ولا أستطيع أن أقول انه ، حتى الآن ، قد أصلح تماما
من أجهزة الدولة ولا من اقتصادها ولا من مستوى الحياة فيها .

ولكن الذى أستطيع أن أقوله ، انه حتى بهذا الحد من الديمقراطية الذى نحيا فى ظله استطاع شعبنا أن (يكبر) .

أجل - ان شعبنا اكبر بكثير مما كان عليه عام ١٩٨١ قارن بين ما يكتب اليوم - وان شابه فى كثير مما كان يكتب ويعلن فى ذلك الحين ، - وبين ما يكتب اليوم فى صحف المعارضة بالذات ، قارن بين موقف حزب التجمع الذى لم يملك الا أن يجسد نشاطه احتجاجا أيامها وبين حزب التجمع الآن وهو يعلنها على الملأ ويحرض الناس على أن يقولوا ، لا لمبارك ، قارن بين حزب الوفد الذى حل نفسه أيامها وموقف الوفد الآن وهو يجهر بأن الاستفتاءات طريقة غير دستورية للحكم .

قارن بين صحف التحالف الآن وهى ترسل مندوبيها الى ايران الخومينى - ويعودون سالمين ويكتبون دعاية لنظام الخومينى على الملأ وفى صحف تأخذ ورقا مدعوما من قبل الحكومة .

قارن بين ضرب نقابة المحامين ، ونقيب المحامين وبين صوت النقيب والنقابة الآن قارن بين اضراب عمال السكك الحديدية وابراء القضاء لهم وبين الكبت المفروض على كل النقابات والفتات .

قارن بين ما كنا نحن نستطيع كتابته أيامها ، وما نكتبه الآن ، دون أى تدخل من رئيس التحرير أو الدولة ودون فصل أو امتهان ودون اتهامات بالردالة والصفقة وقلة الأدب .

قارن بين النقد الصريح الواضح الذى تجد كل مصرى يقوله بأعلى صوته فى الاجتماعات وفى الندوات وفى

الصحف الى درجة تكاد مصر تتحول الى خمسين مليون ناقد للحكومة، قارن هذا الصمت المخيم أيامها، صمت النرجسية .

ليست هذه كلها من معالم حكم مبارك وطريقته في الحكم ، ولكنها وهذا هو الأهم ، علامات أن شعبنا قد كبر وأزاح أثقال الحديد الجاثمة فوق ظهره ، وبدأ يتكلم ويقول رأيه وبدأ أيضا يتحرك وينتج ، ويعتز بانتاجه وبأنه مصرى بل ويعلم أحيانا بأنه ممكن ان يغير الكثير في واقعه ، وأن يصبح أحسن وأحسن .

ان الزعامة القوية أو المستقوية تضعف شعبها ما في ذلك شك والشعب القوى في حاجة الى رئيس فقط وأبدا ليس في حاجة لزعيم . . فان المغير الحقيقي هو الشعب وليس أبدا الحاكم مهما رفع الحاكم من شعارات ، والشعب الضعيف أمام الزعيم لا يغير شيئا ، ولهذا لا يتغير أى شيء واحد مأسى هزيمة ٦٧ انها كشفت لنا وقد كنا نتصور أن كل شيء يتحقق لنا ، ان شيئا لم يتحقق ، حتى داخل أقوى الأجهزة ، قواتنا المسلحة ، وحين أدرك شعبنا انه وحده المسئول عن حمايتنا واسترداد أرضنا ، كان انتصار أكتوبر المجيد .



ان أهم ما تحقق خلال السنوات الست الماضية أن شعبنا بدأ يمسك زمامه بيده ، وبدأ يقوى ويرفع عنه أيدي الأوصياء بالقوة ، وبدأ يدرك حجم مشاكله الحقيقي ، ويبحث عنها وينقب ، وحل المشاكل دائما يبدأ بإدراكها ، مثل أى علاج لابد أن يبدأ بتشخيص دقيق ، وهذه كلها علامات صحة لا تراها ، ذلك لأننا تعودنا على رؤية المرض حتى مرض نظرنا نفسه ، وفي احيان وجهات نظرنا .

ولهذا فأنا أعتقد أن ست سنوات أخرى من هذا النوع من الحكم الذى يقوى الشعوب هو ما تحتاجه بشدة .

ست سنوات أخرى أعتقد اننا فيها سنصبح اقوى بكثير مما نحن عليه اليوم ، اذا كنا نريد أن نعدل الدستور نعدله ، اذا كنا نريد الانتخاب بدل الاستفتاء ، نفعل ، اذا كنا نريد أحزابا جديدة ومنابر جديدة للرأى نوجد لها اذا لم تكن تعجبنا وسائل الاعلام والصحافة والثقافة والمسرح والسينما وفوضى المرور فى الشوارع ومهرجانات الضجة الصاخبة آناء الليل وأطراف النهار ، نرفضها ، فالشعب القوى هو القادر على التغيير ، وأعتقد ان كل الأصوات حسنة النية التى تطالب بالتغيير ، تطالب بهذا لا لتحكم به ، وانما ليتيح لها وللشعب قدرا أكبر من القوة والقدرة .

والضمان الوحيد لهذا أن يستمر مبارك كرئيس للجمهورية بتلك المواصفات نفسها التى حكم بها ست سنوات خلت ، أما التغييرات فسوف نحدثها نحن حين نؤمن ايماننا حقيقيا ان الدولة جهاز يديره مواطنون لهم كل أعيننا وليس فيهم كل ميزاننا ، واننا وحدنا حين نقوى كشعب سنقوى كدولة وسنقوى كمقول مفكرة وكارادة قادرة على تحقيق هذه الأفكار .

لهذا أقول صادقا مع نفسى ان التقاعس عن ابداء الرأى فى هذا الاستفتاء هو استكانة مرضية لفكرة أن رأى كل منا بمفرده غير مهم ، فالشعب القوى لا بد أن يكون مكونا من أفراد أقوياء ، وليس من صفات القوة أن يتنازل الانسان ولكن قانون انتخابه وهؤلاء الذين ركبوا موجة الحزب

ستوحى لنا وللعالم اننا تغيرنا الى الاحسن واننا أصبحنا قوة
يحسب حسابها قولوا نعم أو قولوا لا ، قالهم أن نكون هناك ،
أن نترك الحقيقة جانبا ويرتدى كل منا أحسن ما عنده من
ثياب ويقول لأولاده وأسرته أنا ذاهب لأقول رأيي الذي
امتنعت عن ابدائه سنين طويلا ، لأنه في الحقيقة لم يكن له
وزن ، وكان اجراء شكليا محضا ، هذه المرة حين نذهب
كمواطنين أقوياء نقول نعم أو نقول لا ، فأنا اصوت اذن مع
حقى فى ابداء رأيي وواجب الجميع وعلى رأسهم مبارك أن
يحترموا هذا الرأي وأن يعملوا به .

فرق كبير أن يحدث الامر الواقع بغير ارادة منا وبين
أن يحدث بارادتنا فاذا تعلمنا معا أن تكون ارادتنا هى
الفيصل فاننا لن نكتفى فى المرة القادمة بأن نقول نعم أو
نقول لا ، وانما سنملى رأينا بالتفصيل ونثبت حقنا فى
المفاضلة بين مرشح وآخر ، ونوجد نحن وليس المحترفون
فقط ، على الساحة .

انى أقولها ، بكل الصدق مع نفسى ومعكم نعم لست
سنوات أخرى من حكم مبارك ، فهو وحده الطريق لأن تكبر
أكثر ونقوى أكثر .

واذا كانت الاعلانات والصفحات قد أزعجتكم مثلما
أزعجتنى فذلك عمل أجهزة وأشخاص يريدون أن يضمنوا
المستقبل .

فلا تدعوا الضجة تخفى الحقيقة ، والحقيقة الوحيدة هى
نحن ، هى عند الأصوات فى صناديق الاستفتاء .
أم نفعل مثلهم ونتعاون معهم على اخفاء الحقيقة .

*** .

وداعا أيها المجلس والى غير لقاء

مهما تكن الأسباب التى حدث بالرئيس حسنى مبارك الى حل مجلس الشعب (أو فلتسمه الاستفتاء حول حل مجلس الشعب ، اذ النتيجة معروفة) مهما تكن الأسباب ، فان الفرحة التى عمت الناس جميعا - الا أعضاءالمجلس بالطبع - لم تكن فرحة اناس مراقبين يهللون لأى تغيير مهما كان ذلك التغيير ، وانما هى فى الحقيقة فرحة شعب ناضج قديم مدرك تماما لماذا يفرح اذا فرح ، ولماذا يغضب اذا غضب . وبصرف النظر عن دستورية أو عدم دستورية المجلس المنحل ، فما رأيت فى حياتى مجلسا أجمع الناس على عدم فاعليته مثل ذلك المجلس المنحل ، مجلس تشكل كملايس المجاذيب فى الحسين ، أو كخبز الشحاذين (من كل بيت لقمة وطعم ولون ونوع) كل يحتوى معارضة وفيه تمثيل صورى لأحزاب ، ولكن قانون انتخابه وهؤلاء الذين ركبوا موجة الحزب الوطنى وبعض الأحزاب الأخرى ليكون لهم الحق فى الترشيح جعله لا يمثل أبدا امكانات شعبنا الوطنية والسياسية ، وقياداته الحقيقية ، انما هو بقايا ورواسب الذين احترفوا الترشيح والانتخاب وبرعوا فى أساليب التسلق والنفاق ، منذ أيام هيئة التحرير الى الحزب الوطنى الديمقراطى ،

لا أحد (الا القليل جدا) يمثل مذهبا أو اتجاها أو لديه برنامج ما لحل مشاكلنا أو اصلاح أمورنا ، لا وضع يهمله الا وضعا شخصيا متربعا عليه وأحيانا يتكسب منه ويصبح قريبا من الوزراء والكبراء وذوى النفوذ * فى الحقيقة مجموعة من البشر كنت أراهم فى التليفزيون وأحاول قراءة تعبيرات وجوههم ، وما تحويه أدمغتهم ، فلا أجد فى عين أى منهم بريق حماس أو قدرة على أعمال فكر ، أو أملا ولو ضئيلا فى تلك الوجوه المنطفئة التعبير أن تصنع لنا أو لبلادنا شيئا ، موافقون ؟ ترتفع الأيدي كرايات الجيش المهزوم توافق ، وهى لا تعرف لماذا توافق الا لأن الرأى أو القرار صادر من الحكومة ، المعارضون ، مجموعة محفوظة من الأيدي ، تكتم الاغلبية أفواهها وتصرخ كالاطفال المتشنجين وتديق الارض بأقدامها احتجاجا على رأى مخالف يقال ، ولو كان هذا الرأى المخالف نفسه أكثر خدمة لمصالح الشعب أو الحكومة ، ولكن ، لأن قائله مدموغ بأنه معارض أو من الجنس المنبوذ ، فلا بد من امكاته وكتم أنفاسه ، والتشويش عليه حتى يخمد رأيه ، كنت أرى هذا ، ويراه غيرى ، فأقول لنفسى ، يا ربى : ما فائدة هذا المجلس وما فائدة هؤلاء الناس ، ولماذا تلك الميزانية الضخمة تنفق على (شكل) ديمقراطى لا معنى له ولا مضمون بالمرّة الا أن يقال ان عندنا أحزابا وعندنا مجالس وعندنا حرية رأى بينما ما عندنا ليس الا (ترحيلة) و (أنفار) جىء بهم ليحتلوا الساحة ، ويخلوها ! من أى فكر أو نبض أو جهد صادق فى سبيل مناقشة أمورنا ومشاكلنا والخروج بحلول حقيقية مخصصة ، تفيدنا وتفيد أولادنا من بعدنا .

انه فى الحقيقة لم يكن مجلسا ، ولكنه كان (طبقة) احتلت كراسى الحكم والتمثيل النيابى ومجالس المدن والقرى

واللجان والمراكز الحساسة ، احتلتها منذ زمن بعيد ، وتلونت وتشكلت مع كل تغيير فى الرئاسة والقيادة يحدث ، ولا تزال تحتل الساحة ، بعيون لا تعرف الخجل ، وبفنون محترفى الشجار واطفاء الأنوار وفض الموالد .

وأكثر ما آسف له انى لم أقل هذه الكلمات التى تعبر عن رأى الحقيقى ، وهذا المجلس قائم وموجود ، كنت مستعدا أن أقولها لقوم يعقلون ، ولاناس يعرفون ويقدرّون حكمة الرأى وحرية ابدائه ، أما هؤلاء فلم يكن ممكنا ، بل كان مستحيلا تماما أن تقول لهم الرأى الصادق ، خاصة لو كان رأيا فيهم هم شخصا ، انك حينئذ لن تقابل بالآراء الأخرى أو بالردود المكتوبة أو المقالة ، ولكنك ستقابل بالهراوات ، والاتهامات .

مرحبا اذن بقرار حل هذا المجلس .

ولكن هذا ليس كل شيء .

فنحن لا نريد أن نحل مجلسا ، لنأنس بنفس أعضائه ، متكرين أو بنفس أرديتهم ، لا نريد أن نهز روح الأمة بقرار اجراء الانتخابات ليتمخض الأمر عن عودة ، « وربما لعادتها القديمة » .

بصراحة . . .

لا نريدها مجرد انتخابات تجرى لاحلال وضع دستورى

محل وضع غير دستورى .

ولكننا نريدها انتخابات لتحقيق الهبة التى نادى بها الرئيس مبارك ، وتحقيق الصحو والانفجارية السلمية

البانية التي نادينا وننادى بتحقيقها ، نريدها انتخابات
توقظنا ونستيقظ بها ، ترد لنا الروح ، وترد بها الروح
لبلادنا وحياتنا ومجريات أمورنا نريد وجوها غير الوجوه ،
وأيد قوية ، تؤيد بقوة اذا آيدت وتعارض بقوة ، اذا
عارضت لا نريدها (ترحيلة) تأييد وتشويش على الرأى
الآخر ، وانما مجلس عقلاء - سواء أكانوا مؤيدين أم
معارضين ... يعتبر كل منهم أن الآخر أو الآخرين لا يقلون
حبا لنا ولبلادنا ولمصلحتنا عنه ، اذا استمع الى الرأى يجيد
استماعه ، واذا عرضت المشكلة ينكب عليها دراسة وتحليلا
ووصولا الى رأيه واجتهاده الخاص فى حلها .

مجلس يليق بمصر ٨٧ ، فمنذ مائة عام وأكثر كانت
مجالسنا النيابية والتشريعية وحتى الاستشارية أكثر قوة
وفاعلية ونضجا من تلك المجالس التى مللنا وجودها منذ أول
مجالس ما قبل وبعد عام ١٩٥٢ الى الآن ، مجالس يفخر
المصريون بأنه مجلسهم وقيادتهم الجماعية الحقيقية .

وفخر هو - هذا المجلس - انه مجلس مصر الداخلة على
القرن الواحد والعشرين مصر القادرة على أن تصبح
ديمقراطيتها نموذجا للديمقراطية فى العالم الثالث كله ،
القادرة على افراز العلماء والمفكرين والقادة والنواب الذين
لا يقلون كفاءة ورجاحة وثقة بالنفس عن نظائهم فى دول
العالم الأول .

ان أكثر ما يميز الرئيس حسنى مبارك هو حساسيته
لما يعتمل فى قلب الناس وما يدور وراء أقنعة ابتساماتهم ،
وحتى سكوتهم ان سكثوا ، وذلك الاجتماع الذى عقده معنا

الرئيس محمد حسنى مبارك عقب زيارته لمعرض الكتاب كان حريا أن يتحول الى مؤتمر مصغر للمثقفين والكتاب يفتح لهم الرئيس قلبه ويفتحون له قلوبهم ، واعتقد أن الرئيس حرص فى العام الماضى ، وفى هذا العام أيضا على تقليد الاجتماع بالكتاب والمثقفين فى عيد الكتاب لهذا المعنى ، ولكن القلوب ، قلب الرئيس وقلوبنا ، ما كادت تتفتح حتى انبرى أصحاب الاصوات العالية الغليظة يدافعون عن الرئيس وسياسته وكأنه معاذ الله موضع مساءلة ، فى حين ان الحديث كان موضع استفسار ومناقشة ، علت أصواتهم وصخبهم تثبت للرئيس انهم هم وهم وحدهم الذين يتبنون سياسته ويؤمنون بها ومستعدون للاستشهاد فى سبيلها ، فى حين انهم فى رأى ليسوا سوى (كذابى زفة) وان أولئك الذين يريدون مناقشة الرئيس وفتحوا قلوبهم له ومعرفة ما فى قلبه هم أولئك المقاتلون المخلصون الذين - عندما يجد الجدد - هم الذين سيقفون يدافعون بصدورهم وآرواحهم عن ذلك الحاكم المصرى المتواضع فى غير تكبر ، الديمقراطى بحكم التكوين الهاوى لرفع الشعارات ثم الضرب تحت الحزام فى الظلام .

أجل -

مرحبا بقرار حل ذلك المجلس .

ويا شعبنا العظيم ، ها قد جاءت الفرصة وانتخبوا مجلسا يليق بنا وبكم ، فان التفريط فى صوت أى منكم ، وأداء الانتخاب وأنتم منومون بالقرابة والمحسوبية والكلام المعسول ، هو فى رأى خيانة .

فليعتبر كل من ينتخب من لا يؤمن بأحقية لتمثيل الشعب المصرى كله انه قد خان الأمانة - أو بمعنى أدق خان

مصر ، مصر التى لا بد أن ترفع عن كاهلها الكآبة والفتور
وفقدان الهمّة واليأس التى استشرت فى الفترة الأخيرة
وتتطلع الى مستقبل سريع توجده وتخلقه وتحتل به مكانتها
الجديرة بها .

المستورد الخفى

تابعت بذهول حكاية الألبان المجففة الحاملة لكم من
الاشعاع القاتل ، وأعترف ان متابعتى للموضوع جعلتنى
أعتقد ان حياتنا لا يمكن أن تمضى هكذا أبدا واننا وصلنا
الى نقطة ما بعد الخطر .

ودعونا من الحديث عن تلوث جو مصر - والقاهرة على
وجه الخصوص - بحيث أن تلوثها أصبح يعادل عشرة
أضعاف الحد المسموح به للتلوث فى أى مدينة أو مجتمع
بشرى - لا أذكر الرقم على وجه الدقة ولكن ما أعرفه ان
التلوث فى أجواء القاهرة هو أعلى معدل للتلوث فى العالم .
دعونا من هذا .

ودعونا من التلوث الضجيجى الذى تحفل به مدننا
وقرانا ، صباحا ومساء ، وفجرا وليلا ، وفى كل وقت . .
ودعونا أيضا من هذا فليس ذلك هو موضوعنا هذه
المرّة .

فنحن نعرف كل تلك الحقائق المرعبة عن الظروف غير
الملائمة للحياة التى يعيش فيها الانسان المصرى . . .
ومع هذا فنحن صابرون ، فى انتظار الجنة ، فالجنة -
هكذا قال الله سبحانه - للصابرين .

ولكن حكاية اللبن المشع تلك قصة لا يدري الانسان
أيموت ضحكا منها أم يموت كمدا ، فهي قصة - كما يقولون
- لها العجب .

انها جريمة ، قصة جريمة عادية من الجرائم الكثيرة
التي يرتكبها المجرمون الساعون الى الربح ولو على حساب
حياة البشر ، شركة ألمانية مجرمة ، أنتجت كمية هائلة من
الألبان ، حين فحصتها وزارة الصحة الألمانية وجدت ان نسبة
الاشعاع بها أضعاف أضعاف النسبة القاتلة للانسان سواء
أكان طفلا أو رجلا ، وهكذا أمرتها الحكومة الألمانية بالتخلص
من تلك الألبان ولو كانت آلاف الآلاف من الاطنان ، ودخلت
الشركة في مفاوضات مع الشركات الامريكية (أو اللجان
الحكومية لا أعرف بالضبط) التي تخصصت في دفن النفايات
الذرية والتخلص منها ، لتتخلص من ذلك اللبن القاتل ولكن
السلطات الأمريكية رفضت أن تقوم بالعمل ، لكثافة الاشعاع
ولم يبق أمام الشركة الألمانية الا أن تقوم باعدام الألبان
بنفسها ، واعداد تلك الكمية الهائلة وبطريقة لا يتم بها
اعدامها فقط ولكن أيضا بالتخلص من الاشعاعات المذابة
الكامنة فيها ، عمل مكلف جدا ! لكن فكر عقل مجرم شرير
في تلك الشركة الألمانية في ألا يتخلص من تكاليف ومجهودات
اعدام الألبان فقط ، ولكن أن يبيع تلك الألبان نفسها ،
ويحول الخسائر المتوقعة الى ربح رهيب باهظ .

وهكذا أطلق سمارته في دول العالم الثالث ، لانه
يعرف ان تلك الدول لا تدقق كثيرا في فحص وارداتها
الغذائية وبالأخص لا تدقق كثيرا في المحتوى الاشعاعي لتلك
الأغذية ومقاديرها .

وهكذا التقى هذا السمسار بمستورد مصرى ، مجرم
هو الآخر ، واتفقا على الصفقة ، يشتريها المصرى بأبخص
سعر ، وينجح فيها الألمانى بالتخلص منها ويبيعها بأى سعر ،
أو حتى بابعادها عن ألمانيا بلا سعر ولا تكلفة اعدام .

ووصلت الشحنة الأولى التى احتوت على ستة وعشرين
ألف صندوق على مركب شحن الى مياه الاسكندرية ، وجرت ،
أو كانت جارية عملية الانزال الى الشاطئ تمهيدا لتمريرها
من الجمرى وبيعها فى الأسواق بنفس السعر الذى تباع به
الألبان السليمة وكان كل شىء جاريا فى صمت وعلى أتم
ما يكون من السرية والتوفيق ، الى أن حدث ما لم يكن أحد
— لا الشركة الألمانية ولا المستورد المصرى — يتوقعه ، وأعلن
رئيس وزراء المقاطعة الألمانية عن الصفقة الاجرامية بل
وحدد الجهة التى أرسلت اليها الشحنة القاتلة ، ميناء
الاسكندرية بالذات .

وكانت صحافتنا حسنة النية تماما ، فنشرت تصريح
رئيس الوزراء وخبر وصول الشحنة وخبر انزال محتوياتها .

وغضب الرأى العام ، وانصب غضبه على سؤال واحد :
من هو المستورد المصرى الذى ارتكب هذه الجناية العظمى فى
حق مصر وأطفالها وأدبيها ، الى هذا الحد كانت الأجهزة
المصرية صامته صمت القبور ، وكأنها هى الأخرى فى
انتظار اعلان اسم المستورد ليتم القبض عليه وعقابه ولكنى
فوجئت كما فوجئ الناس جميعا فى مصر بالأجهزة المصرية
وقد بدأت تتحرك .

بيان لمجلس الوزراء ان مصر لا يوجد بها أى لبن مشع
وأن لا صحة لما نشرته الجرائد .

بيان من وزير الصحة يؤكد ان جميع الأغذية المستوردة ومنها الالبان تخضع لفحص ميكروبيولوجى وكيميائى واشماعى دقيق وانه لا صحة لما قاله رئيس وزراء ألمانيا ونشرته الصحف المصرية بحسن نية أو على الأصح (بسذاجة وغفلة) .

وأنا أعرف الدكتور محمد راغب دويدار وزير الصحة وأعرف انه كان من أكفأ أطباء الوزراء الذين عركوا مناصبها ومستويات تلك المناصب الى أن أصبح - بكفاءته وتفانيه فى عمله - وزيرا للصحة وهو ربما أول وزير صحة يأتى من قلب أطباء وزارة الصحة أنفسهم وليس من خارجها كما جرت العادة .

بل وأعرف أنه لا يعد مسئولا أبدا عن تسرب أى غذاء فاسد أو مشع وانما المسئول هو جهاز يخضع لاشرافه اذ هو لا يذهب بنفسه الى الموانى التى ترد اليها الأغذية ليفحصها .

وأعرف ان مجلس الوزراء لا علاقة مباشرة له باجراءات فحص الأغذية ، انما علاقته بها علاقة سيادية أو اشراف سيامى .

ولذلك كان صدور تلك البلاغات التى تكذب رئيس وزراء ألمانيا الذى (تجرأ) وأعلن عن فساد البان المانية وحذر منها ، ليبعد أى فضح عن بلاده وشركاتها ، وكأنه هو المجرم الحقيقى أو هو الكذاب الذى يفترى على شركات بلاده ، ويتهمها بالغش والجرم .

وحيثما نقرأ أن الشحنة لا تزال فى المركب خارج رصيف ميناء الاسكندرية وأن ما هبط عينات للفحص ليس الا ، وحيثما أقرأ ان السلطات أمرت بارجاع السفينة من

حيث أتت ، أقرأ شيئاً متناقضاً تماماً ، من نفى قاطع ان لبنا مشعا أو فاسدا قد استورد الى مصر ، الى تأكيد ان الشحنة جاءت وفرغت وكانت فى سبيلها الى السوق والى المستهلك ، وحيناً أقرأ ان الباخرة محبوزة بعيداً عن الرصيف * وحيناً أقرأ انها أعيدت *

ولكننى أبداً أبداً لم أقرأ شيئاً لا عن مجلس الوزراء ، ولا عن النائب العام ولا عن أى جهة قضائية أو حجر صحى أو إدارة صادرات أو واردات عن اسم ذلك الجانى الغريب الذى تعاقب وشحن وجلب اللبن المشيع القاتل ، ولا يجرؤ أحد على اعلان اسمه ، بل بدلاً من هذا يقومون نيابة عنه بنفى التهمة كلية ، وإبرائه من تهمة ادخال مواد قاتلة على هيئة غذاء للأطفال كانت العلبة الواحدة منه كفيلة على الأقل بقتل طفل ، أى تهمة الشروع فى قتل ٢٦ ألف طفل مصرى برىء بسبق اصرار ووعى وترصد *

وأغلب ظنى انى لن أقرأ اسم هذا المستورد مادام مجلس الوزراء - بجلالة قدره - قد برأه ، وأنكر وجوده ، وأنكر أصلاً أصلاً وجود جسم الجريمة ، وكأن جريمة كبرى لم تكن قد تمت أركانها جميعاً بحيث ان أقل عقاب لمرتكبها كان لا بد أن يكون السجن المؤبد ان لم يكن الاعدام *

أجل - أيها القراء الأعزاء *

ان الذى قام بهذه الجريمة مصرى عنده طاقة اخفاء باتعة الأثر بحيث قام بكل ما قام به أمام سمع وبصر مجلس الوزراء وجميع أجهزة الدولة دون أن يراه أو يعرفه أو سمع عنه أحد *

- هل تفعلون مثلى وتموتون من الضحك
- أم تموتون كمدا

اختاروا أيا من الطريقتين ، فكلتاها آهون بكثير من الموت بالاشعاع السرطاني ، وفي كل الحالات ستموتون دون أن تعرفوا أبدا اسم ذلك المجرم القاتل الذي لا يريد أحد أن يفصح عن اسمه .

انى أتحدى أجهزة الدولة بكافة مستوياتها أن تعلن اسمه وصفته ، اذ يبدو انه أقوى كثيرا من أجهزة الدولة .

المنذوب الغائب

ولا أقصد بهذا ، المندوب الغائب ، بعض الرؤساء المسلمين الذين لم يحضروا المؤتمر ..

انما هو منذوب آخر ، لن أنتهى من هذه الكلمة الا وقد عرفناه *

فهذا ليس مؤتمرا اسلاميا آخر يعقد *

وليس مجرد منبر عربى اسلامى آخر سيقف كل رئيس أو ملك ليتحدث فيه حديثا بليغا عن (المخاطر) التى تحيق بالامة الاسلامية وعن (التشرذم) و « الفرقة » التى أصبح عليها المسلمون اليوم عن آحوالهم التى تدهورت وأصبحت وسائل الاعلام العالمية وليس لها من عمل الا نشر غسيل المسلمين على العالمين لكى يبدو قدرا والا نشر أخبار الفضائح السياسية العربية والاسلامية وملء أدمغة الرأى العام الغربى بصورة مسلم ارهابى يخفى الحناجر والمتفجرات فى عمامته ولا يتوانى عن ذبح أخيه تحقيقا لما نطقت به طبيعته من حقد على الغرب والشرق معا ونزعة الى الارهاب والاجرام عموما، نفس وسائل الاعلام والاتصال التى تولت تفضية مخيلة

القرن التاسع عشر والعشرين بصورة اليهودى البخیل المرابى الذى لا يتوانى عن اقتطاع جزء من لحم أى بشرى وفاء لدينه ، صورة شيلوك شكسبير تاجر البندقية ، لا ، لقد ذهبت تلك الصورة الى الأبد ، وحلت محلها صورة يهودى حساس شديد التقوى متحضر السلوك واقف بأطفاله وشيوخه ونسائه مهددا من قبل عربى مسلم له لحية قاتل ، وأنياب سفاك ، يرتدى العقال ويحمل صرة الملايين ويهدد عالم الغرب وحضارته بالفناء •

لا • • • ليس هذا المؤتمر مجرد منبر آخر سيقف عليه كل رئيس أو ملك يعيد شرح الفضيحة العربية والاسلامية ، ويناشد الضمير العالمى أن يستيظ و « ويحث » على عالم المسلمين بقليل من الرحمة والرافة والقروض والتأييد •

نعم أخشى ما أخشاه أن يتحول مؤتمر الرؤساء المسلمين الى « مكلمة » ومحنة تلطم فيها الحدود وتشق الجيوب على الحال المسلم المائل •

فهذا أخطر مؤتمر قمة اسلامى يعقد •

ويعقد فى أخطر مرحلة وصل اليها العالم الاسلامى والعربى منه على وجه التحديد •

ذلك الذى بدأ فيه المسلمون يأكل بعضهم بعضا ، ويذبح بعضهم بعضا ويدمرون بلادهم بأنفسهم وبأيديهم ويفعلون بأوطانهم ما لم يجروا على فعله أى تار أو استعمار أو مغول •

ولهذا فانى ، ومعنى على ما أعتقد كل من بقى لديه ذرة من ادراك ووعى وبصيرة ، نرجو من مؤتمركم هذا ، أن

يكون شيئاً آخر غير ما درجت عليه مؤتمراتكم .. فهو ليس مؤتمر مسئولين أو حكام هذه المرة ، وإنما هو مؤتمر مساءلين أكاد أقول مؤتمر متهمين ، إذ أنتم بأنفسكم الذين توليتم إيصال عالمنا العربي الى تلك الحالة التي هو عليها .. فإذا كان للمسلمين أعداء هم الذين يكيلون لهم الضربات تلو الضربات ، فأقسي تلك الضربات وأشدّها فتكا يأتيها منكم أنتم ، من القيادات التي حضرت والتي لم تحضر .

حتى أوصلتمونا الى مرحلة الهزيمة الكاملة .

أجل ، بصراحة أيها السادة « اجتماعكم هذا » اذا وضعناه تحت عدسة الحقيقة المجردة ، والواقع ، والنظرة الموضوعية البحتة اجتماعكم هذا ، هو اجتماع مهزومين .

الكلمة بشعة ومروعة ، وأنا متأكد ان الكثيرين سيغضبون لها ومنها ، وبلى ربما كان رد فعلهم أشد وأقسي .. ولكن الوقت أيها السادة كما قلت لم يعد وقت مجاملات ، ولا وقتا لتهوين الأمر على النفس أو الضحك والكذب عليها .

لقد كذبنا على أنفسنا ، واسمحوا لي أيضا أن أضيف كذبتم علينا طويلا وكثيرا ، وكنا باستمرار نصدقكم ، وكنا باستمرار نتلقف كلماتكم الهادرة التي تتحدث عن حتمية وقوفكم في وجه طغيان العدو ، وتعهدكم اننا حتما منتصرون .. كثيرة وطويلة هي الخطب والتصريحات والخطابات الجماهيرية المباشرة في عشرات المناسبات ، الخطابات التي تنطلق بل وتجأر بتعهدكم بالحفاظ على الأرض والعرض والشعب والوطن وكانت الأحداث تتوالى وظلت تتوالى الى اليوم ، اليوم الذي وصلنا فيه الى مرحلة الهزيمة .

وها هو ذا اجتماعكم التاريخي يحدث تحت راية الهزيمة وليس أبدا تحت ظل راية أخرى . . فهو أبدا ليس اجتماعا نجتمع فيه على أثر انتصار ولو ضئيلا حققناه ، وليس اجتماعا تحت ظل وضع اسلامي متأزم كالعادة ولا بد لنا من البحث عن حل لأزماته انما هو اجتماع ، وأقولها بإيمان من آلى على نفسه ألا يخدع نفسه أبدا أو قارئه ، اجتماع يقع فى ظل هزيمة عربية واسلامية . . هزيمة تكاد تكون أبشع هزائمتنا فى طول التاريخ وعرضه ، أبشع من هزيمتنا فى « بواتيه » أمام الفرنسيين ، أبشع من هزيمتنا فى غرناطة أمام الاسبان وضياع الأندلس ، أبشع من هزيمتنا أمام جحافل المغول وقبائل آسيا التركية ، أبشع من هزيمتنا من فرنسا وانجلترا بتهامة الحرب العظمى الأولى ، بل أبشع من هزيمتنا الاولى فى عام ١٩٤٨ أمام اسرائيل .

★★★

فى أعقاب هزيمة ٤٨ بل وأثناءها حدثت لنا هزة عميقة أيقظتنا كلنا حكاما ومحكومين ، أجل كلهم استيقظوا ، الحكام بعضهم فقط هو الذى استيقظ ، وبدأ يدرك مدى المصيبة التى حاقت وحلت ويعى بانتفاضة الشعوب العربية والاسلامية القادمة ولا يقف أمامها ، ويحاول مع الاستعمار ضربها ، كما تصرف البعض بغباء الرجعية التقليدى ولكنه فطن لها وانضم الى قضية التحرر الاسلامى العربية التى كانت أرض الواقع قد بدأت تدمدم بها . . أما أولئك الذين سدروا فى غفوتهم وغفلتهم فقد أطاحت بهم عجلة التاريخ حين حركها الشعب الاسلامى وتحرك بها ، ووقفت الشعوب الاسلامى العربية تنفض عن نفسها الغيوبة التى كان يبقينا الاستعمار الانجليزى والفرنسى تحت تأثيرها ، وهبت أممنا من باكستان فى أقصى الشرق ، الى المغرب الدار البيضاء ،

تدرك أن هزيمة ٤٨ إنما هي هزيمة أنظمة وحكام طال
تعاونهم مع الانجليز والفرنسيين والغرب بشكل عام . .
وقامت ثورة ٢٣ يوليو ، ثورة الشعب المصرى العربى المسلم
تعزل الملك الذى خان قضيتها وجعلها تدخل الحرب بأسلحة
فاسدة وتقبل الهدنة الخائنة التى حدثت أثناء معركة ٤٨
ليتحول الانتصار الذى حققته جيوشنا العربية الباسلة الى
هزيمة عسكرية ، والى تدشين قيام دولة اسرائيل بالعالم كاملا
بغربه وشرقه يعترف بها وبشرعية اقتطاعها معظم فلسطين
واعتبارها دولة شرعية لها كل حقوق أعرق الدول ، وليس
عليها أبدا أى واجب من واجباتها .

وعادت جيوشنا التى كتفوها بالهزيمة الى بلادنا لتدرك
ان عدوا جديدا لم تكن قد عملت له ولوجوده حسابا ، وكان
كفاحها ، وكانت كلمة الاستعمار حتى تقولها أو تدركها
تعنى فقط الاستعمار الغربى المجسد فى الاحتلال العسكرى
بقواعده وقوته وعتاده .

أدركت جيوشنا ومن ثم شعوبنا ان الاستعمار قد غرس
بيده شيئا قال هو عنه انه دولة وقلنا نحن عنه انه دولة
مزعومة . . وأكدت لنا قيادة ما تبقى من الجبهة الفلسطينية
الوطنية انها لن تبدأ حتى تلقى بتلك الدولة المزعومة فى
البحر وتعيد الأرض المقتصبة الى أصحابها وتنتزع هذه
الشوكة المسمومة التى غرستها قوى متآمرة كثيرة فى قلب
وطننا .

وبرغم اننا كلنا رحنا نتحدث عن هزيمة ٤٨ وعن
ضرورة وحتمية نشوب معركة جديدة تنتصر فيها الأمة
العربية المسلمة التى كانت لا تزال هى الحامية والراعية
للمقدس الشريف موطن كل الأديان وكعبة كل المؤمنين رغم

اننا رحنا « نتحدث » عن الهزيمة الا أن القليلين جدا هم الذين وعوا حجم تلك الهزيمة ونظروا الى أبعد من كونها معركة عسكرية هزمت فيها سبعة جيوش عربية * فقط نتيجة النظم المهترئة التي أثبتت فشلها في أول اشتباك عسكري مع عدو كان جيشه لا يزال في حكم العصابات الارهابية التي بالكاد توحدت وانضمت ، وبارجون تشفاى ليومى والهاجاناه ، تشكل ما سوف يصبح اسمه بعد هذا جيش الدفاع الاسرائيلى وما سوف يثبت انه ليس مجرد جيش للدفاع عن مجتمع صغير ضعيف من المهاجرين الأوروبين اليهود * * انما هو فى الحقيقة ميلاد أخطر قوة استعمارية - لم تقدر - وانما زرعت وصنعت من قلب منطقتنا نفسها وأيضا فى قلبها *

فكما أثبتت الوثائق بعد هذا لم يكن اختيار فلسطين لتكون قاعدة للاستعمار الاستيطانى القادم عبثا لقد اختيرت لتشطر الامة الاسلامية بشكل عام والامة العربية بشكل خاص الى شطرين كبيرين * * تمهيدا للتشطير والتقطيع والتجزى والتشردم - والهزيمة الكاملة القادمة * * ولو كان الوجود الاسرائيلى قد بقى على هيئة اسرائيل ٤٨ بالضفة الغربية وجزء من الشرقية عربية وكذلك قطاع غزة وصحراء النقب والقدس ، لما عاشت اسرائيل ، ولما تموت ، الشتلة ، اذا نقلت الى أرض غربية وبقيت على حالها * عملاق الشعب المصرى يخرج من القمقم المحلى الذى حبسوه فى داخله طويلا ، القمقم الذى كان يؤمن بأن مصر بلد فرعونى التاريخ لا يمت بصلة فى أهدافه وتوجهاته الى البلاد العربية وحتى الى آسيا وأفريقيا وان تطلعه علميا وفلسفيا وحضاريا لا بد أن يتجه عبر البحر المتوسط الى الشمال الانجلوساكسونى ومن ثم الأمريكى * * عملاق هائل خرج يغلى بفلسفة الثورة.

الجديدة المؤمنة بعروبه مصر وانتمائها الاسلامى الكامل وجذورها الضاربة فى افريقيا وآسيا . . وتطلعاتها الى وحدة عربية شاملة مع شقيقاتها العربيات ووجود اسلامى عالمى يضمها الى الاطار الاسلامى الاوسع الذى يجمع الشعوب المسلمة فى آسيا وافريقيا من شمال وجنوب شرقى آسيا الى افريقيا بشمالها وجنوبها ووسطها ، وكل هذا العالم سواء فى دائرته الأكثر صغرا ، الدائرة العربية أو دائرته الأكثر كبرا ، دائرته الاسلامية مركزها مصر ، هى بمثابة القلب منه وهى الرابطة بين شرقه وغربه وبين افريقيته وأسيويته وعالمه الثالث كله .

أجل شيئا فشيئا بدأت تتكشف ملامح المؤامرة الكبرى على العرب والاسلام اللذين يشكلان العمود الفقرى للعالم الآسيوى والافريقى الثالث يتكشف ان اختيار اسرائيل حتى ولو انهم حاولوا اخفائه بالشعارات التى لا تتوقف على أرض الميعاد وشعب الله المختار وحائط المبكى والحق التاريخى يتكشف ان السبب الأهم يكمن فى انه من مثل هذا الموقع الذى اختير لتقوم عليه اسرائيل يمكن دق اسفين قاتل فى قلب الأمة العربية أولا ثم العالم الاسلامى ثانيا ثم العالم الآسيوى والافريقى الثالث كله ثالثا .

ولكن العقبة الكبرى أمام هذا الاسفين كانت واضحة وجلية لكل ذى عينين ، مصر . . ان وجود مصر الدائرة القومية المعادية للغرب الاستعمارى مصر العربية المسلمة غير المنحازة للقائدة والمثل والمثال أمام شعوب آسيا وافريقيا والعالم الثالث وجود مصر ، بهذه الخطوة فى الموقع والمكانة وبذلك القوة التى بدأت تتبدى ، هذا الوجود خطر رهيب على المشروع الاسرائيلى الأمريكى الاستعمارى كله ، يهدد بوأده والقضاء عليه .

ولهذا كان الهدف الأول طبيعيا ومنطقيا جدا . . ان فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية لم تتكشف عن شعوب عربية واسلامية أطاحت بالاستعمار القديم جانبا وتطمح الى وجود مستقبل مستقل متين ولكن ثبت ان تلك البلاد تمتلك فى جوف أرضها أعظم كنز عرفه تاريخ البشر كنز الطاقة البترولية التى يعتمد وسوف يعتمد عليها الغرب خلال - على الأقل - الأعوام المائة القادمة لكى يعيش ويصنع ويتدفأ ويأكل ويحيا ويرى . . كنز تحيا فوقه شعوب عربية اسلامية « متخلفة » لولا مصر التى كانت قد قطعت شوطا طويلا فى طريق التقدم .

فهل معقول أن يترك الغرب الاسرائيلي الاستعمارى وضعا كهذا قائما ان معناه ببساطة أن يسلم الغرب روحه و « زمارة رقبتة » للعرب وللمسلمين ولرأسهم القائد والمدير والقادر على اقرار « كادر » دفاعى تكنولوجى عامل مدرب يعمل من أجل أن تقبض البلاد العربية على ثروتها وأن تصبح ليس سادس بل ربما ثالث قوة عالمية .

اذن لا بد من ضرب مصر .

ولتكن تلك الضربة موجهة فى نفس الوقت الى العلاقات بين مصر وتلك البلاد العربية المسلمة من ناحية ، ومن ناحية أخرى ضربة موجهة الى العلاقات بين البلاد العربية نفسها . . وبين بعضها البعض ثم بين البلاد العربية وبقية الكتلة الاسلامية الكبرى ، ثم داخل الكتلة الاسلامية نفسها .

وتاريخ العرب الحديث كله ، تاريخ مصر وتاريخ السعودية ، والكويت والعراق والمغرب والجزائر وليبيا وموريتانيا تاريخ باكستان وأفغانستان وحتى الصومال

والسودان والحبشة .. هذا التاريخ كله بداية من أواخر
الخمسينات والى الآن، هو شريط سينمائي واحد متعدد الفصول
والإبطال هذا صحيح ولكنه تطبيق حرفي لسيناريو هدفه
فى النهاية ضرب القوة العربية والإسلامية المساعدة
والاستيلاء على مقدراتها وثرواتها وتأخيرها تكنولوجيا
وحضاريا الى أسوأ مدى ولتكن البداية هى ضرب رأس الرمح
الذى يهدد بتجميع هذه القوى وتكاتفها وتأزرها .. مصر .

وامسك معى أية بداية خيط وأى حدث سيامى أو
عسكرى وأى عراك عربى أو اسلامى أو اسلامى عربى أو
اسلامى اسلامى أو عربى عربى وتتبع هذا الخيط فستجده
يوصلك دائما الى الكابل الرئيسى للخطة .. ضرب العمود
الماسك بين المشرق والمغرب العربيين الواصل ما بين باكستان
وماليزيا الرابط بين الرباط وموريتانيا ونيجيريا وحتى
المسلمين فى جنوب أفريقيا .. ولم يكن السيناريو سيناريو
تافها ككثير من سيناريوهات وروايات السينما المصرية أو
الهندية التجارية .. كان سيناريو متقنا جدا ومحسوبا جدا
ومدروسة كل تفصيلة فيه دراسة خبراء كبار ودكاترة فى
علم قهر الشعوب .

ورثت أمريكا واسرائيل كل الملف العربى الاسلامى
الذى كانت قد جمعته وظلت تحتفظ به فرنسا وبريطانيا
وهولندا وحتى ألمانيا للمنطقة والاتجاهات الدينية والطائفية
والمذهبية وتاريخ كل هذا وذاك تاريخ العلاقات والحزازات
العرقية والقبائلية والاحقاد ونقاط الضعف ومفاتيح
التفجير .. درست هذه الملفات كلها وذاكرتها ووعتها ثم
بعقلية متقدمة جدا وماكرة جدا ودائبة جدا لا تياس ولا تغفو
راحت أمريكا الاسرائيلية واسرائيل الامريكية تنفذ المخطط

لحظة بلحظة ودقيقة بدقيقة وتفصيلا بتفصيلا مع الاستعداد
الفوري لتنفيذ الخطط الجاهزة البديلة اذا حدث متغير غير
متوقع *

★★★

والمضحك المؤلم المخجل أننا جميعا اشتركنا فى تمثيل
هذا المخطط وانجاح الرواية - كلنا رغم انوفنا فى احيان
وبغفلتنا فى معظم الأحيان وبغباثنا دائما وبانعدام الرؤية
وقصور التفكير ذلك ان التفكير والتدبير فى مجتمعاتنا
يحتكره الحكام ، ولأن همهم الشاغل الاوحد هو المحافظة على
كراسيهم فان الاحاطة بالرواية الرهيبة كلها ودورهم هم حتى
فيها لم يكن محل تفكيرهم أبدا * * زد على هذا اننا مجتمعات
تفكر - اذا فكرت - بعواطفها ولو حاول أحدنا اعمال
تفكيره انهالت عليه الاتهامات أحيانا ، الاتهامات المفرضة
العميلة كى تشوّهه وأحيانا اتهامات الطيبين ذوى النيات
الحسنة الأغبياء تماما غير المدركين ماذا يفعلون أو ماذا يراد
بهم وبنا غير واعين اننا نقوم بالدور كآى « كومبارس » أو
مثل ثانوى ولا يعرف ولا يحيط بكل الرواية ولا يرى منها
الا ذلك الجزء الصغير الضيق القادر على رؤيته بل والمعتمد
على غفلته ليؤديه وببراعة الجاهل يفعل * * حتى « عتاوله »
الشوريين ضد أمريكا ونفوذها عهد اليهم هم الآخرون
بأدوار ما ، أدوار لم يلقنوها ، هذا صحيح ولكنها أدوار
ردود الفعل المحسوبة فمثلا حين تريد أمريكا أو اسرائيل
أن تجعل العقيد القذافى يخدم هدفها فهى لا تذهب « يعبط »
وتطلب منه أن يفعل كذا أو كيت ولكنها تجعل مصر مثلا
أو السعودية بناء على معلومات خاطئة أو مخطأة تفعل هذا
الشيء أو ذاك وتكون هى عارفة تماما أن مصر أو السعودية

أو السودان اذا فعلت كذا فان رد فعل العقيد سيكون «كيت»
وهو بالضبط ما تريده هي لتأخذ من فعلته حجة لتقوم هي
فى هذه الدولة أو تلك أو حتى على مستوى العالم بعمل هذه
الشيء أو ذاك .

والأمثلة كثيرة وبالألاف ألم يرد الرئيس السادات
بنفسه انه قبض على عصاة من عملاء ليبيا كانت تنفذ
مؤامرة لاغتياله وانهم ضبطوا فى أماكنهم وفى جيوبهم
الخطط والأسماء والاتصالات والمخازن التى أخفوا فيها
الأسلحة لم يلحظ أبدا أى أحد أن السادات قال بعد هذا
انه علم بأمر تلك الخطط من السلطات المغربية ومن أين
علمت السلطات المغربية بالحنة ؟ اتضح باعتراف بيجين نفسه
ان المخابرات الاسرائيلية هى التى (عرفت) بها أولا وحارت
كيف تخبر السادات بها والعلاقات كانت فى قمة تأزمها بين
مصر واسرائيل فوجد بيجين ومخابراته ان خير طريقة لاخبار
السادات هى الافضاء للمخابرات المغربية بالمعلومات وأعتقد
أن بيجين فى هذه النقطة كان يكذب لأن سبب لجوئه ، للمغرب
هو لكى تأتى الأخبار للسادات من مصدر لا يشك فيه اذ لو
عرف ان المصدر اسرائيل لشك فى الحال وهكذا وصلت
المعلومات الى السلطات المصرية التى قامت بالقبض على
المتآمرين فى حالة تلبس أو شروع تلبس ويومها اشتعل
السادات غضبا وقال عن القذافى ، والله لن يفلت من يدي .

وفعلا أصدر السادات أمره باختراق الحدود الليبية
واختيار ٢٣ يوليو بالذات وقاعدة جمال عبدالناصر ليضربها
ويدمرها انتقاما لمؤامرة اغتياله ولماذا نذهب بعيدا . . ان
معظم الممارك الطائفية التى تدور فى لبنان معارك مدبرة
بحيث كلما هدأت الأحوال بين هذه الطائفة أو تلك فوجئنا

بعربة ملغمة تنسف فى الحى الشرقى من بيروت أو الغربى
وتقوم قيامة الانتقام وتلغيم السيارات من الناحية الأخرى
وهكذا وهكذا بين أمل والمقاومة ، أقول : كانت حرب ٥٦
ثم حرب ٦٧ المدبرة بإحكام أشد ثم ثغرة الدفرسوار بعد
العبور المنتصر ، ثم زيارة القدس وما أسفرت عنه من نجاح
ساحق فى مقاطعة الدول العربية والاسلامية لمصر ليس مصر
الرسمية فقط وانما مصر بمؤسساتها ومكانتها ودورها ..
الى حد وصل الى طرد مصر من المؤتمر الاسلامى نفسه مصر
الأزهر مصر محمد عبده والمراغى والامام الشافعى ، مصر
الحسين والسيدة زينب ورفاعة الطهطاوى وهيكى وأحمد
أمين .. طردها من عضوية المؤتمر الاسلامى أى طردها
« كدولة » من ملة الاسلام نفسه وزمرة المسلمين .

كان النجاح ساحقا وأكثر مما حلمت به اسرائيل
وأمرىكا .. وبقيت فى العالم العربى الاسلامى قوتان
رهيبتان لا يقلان خطرا وأهمية عن مصر .. بقيت ايران
المسلمة الثائرة الخارج شعبها من قمم السافك والامبراطور
والعراق التى بدأت تتوحد وتقوى وتصل الى مرحلة المفاعلات
النووية والتقدم التكنولوجى الخطر .. فكان لابد من ضربهما
معا ..

ونحن فى عالم لم يعد سهلا أن تأتى بضع سفن أو
طائرات بريطانية أو فرنسية أو أمريكية وتغزو وتضرب
هكذا على مرأى ومسمع من العالم دولة عربية كانت أو غير
عربية فنحن لسنا فى قرن الاستعمار العسكرى الواضح :
القرن التاسع عشر وان كانت أمريكا قد بدأت تعود بالدنيا
اليه وتحتل جرينادا وتضرب بأسطولها طرابلس وليبيا أيضا
فى وضح النهار وفى الربع الأخير من القرن العشرين .

ولهذا كان الآروع والأوفق أن تجعل العرب يقضون بأنفسهم على أنفسهم أو أن تجعل المسلمين هم أنفسهم الذين يذبحون المسلمين . .

والمضحك المبكى انى أقرأ بحوثا كثيرة ومطولة حول من بدأ بالعدوان على الآخر أهى العراق أو ايران مع ان مسألة اشعال فتنة أو تحريض طرف على طرف ليست مشكلة أبدا فى العصر التخابرى المتقدم جدا . ذلك الذى تمر به المخابرات الامريكية والاسرائيلية ، ان تسريب معلومات خاطئة للعراق عن ايران أو العكس وعن طريق طرف ثالث عربى أو اسلامى حسن النية مدسوسة عليه المعلومات ليست مشكلة أبدا أن يحدث شىء كهذا ففى مثل الظروف التى يخوضها عالمنا العربى والاسلامى ، والتى بلغت فيه الثقوب فى أنظمة وأجهزة مخابراته ودفاعه أقصى مداها من الاتساع والعدد من الممكن أن تبعث بأى دولة فيه كما تشاء وتثير من العداوات بين أى دولتين كما تشاء .

لقد ذكر لنا الرئيس مبارك أثناء لقائه بالكتاب فى معرض الكتاب انه فوجئ بالاذاعات السورية الموجهة وأجهزة الاعلام تشن حملة مفاجئة على النظام المصرى وتطالب بعدم شرعية عودة مصر الى المؤتمر الاسلامى فى حين ان المسائل كانت فى طريقها الى التحسن والتقارب بين مصر وسوريا بل وبين الرئيس حافظ الاسد شخصيا وبين الرئيس مبارك والحق وأنا أستمع اليه كانت الفكرة التى أورها هنا تفسر لى ببساطة كل شىء فهل كان معقولا أن تترك امرا ئيل الامريكية وأمريكا الاسرائيلية المسائل والمياه تعود الى مجاريها ويحدث لقاء واحد أدنى من اللقاء بين سوريا ومصر مرة أخرى ؟ كان لابد من أيقاف هذا وبأى ثمن فالنجاح

الذى لاقاه الكتاب المثقفون والفنانون المصريون فى سوريا
والسوريون فى مصر نجاح خطير ومقدمة لا بد لحوار على
مستوى سياسى يبدأ ويحل عقدا كثيرة جمعتها القطيعة
الكاملة بين القاهرة ودمشق ولهذا كما قلت كان لا بد من
ايقاف هذا «العبث» فالمخطط لا بد أن يمضى الى النهاية ..
وداخل هذا المخطط لا بد أن تبقى القاهرة مقاطعة تماما من
طرابلس ودمشق ومن اليمن الجنوبي بحيث تبقى منظمة
التحرير مقاطعة هى الأخرى وبحيث يبقى الاشتباك اللبناني
الشيئى قائما فى لبنان وحرب المخيمات لا تتوقف وتحال
التضحية الفلسطينية لمخزن المحفوظات .. فخط التمزيق
والتحارب والحروب العربية العربية والاسلامية العربية
والاسلامية الاسلامية لا بد أن يظل مستمرا ومستمرا ..
فلا تزال هناك بقية شبه سليمة من الجسد الاسلامى العربى
بقية لا تزال حية تنبض ولا بد من استمرار الخطة حتى يذبح
هذا الجسد الاسلامى العربى نفسه ذبحا كاملا وتاما .

والآن أيها السادة المجتمعون .

أعتقد انى لا أكتب هنا شيئا جديدا ولا أزعم انى أزف
اكتشافا لم يكن أحد يعرف عنه شيئا .. كلنا متكاسا
ومحكومين نعرف أن هناك خطة لتمزيقنا وابدتنا وان هذه
الحروب المشتعلة فى الجزء من العالم - لاحظوا انه لا توجد
حروب فى العالم الا فى منطقتنا الاسلامية العربية - أو حتى
أمريكا اللاتينية لا توجد بها الا حروب عصابات - محدودة
هذه الحروب المشتعلة فى جزئنا من العالم لم تشعل نفسها
أبدا ولا كان اشتعالها مصادفة ولا استمرارا مصادفة أيضا
فقد ثبت ان أمريكا ضالعة فى ارسال أسلحة الى ايران كما

هى ضالعة فى تضليل العراق ولا توجد دولة فى العالم تصفها أمريكا بأنها ارهابية الا ثلاث دول و « بالمصادفات المحضة كلها دول اسلامية حتى جنوب أفريقيا لا تعتبرها أمريكا - وان كان العالم كله يعتبرها كذلك - ارهابية الآن أيها السادة المجتمعون » .

ان أمريكا الاسرائيلية واسرائيل الامريكية بمعنى آخر الاستعمار العالمى الجديد ليس مشغولا بتدخين المارجوانا وهو يعرف انكم مجتمعون فى الكويت وانكم لو خرجتم من اجتماعكم هذا باجماع اسلامى ولو على أبسط وأهون الأسباب فان فى هذا خطرا عليه وعلى مخططة كل الخطر .. فلا بد لهذا الاجتماع اذن أن يفسد ومن داخله يفسد .. بمعنى آخر لابد أن تنتقل الحرب الحقيقية الدائرة رحاها فى شط العرب ولبنان لابد أن تنتقل الى قلب مؤتمركم فى الكويت بحيث تتولون أنتم بأنفسكم - اذ لا يوجد ممثل رسمى لاسرائيل الامريكية وأمريكا الاسرائيلية فى المؤتمر اذ المهمة متروكة للمؤتمرين أنفسهم فى تحقيق أهداف أى طموحات اسرائيلية أمريكية بيد مسلمة ولسان مسلم وفعل يجرى باسم الاسلام .

هذا المندوب الغائب سيكون لو علمتم الحقيقة حاضرا بأكثر خطورة مما لو كان له مقعد واسم ولافتة ويمثل دولة .. سيحاول هذا المندوب الغائب أن يشعل نيران الحروب الصغيرة التى تخصص فيها وبرع وسيهرب متفجرات الحرب داخل حقائب السمسونايت مهما بالغتم فى تفتيشها الكترونيا .. وذلك لتفتيت هدفكم الأوحى الكبير الا وهو حماية عالمنا العربى من التمزق والانتحار . تفتيت هذا الهدف الى أهداف تافهة صغيرة وكثيرة تربكم وتربكنا وتجعلنا نخرج من

المؤتمر بخلافات وحزازات أكثر بكثير من التي دخلنا بها
سيفعل المندوب هذا والأدهى انكم ستساعدونه كالعادة اذا
تقمصتم نفس الأدوار التي تتقمصونها خارج المؤتمر .

وعلى هذا فأمامكم أمران لا ثالث لهما . .

اما أن تكونوا على علم تام بخطورة ما يقوم به أعداء
الاسلام والمسلمين والعرب باعتبارهم العمود الفقري للعالم
الثالث الذي يعاديه ذلك الاستعمار العالمي الطاغى . .
اما أن تكونوا على علم بأنهم يأخذون عداواتهم لنا جدا
لا هزال فيه ولا يكفون ثانية واحدة في طعننا بهذا الخنجر أو
ذاك . . وفي هذه الحالة في حالة علمكم تدركون خطورة
الموقف والوضع وموقف الحياة أو الموت الذي نقفه هذه
الأيام وتأخذون ليس قرارات وانما أفعال جادة للدفاع عن
أنفسنا وحتى - كحكام - عن انقسام واما . .

واما انكم لا تعلمون وهذه كارثة أو تعلمون وتخافون
في وجه المخطط فكى يحافظ كل منكم على وضعه ، بعيدا عن
الشر ويفتنى له ، وعلى هذا تمضون قدما في نفس الاتجاهات
التي تدور خارج المؤتمر وعلى هداها تدور الحروب ويدور
افناء العالم الاسلامي لنفسه ذاتيا .

فاذا فعلتم هذا . .

وأرجو أن لا تفعلوه .

لأن معناه مصيبة أعظم ومن الشعوب العربية هذه المرة
ستحقيق - لا قدر الله - بكم الكارثة والضربة . . ولأننا
حريصون عليكم حكما ورؤساء وملوكا وأمراء ورموزا

لوجودنا وعقيدتنا وحياتنا • • فنرجوكم أن تفعلوا مثلنا
وتحرصوا على أنفسكم من أن تصبحوا أدوات للاستعمار
ومخالب قطة لتنفيذ مخططاته في هذه الحالة عليكم أن
تحرصوا على أنفسكم منا نحن • • فللصبر حدود •

والشعوب إذا أرادت الحياة يستجيب القدر •

ونحن نريد ، بارادة الله • الحياة ، حتى لو أردتم أنتم
غير هذا •

اللس ذو الأقدام الكبيرة

بشق الأنفس ، ولظروف شخصية قاهرة فقد كان لى ابن
يعانى منذ صغره بحالة ربو نتيجة لحساسية جسده الشديدة
لتغيرات النفس وبالذات فى الصيف ، حيث كنا أحيانا
نستدعى له عربات الاسعاف حين تزداد الحالة ويكاد يتوقف
عن التنفس ، كان لابد أن أخذ شقة فى منطقة المعمورة
بالذات لكى تقضى فيها العائلة ، وبالذات ابني بهاء ، شهرين
على الأقل فى السنة ، يوليو وأغسطس ، وأحيانا بعضا من
سبتمبر ، وفى أول الأمر ، فى منتصف الستينات كان
الموضوع لا يشغل أمرا صعبا أو مستحيلا ، اذ كنا نحن
مجموعة من الكتاب قد تعودنا أن نأخذ شاليهات للتصيف
فى بور سعيد ، ورغم ان ايجار الشاليه المفروض كان فيما
أذكر لا يتعدى الستين جنيها ، الا انها كانت أقصى ما نستطيع
دفعه من النقود فى ذلك الحين ، والحق اننا كنا مجموعة
متكاملة تماما فمن استاذ علم الحكى والكلام والصحافة
المرحوم سامى داوود الى رائد فكرة الشعبية فى الأدب والفن
المرحوم أحمد رشدى صالح الى وحيد زمانه الولد الشقى
محمود السعدنى الى موسى صبرى ذلك الحين الى الزميل الكبير

حلمي سلام الى من لم تعد تعيه الذاكرة من أسماء ، زمن جميل ، الآفاق مفتحة ، والمستقبل تحوم حماماته وترفرف كحمامات صلاح جاهين ، ومصر انتفضت وتمضى قدما بعد ملحمة ٥٦ ومجدها وحربها وخروجنا ظافرين وظللنا هكذا الى أن قامت حرب ٦٧ وأبيد نصف بور سعيد واحتلت قوات الجيش شققه وشاليهاته ، واضطرونا اضطرارا للذهاب الى الاسكندرية ، وكانت النقلة باهظة على ميزانيتنا اذ كان على العائلة منا أن تدفع مائة جنيه بأكملها فى شقة مفروشة ، وياله من مبلغ باهظ فى ذلك الحين .

المهم ان المائة أصبحت بعد عامين مائتين ثم ثلاثمائة ، وبدأ (ربو) بهاء يتفاقم المدة التى يجب أن نقضيها تطول ، وحينذاك ، وكنا جاوزنا منتصف السبعينيات وجدت نفسى مضطرا الى تأجير شقة فى الاسكندرية للعام كله أو . . وهذا هو المستحيل بعينه ، الحصول على شقة تمليك .

كان ثمة طبقة جديدة قد بدأت تزحف ، وكالجراد المنسنة حيوية بنقود وافرة ، تزحف وتقتنى كل شيء وكانت شركة المعمورة تطرح كل عام حوالى خمسين شقة ، كان سعر الواحدة منها ثمانية آلاف جنيها ، وبالكامل كانت الطبقات الصاعدة مع الحكم الساداتى والانفتاح الجديد تأخذها كلها ، نقدا وعلى الفور ، وذهبت الى رئيس شركة المعمورة فى ذلك الوقت وقلت له : أريد شقة ، فقال : قدم طلبا ، وانت وحظك ، اذا أصابتك القرعة دفعت ثمنها وأخذتها ، وكان معنى هذا بصريح العبارة اننى لا بد أن أعتد على الحظ فى شراء الشقة وثانيا ، وهذا هو المستحيل بعينه أن أدفع ثمنها فى الحال ، ولم يفد أى نقاش مع رئيس الشركة حتى وأنا أذكره انه مع انه رئيس مجلس ادارة أو

حتى لو كان وزيرا فان ماهيته لا تسمح له أبدا باقتناء شقة بهذا السعر فى ذلك الوقت (عام ٧٨) ، وخرجت وأنا محبط أشد ما يكون الاحباط ولكن موظفا ابن حلال فى الشركة لحقنى على السلم وقال لى اننى ممكن أن أحصل على شقة بالتقسيط وكيف يكون هذا ياعم ؟ قال : انتم ناس كتساب ومتصلون ، اذهب الى وزير الاسكان وقدم طلبا ولن يدخلوك القرعة وانما (سيخصصون) لك شقة ، وسيقسطون لك ثمنها على عشر سنوات ، وبدا كما لو ان المسألة قد فرجت ، وفعلا ، ذهبت ، وقابلت الوزير ، وقدمت الطلب ، وقابلنى الرجل بكل ما يملك من ترحاب ولطف ولكنه أفهمنى بطريقة يفهمها كل لبيب ان الشقق التخصيص تاتى قائمتها من رئاسة الجمهورية مباشرة وبالطبع رفضت الفكرة رفضا باتا أول الأمر فأنا أبدا لم أعود أن أطلب من رئيس الدولة ، أى رئيس دولة ، شيئا خاصا بى ، حتى لو كان الامر يتعلق برئتى ابنى ، وصرفت النظر عن الموضوع ، وعدت الى القاهرة ، وبعد ثلاثة أيام حدثت للولد أزمة نقلناه ليلتها فى عربة اسعاف الى مستشفى الشبراوى ولحسن حظى أنا أسكن قريبا من مستشفى الزميل العزيز الدكتور محمد الشبراوىشى الذى أقام لنا فى أول الأمر مستشفى صغيرا فى الدقى ما لبث أن توسع ، ولحسن الحظ لم يلحقه التأميم ، وأصبح يجمع كل التخصصات ويقدم كل أنواع الخدمات الطبية وبأسعار فى مقدرة موظف قطاع عام مثلى ، شىء يعتبر نعمة فى الوقت الذى كانت المستشفيات الحكومية قد ساءت الخدمة فيها، وقل الدواء ، وان كانت لاتزال تحتفظ بأساتذتها الكبار ، وقضى بها ثلاثة أيام بأكملها وهو بالكاد يستطيع أن يلتقط النفس ونصحنى الدكتور حسن حسنى أستاذ أمراض الصدر وابن عمى فى الوقت نفسه ان لا بد لبهاء أن

يقضى أشهر الصيف القائظة وبالذات يوليو وأغسطس فى الاسكندرية ، أو رأس البر ، وكانت بور سعيد لم تعد صالحة للإقامة أو قضاء الصيف، وكنت فى ذلك الوقت أكتب مقالات دائبة النقد للحكومة وللدولة ، ولكن ، تحت الحاج المرض فان أى أب فى الدنيا يضرب عرض الحائط بأى اعتبار آخر ، وهكذا ذهبت الى المعصورة ، وكتبت طلبا للرئيس السادات ، شارحا ظروف بهاء ، وبمنتهى حسن النية ، ان لم يكن السنداجة سلمت الطلب لضابط الحرس الجمهورى الواقف على باب الحديقة الفاصلة بين المعصورة وبين فيلات الرئيسين عبد الناصر والسادات .

والحق انى فوجئت بعد يومين أو ثلاثة بتليفون من موظف فى الرئاسة يقول لى ان الرئيس السادات قد أمر بأن يدرج اسمى ضمن من تخصص لهم شقق من كبار موظفى الدولة والرئاسة وأن يقسط ثمنها كما هو الحال بالنسبة للآخرين ، وشكرت للرجل مروءته ، فقد تصورت انه أدرك ان الأثرياء من تجار الخردة والحيش لا يمكن أن يستولوا على كل المتاح من الشمس والبحر والهواء ، بحيث لا يبقى ثمة ثقب ابرة لكاتب أو شاعر أو عالم أو موظف يقضى عمره وحياته فى خدمة بلاده ولا يستطيع أن يملك أو يستمتع بصيف أو ببحر أو بهواء .

وكنا قد وصلنا شهر أكتوبر والعائلة - عائلتى - كلها سعيدة بأن مشكلة بهاء قد حلت وانه أبدا أبدا لن تتكرر مأساة كتم أنفاسه كل صيف ، فى ذلك الشهر أقيم الاحتفال السنوى بعيد العلم ، ذلك الذى توزع فيه الأنواط والجوائز، ودعيت لحضوره ، وجلست ومعى الفنان الكبير صلاح طاهر نشاهد فقرات الحفل ، وفى الاستراحة فوجئت بالأستاذ فوزى

عبد الحافظ سكرتير الرئيس السادات يأتى لى حيث كنا أنا وصالح نقف ، وينتحنى بى جانبا ويقول لى : ان الرئيس قد سحب منك الشقة ، أى شقة ، شقة المعمورة واستغربت تماما وسألت : لماذا : قال : ألم تكتب مقالا فى الاسبوع الماضى عنوانه : مطلوب واحد قانون ، قلت : نعم ، قال ما دمت تريد تطبيق القانون فقد قرر الرئيس أن يطبقه عليك ويسحب منك التخصيص ، والحق انى أحسست بشيء كالغثيان ، اننى أعرف ان معارف وأصدقاء للرئاسة وللمحافظ مخصصة لهم عشرات الشقق، وهل معنى ان أكتب مقالا أطالب فيه بأن يسرى القانون على الكبير والصغير ، دون أى استثناء أن أعاقب بمنع الهواء عن صدر ابنى ، مع ان التخصيص قانونى ويترك للمحافظ وللرئاسة نسبة تصل الى ٢٥٪ من الشقق المتروضة لبيعها مباشرة دون ادخالها نظام القرعة ، قلت له : يا سيدى اذا كان القانون سيسود فى مصر بالغاء تخصيص الشقة لى ، وسيصبح كل شيء فى البلد على ما يرام فأهلا به من اجراء ، وأرجوك أن تبلغ شكرى للرئيس على هذا الاجراء (العادل) .

والحق ان شخصية الرئيس السادات كانسان أو كبطل تراجيدى أو درامى لم تنل حظها من التأليف، فقد كانت تلك (العملة) أصغر كثيرا من حجم رئيس الجمهورية بل ولم تفلح فى عقابى أو اسكاتى ، فقد مضيت أكتب مقالات من أمثال : تعالوا ننظف مصر ، وتعالوا ننظف مصر ثانية ، أقول ، لا يزال الرئيس السادات لم يكتب عن شخصيته وعن تصرفاته كما يجب ، فبعد أقل من ١٥ يوما يبدو انه كان قد راجع نفسه ووجد انه تصرف بما لا يليق به ككبير للعائلة المصرية ، وأن اجراء سحب الشقة منى لن يؤذى الا ابنى الصغير الذى لا حول له ولا قوة ، اذ وجدت فى البريد خطابا

من مكتب نائب الرئيس السيد محمد حسنى مبارك يستدعيني لمقابلته بقصر العروبة ، وكانت تلك أول مرة أقابله فيها ، وقال لى ان الرئيس السادات حول الأمر اليه ، وانه ستخصص لنا شقة فى العام القادم ، ومعنى هذا انها ستزيد بمقدار أربعة آلاف جنيه ، لم يتول السيد النائب هذا ، ولكن عرفته ، فيما بعد ولم يكن مهما حتى لو كلفنى الأمر ما كلفنى طالما أننى لن أستيقظ أبدا على (شخير) ولدى حتى تكتم أنفاسه ليلا .

المهم ، حصلنا فى النهاية على الشقة ، وما زلت من أيامها أدفع ثمنها بالتقسيط الى الآن ، وهى نفسها الشقة التى سرق فى رمضان الماضى ، ولكن لا أكتب عنها لأروى القصة ، أو لأستعرض حادث السرقة ، ولكنى أكتب عن الموضوع لسبب قد لا يخطر على البال مطلقا .

فقد دق لى عبد العظيم البواب ذات صباح رمضانى تليفونا من الاسكندرية قائلا انه اكتشف ان لصا اقتحم الشقة وطلب منى الحضور لمعرفة ما سرق منها وذهبنا على عجل الى هناك ، وفحصنا الشقة ، ولم نجد شيئا ثمينا أو ذا بال قد سرق منها ، فماذا يمكن أن يوجد فى شقة مصيف الا بضعة كراسى أو شماسى وملابس صيف ، الذى أدهشنى حقا ان أثمن ما سرقه اللص كان أنبوبتى بوتاجاز ، وكانا ، نظرا لوجودهما فى فراندة صغيرة ملحقة بالمطبخ هما السبب الذى من أجله كسر اللص (شيش) البلكونة ، ودخل الشقة وأخذ الأنبوبتين ، مع راديو كاسيت ، ومروحة ، وأشياء من هذا القبيل . .

وأخذت أتأمل حادث السرقة تأملا أعمق بكثير من مجرد كونه حادث سرقة ، فمسألة أن يكسر لص باب شقة أو يقتحم

نافذتها ممكن أن تحدث ولكن ان يكون الدافع الى السرقة ،
الدافع الوحيد ، هو أنيوبتا بوتاجاز فارغتان ، مسألة غريبة
فعلا ، انسان يعرض نفسه لأن يضبط متلبسا بجناية أو
جنحة سرقة واقتحام بيت من أجل الاستيلاء على أنيوبتي
بوتاجاز مسألة قد تدعو في ظاهرها للضحك ولكن ، في
حقيقتها لابد أن تدعو للرتاء ، فحتى اللصوص قد أصابتهم
الأزمة الاقتصادية وأصبحت مسألة أن يعرض انسان منهم
نفسه للسجن من أجل أنيوبة بوتاجاز لا يتعدى ثمنها الثلاثين
جنيها مسألة واردة .

أبلغت البوليس بالطبع وجاء ضابط المباحث ، وجاء
(بوكس) فيه أربعة مخبرين ، ومفتش من ادارة السرقات
بمديرية أمن الاسكندرية ، وجاء فنيون من العمل الجنائي
ورفعوا البصمات وكانت النتيجة ان عاد ضابط المباحث
ومخبروها بعدد من البوابين ليستجوبوهم ، وما كاد الموكب
يمضي حتى وجدت نساء البوابين وبناتهم وأولادهم يتقاطرون
على الشقة ، وكذلك بعض رجال المنطقة ويستطفونني
لأتوسط لهم في الافراج عن أزواجهم في تلك الأيام الرمضانية
الكريمة ، وكانوا يستعطفونني ونظراتهم تخرجني وكأنني قد
أصبحت أنا الجاني وليس المجنى عليه المسروقة شقيقته ،
ووجدتني أقضي يومين في الاسكندرية رغم مشاغلي الكثيرة
فقط للتوسط للافراج عن البوابين وأمرى الى الله . وحين
نجحت أخيرا في هذا ، عدت الى القاهرة بخفي حنين ، أو في
حقيقة الأمر بدون خفي حنين ، وهذا هو ما غاظني حقا ،
فرغم ان الحصول على أنيوبتي بوتاجاز وجدته أمرا مستحيلا
فلا توجد في الاسكندرية كلها انيوبة بوتاجاز واحدة ورغم
سرقة وسام الجمهورية وأشياء لها قيمة معنوية كبيرة الا أن
ما أحزنني ولا يزال يحزنني هو ان اللص قد سرق حداثي

ماركة (باتا) الذى كنت أعتز به كثيرا ، ذلك ان مقاس قدمى ٤٦ ، وفى الصيف لا أطيق ارتداء الجورب ، وكنت أستبدل الحذاء والجورب بما يسمى (سباترى) ولعامين متتاليين وأنا أبحث عن سباترى على قدر مقاسى دون أن أعثر له على أثر ، حتى انى ذهبت الى بور سعيد خصيصا لاحتمال أن أجد هذا المقاس هناك وعدت دون أن أعثر للمقاس على أثر ، الى أن ذهبت الى شركة باتا فى الاسكندرية وسألت البائع عن المقاس ، فقال لى ان آخر مقاسات يصنعونها لا تتمدى ٤٤ ، وبالصدف البحتة كان رئيس الشركة الاستاذ عادل يمر ، وحين عرف المشكلة ابتسم لى ابتسامة مصرية محبة وقال : سنصنع لك (سباترى) مخصوصا ، وطبعاً استنكرت أن يفعل هذا فقال لى : انه لا يفعله استثناء ولكن هناك بعض المواطنين المصريين أحجام أقدامهم عريضة من الأمام مثل أقدامى ومنهم محافظ القاهرة الصديق يوسف صبرى أبو طالب ووزير الخزانة السابق الدكتور سلطان أبو على يعانون من نفس المشكلة ومن أجل هذا صنع قالباً مخصوصاً لهذه الحالات الشاذة وأيضاً للمواطنين الذين يدوخون الدوخات السبع ولا يجدون مقاسهم ، وما أروع وأسعد اللحظة التى عدت فيها بمد يومين فوجدت زوجين من الاسباتريهات لا يتجاوز ثمن الواحد منها سبعة جنيهات وحين جربتتهما أحسست براحة لم أحس بها منذ زمن طويل ، حتى انى كنت لا أكاد أخلع أيهما من قدمى ، بل بهما أستطيع أن ألف اليابان كلها وجنوب شرقى آسيا وبدونهما لم أكن أستطيع أن أتحرك أكثر من بضعة أمتار ، وكنت أتركهما فى الاسكندرية ، والطامة الكبرى انى وجدت ان اللص قد استولى عليهما مع انه كانت توجد أسفل الدولار أحذية جلدية أغلى وأكثر أناقة .

اذن اللص كان يعانى مثلى من كبر القدمين ولا بد انه فرح فرحة عمره بالعثور عليهما اذ كان ممكنا أن يأخذ من الشقة أشياء أخرى ولكن فرحته جعلته يكتفى بهذه الغنيمة وأنبوبتى البوتاجاز اقتحم من أجلهما الشقة ، ولولا اننى وأنا فى طريقى للقاهرة مررت على ادارة شركة باتا ورئيس مجلس ادارتها وقصصت عليه القصة فطمأننى ان القالب الكبير لازال عندهم وانه يمكننى أن أحصل على سباتريهات أخرى لكانت تعاستى ستبقى الى أبد الآبدين، وبالمرة تفرجت على ادارة ومصانع شركة باتا بالاسكندرية ، وهى شركة قطاع عام ، لولاها ، ولولا أسعارها الرخيصة لمشى نصف المصريين حفاة ، ومع هذا فهى تحقق ربحا مجزيا تماما ، وتكاد فى نظافة مبناها ومصانعها تعادل ان لم تتفوق على بعض مصانع القطاع الخاص ، ومن هذه الجولة اكتشفت ان مشكلة القطاع العام ليست مشكلة اقتصادية أو عمالة زائدة أو كل تلك الأسباب التى نقرأها صباح مساء ، انها مشكلة ادارة أولا وثانيا وثالثا ، أعطنى مديرا يحب عمله ويتقنه ويشيع تلك الروح فى موظفيه وعماله يعطيك قطاعا عاما ناجحا ، أما الشركات والهيئات الفاشلة فسببها الأوحى فى رأى اننا نعين فيها أناسا لا يبحثون الا عن شكلية الوظيفة وفخامة المكتب ونوع جهاز التكيف والتليفونات ذات النغمات الموسيقية اننى أقترح على الدكتور محمد عبدالوهاب وزير الصناعة أن يأخذ مديرى شركات القطاع العام الخاسرة فى جولة على شركاته الناجحة ، ويريهم على الطبيعة لماذا ينجح الناجح ولماذا تفسد بعض الشركات وتخسر .

انى أعدل اجابتى التى قلتها ردا على سؤال ضابط مباحث قسم المنتزه : هل تتهم أحدا معينا بسرقة شقتك ؟
ساعتها قلت له : بصراحة أنا لا أتهم أحدا بالمرة .

اليوم أقول له : آسف يا حضرة الضابط امي أتهم لصا
ذا أقدام كبيرة مقاسها ٤٦ ، ابحث لى أرجوك فى لصوص
الاسكندرية والمعمورة البلد بالذات عن رجل أو شاب مقاس
أقدامه ٤٦ وستجد ضالتك المنشودة .

أقمنا مصيفا سياحيا فأخرا على أرض المعمورة وبقية فى
وسطه تماما عزبة مليئة بضجة الميكروفونات والازعاجات
الى ما بعد أذان الفجر ، وفى أول الأمر حين كان سكان تلك
العزبة من الفلاحين والزراع الذين يعتمدون فى أكل عيشهم
على أشجار الجوافه ، وزراعة الخضروات أسفلها ، كانوا
أناسا طيبين وفقراء ، ولكن ذممهم وقيمهم كانت مضرب المثل
حقا ، حتى ان حادثة سرقة واحدة لم تسجل منذ انشاء
المعمورة الى ما قبل عدة سنوات ، حين حدث الانفتاح الأهوج
وامتلأت المعمورة بالطبقات الثرية الجديدة التى لا عمل
لشبابها الا ركوب سيارات آبائهم المرسيديس وضغط الفرامل
بكل قسوة ، والطلوع بالسيارة (أمريكانى) ، بل حتى
صبيتهم يزودونهم بموتوسيكلات مزعجة الصوت ذهلت تماما
حين عرفت ان ثمن الواحد منها لا يقل عن الألفى جنيه ،
يركبه صبي فى العاشرة ، ويزعج البنات والأولاد راكبي
الدراجات والسائرين على الأقدام ، والراديوهات مفتوحة
على الآخر وأغاني عدوية وسحر حمدى بأعلى صوت وعلى
ودنه ، فسد الصيف كمنتجع هادىء ، وفسدت أيضا ذمم
قاطنى العزبة الذين بدأت تطامعاتهم الطبقيّة تتأجج والحصول
على النقود ولو حتى باقتحام شقة وسرقة أنبوبة بوتاجاز
حادثا عاديا تماما لا يستغرب له أحد .

أما انت أيها اللص ذو الاقدام الكبيرة ، فاذا كنت
تستمتع بالخداء وقد أراح قدميك فانى مستعد أن أسامحك
وأرجو الله أن يغفر لك شريطة أن تعيد لنا أنبوبة بوتاجاز

بأى سعر تحدده وأقسم لك انى لن أفعلها أبدا وأبلغ عنك
البوليس ، فكيف يبلغ الانسان عن رفيق أقدام وزميل دفعة
واحدة ، دفعة ٤٦ التى منها سلطان أبو على ويوسف صبرى
أبو طالب ؟!

ويسمى انتهاكات الكلمة !

من حق كل زميل فى جريدة أن يعلق أو ينقد ما يكتبه
زميل أو كاتب آخر ، اما أن يلوى هذا الزميل كلام زميله
ويخرج به الى عكس معناه ويسمح لنفسه بعد هذا أن يرد
على الكلام المغلوط الذى اختلقه فهذا ليس من حقه فقط
ولكنه يتنافى مع أبسط مبادئ السلوك البشرى ، فما بالك
إذا كان هذا الزميل ممن يزعمون انهم من حملة راية السلوك
الاسلامى القويم ، ويكذب هذا الانتهاك الصارخ للحقيقة
تحت عنوان - يا للجرأة - انتهاكات الكلمة .

فى مفكرة سابقة كتبت أرصد التناقض الذى أصبح
صارخا بين علو صوت الميكروفونات المتشنجة الداعية الى
الاسلام ، وبين خفوت صوت الضمير ، فى حين كان المفروض
فى ظل ازدهار الدعوى للتدين أن تترسب هذه الدعوة على
هيئة قيم ومبادئ وسلوك اسلامى قويم ، فجاء الزميل
ليقول اننى أهاجم التدين وألزم المتدينين وأستنكر
ظاهرة تنامى الوعي الدينى ، فهل ممكن أن يفسر عاقل
كلامى هذا الذى قلته على انى أستنكر ظاهرة تنامى الوعي
الدينى أم انى أستنكر علو نبرة الوعظ والتهديد والوعيد ،
والفارق بينهما كبير فنحن جميعا مع تنامى الوعي الدينى
لأنه الطريقة الوحيدة لترسيخ المبادئ والقيم وتقويم
السلوك أما الميكروفونية التى تزعج الناس وتشوش على
تلقينهم وتأملهم لما يقال فلا علاقة بينها وبين تنامى الوعي

الا اذا كان الوعي عند الزميل هو القرين لغلظة أصوات
الميكروفونات •

أنا لا أريد أن أسأل الزميل بأى حق ينصب من نفسه
المدافع الأوحى عن الاسلام بعد سنوات قضائها يعمل بعيدا
فى البلاد الغنية بينما نحن هنا نناضل بشراسة من أجل
الحفاظ على تديننا الحق وقيمنا الاسلامية الحقيقية ، وبأى حق
يسمح لنفسه أن يخلق كلاما على لسان كاتب قرأ كلمة - فى
نفس الجريدة - كل الناس وكلهم شهود عليها •

ان الدعوة للاسلام دعوة حق وقائلها لا بد أن يتحلى
بالصدق والتمسك بقول الحق اذ أن الالتواء والالواء لا بد
أن يفقده صفة الداعية مهما حاول أن يتسربل بها •
ويكفى هذا الآن •

★★★

الهزيمة الثالثة

حسن جدا ، فتورنا سببه موقف احتجاج لا واع على
كثير ، ان لم يكن كل شىء ، مما يجرى حولنا موقف احتجاج
يدفعنا للاضراب غير المعلن بالطريقة التقليدية من اجتماعات
ولا فتات وهتافات وخطب ، ولكن ، كما ابتكر العمال
الفرنسيون أثناء احتلال ألمانيا الهتلرية لفرنسا خلال الحرب
العالمية الثانية ، ابتكروا فكرة العمل ببطء، اذ لم يكونوا
فى موقف أو لديهم القدرة على الاضراب العلنى أو الامتناع
عن العمل ، اذ كان الجستابو الرهيب وقوات العاصفة ستتولى
ضربهم وتحطيمهم وتخريب المجتمع الفرنسى تماما ، وهكذا
ابتكروا فكرة أن يعملوا وفى نفس الوقت ، وفى الحقيقة ،

لا يعملون ، فالعمل الذى يمكن الانتهاء منه فى ساعة يأخذون
يوما بأكمله لانهائه .

ولكن هذا كان من عمل وابتكار قيادة الشعب الفرنسى
المغلوب على أمره ، قيادة المقاومة الفرنسية ومفكرى
وفلاسفة هذه المقاومة ، وهى كما نرى فكرة ليست فى غاية
الذكاء فقط ، وفيها تعجيز شبه كامل لعملية انتاج الذخيرة
والمعدات العسكرية التى كانت تطلبها وتحتاجها آلة الحرب
الألمانية الهتلرية ، ولكن فيها أيضا - وهذا هو المهم - فكرة
ألا تطلب من الناس العاديين ، عمالا كانوا أم فلاحين أم
حرفيين أم متعلمين ، ألا تطلب منهم شيئا يعجزون عن
تنفيذه ، أو يؤدى تنفيذهم اياه الى تعريض هؤلاء الناس
للخطر وللمتهلكة .

ولو كانت قياداتنا العربية ، خاصة تلك القيادات التى
تدعى الثورية القصوى والصمود والتصدى وتنادى بالقضاء
قضاء مبرما على اسرائيل مهما امتدت واستطالت فترة الحرب
والتصدى ، لو كان هؤلاء الناس قد ذاكروا التاريخ ،
وبالذات تاريخ الشعوب التى قاومت أعداءها ومستعمراتها،
لأخذوا مما فعلته قيادة حركة المقاومة الفرنسية السرية ،
درسا .

فالناس العاديون ليسوا بالضرورة والسلفية والوراثة
مخلوقات خارقة البطولة أو هكذا يجب أن تكون ، وأيضا
الأبطال لا يصنعون بالقسر والامر والقوة ، البطولة عند
الانسان العادى تنشأ بالتاريخ الشديد ، وبالتصعيد خطوة
خطوة ، ونتيجة اصطدامات بالعدو يتبدى من خلالها ،
وبوضوح ظاهر ، ان الملاينة أو الاستكانة أو غض الطرف
لم تكن كلها تجدى ، والنتيجة ان الانسان العادى ، وبمنطقه

المادى يصل الى افتتاح جازم انه اذا استمر على منواله المستسلم المسالم فانه لا محالة هالك ، فان لم يكن بالضرورة هو شخصيا ، فأولاده واخوته وأقرباؤه لا محالة هالكون ، هـ يصل المواطن الى درجة اليأس من الحل الاستسلامى الكامل ، ويبدأ يقاوم ، فيضرب ، ويحسمها فيجد انه اذا استسلم لضربة رد الفعل فان ضربا مبرحا آخر ينتظره ، ولهذا فان الاسلام له والحل (المعقول) الأصح هو أن يرد الضربة ، فاذا فعل رد العدو عليه بضربة أقوى ، ويحسمها مرة أخرى ليجد أن لا سبيل لأى حل آخر ، فشئ من اثنين : اما أن يتراجع تراجعاً كاملاً فيعامل معاملة الكلاب النجسة التى لا تليق بأى آدمى ، واما أن يستمر يقول لا ، وقد يعذب لقولها وينكل به . ولكن هذا لن يشكل مشكلة ، فالعذاب والهوان نتيجة الملاينة سيستوى معه العذاب والهوان نتيجة المقاومة . وبالضرورة سيختار المقاومة .

هكذا يصعد الانسان العادى سلم البطولة ، ومن مستوى سطح الأرض والمعيشة ، خطوة فخطوة يجد نفسه مضطرا لان يصعد كل حين خطوة والا هانت عليه نفسه وقضى على كيانه المعنوى قضاء تاما مع الموت الجسدى .

أقول - لو كان قادتنا الثوار العظماء المتحمسون لمعركة لاينال فيها أحدهم اذى ، ولا تخدش له أصبع ، وانما يموت فيها الناس البسطاء العاديون ، ويفرون هم هاربين فى آخر لحظة ، أو حتى قبل آخر لحظة ، لو كان هؤلاء القواد العظام قد أدركوا حقيقة الطبيعة البشرية ، وطبيعة دور القائد أو القيادة من انها تسبق القاعدة بخطوة واحدة لاتزيد ، فلا تطلب من الشعب ابدا ان يقفز قفزة أكبر بكثير من قدراته العضلية أو الإرادية ، وانما القائد الثورى الحقيقى هو الذى يطلب من قاعدته الشئ أو الخطوة التى يرى ويرى

الناس معه انها ممكن ان تتحقق ، فاذا تحققت فإن الشعب
يتضمن اولا أنه يستطيع الخطو - وذلك فى حد ذاته انجاز
عظيم - وثانيا يثق فى أنه قادر على خطوة تالية مقبلة ،
وثالثا وهذا هو الالهم يثق ثقة عضوية ملموسة فى قيادته ،
ويمرف انها تدرك امكاناته ، ولا تطالبه بما لا طاقة لها به
وانها فى النهاية تعمل لمصلحته وليس لمصلحتها أو لتضخيم
ذاتها .

ولو كنا كقادة عرب ، أو مصريين بالذات ، قد وعينا
هذا الدرس لأدركنا ان القوات المسلحة وحدها ، ولا فرق
الصاعقة ولا المخابرات ، ولا حتى كل احتياطى جيوشنا كفى
بأن يحسم معركتنا مع الاستعمار ومع اسرائيل ، فنحن كنا
لا نحارب دولة أو جارة . وانما نحارب أخطبوطا ضاربا
بآلاف سيقانه ومخالبه فى كل أرجاء الأرض ، وان لا يقدر
على هذا الاخطبوط الا الشعب كله ، ليس الشعب المصرى
وحده ، ولكن الشعب العربى وشعوب العالم الثالث كلها ،
ولكننا قد فعلنا كما فعلت المقاومة الفرنسية ، وبدأنا نعلم
شعوبنا خطوات ممكنة محدودة ليقوموا بدور فى المعركة ،
دور لا يمكن أن يعطى للعدو فرصة لتوجيه ضربة ساحقة الى
جماهير بالكاد بدأت تعرف العدو من الصديق ، وعن طريق
الخطوة الصغيرة اثر الخطوة الصغيرة يتصاعد الدور ويشتد
عود الانسان الفرد والانسان الشعب والمجتمع ، ويتعلم ان
عليه أن يقوم بدور ما ، وان القيام به أمر ممكن ، وهكذا
نصل الى اللحظة التى يمكن فيها أن نقوم بعمل جماعى كبير
مرة واحدة وفى لحظة واحدة ، اذ حتى لو لم يؤد هذا العمل
الى دحر كامل للعدو وانتصار كامل لنا ، فان فشلنا فيه لن
يشئت شملنا ، وما دمننا قد ذقنا متعة الكفاح معا ، والثقة

بأنفسنا معا ، فان التاريخ سيعيد نفسه وان لا نكل حتى
ننتصر .

ان نجاح ثورة ١٩ مرجعه الى أن المطلب الشعبى فيها بدأ
بسيطا جدا وممكنا جدا ، وقانونيا جدا ولا غبار عليه ،
أن يجمع الشعب توقعات يوكل فيها قادة ثورة ١٩ بأن
ينوبوا عن الشعب فى مفاوضة الانجليز .

وكانت النتيجة ان شباب الوفد حين قام بجمع توقعات
وبصمات الملايين على تلك العرائض ، قد جند - وهو يدري
أو حتى دون أن يدري - كل من وقع أو بصم على العريضة
للمحركة الوطنية ، وجعله يحس انه (ساهم) وان له دورا ،
وهكذا حين رد الانجليز بنفى سعد ورفاقه ، صعد الشعب فى
كفاحه خطوة ، وأعلن الاضراب ، وكانت المظاهرات ، وحين
رد الانجليز بالقوة الفاشمة وبالعساكر الاستراليين وقد
ركبوا بغالهم وانهالوا على الناس ضربا وتقتيلا ، بدأت
قيادات الوفد تفكر ، بل وتكون ، جيشا شعبيا مسلحا يقاوم
هذا العدوان المسلح .

وحين نما الى علم الانجليز هذا الذى بدأ يحدث ،
والانجليز قوم أذكىاء لهم باعهم الطويل وتجاربهم فى
مقاومة الحركات الوطنية ، بدأوا يدركون انهم سائرون فى
طريق ماحق الخطر سينتهى حتما بمعركة مسلحة عليهم أن
ينخوضوها ضد شعب كامل مسلح ، وكان ان أفرجوا عن سعد
زغلول وقبلوا رياسته لوفد المفاوضات .

تلك مقدمة قد طالت وأطالتها عن عمد لأهميتها ، فمن
الواضح ان شعبنا المصرى وحكومتنا المصرية يعانى كلاهما

أزمة حكم ، فلا الشعب يريد أن يعود الى الحكم الذى جرى حتى فى أمجد أيام ثورة عبد الناصر ، ولا هو يريد أبدا حتى لو قامت المجازر أن يعود الى حكم كحكم السادات ، وفى العالم العربى حوله يرى غير هذين النموذجين حكومات قامت على التعصب الدينى الأعمى أو الحكم العسكرى الديكتاتورى وكلها نماذج ، جربنا بعضها ، ونقرأ الكثير عن المأسى التى تنشعب من ورائها ، ولقد رحب الشعب بزوال العهد الساداتى ، وفتح أبواب آماله مرحبا بمجىء مبارك الى الحكم على اعتبار انه لن يكرر كثيرا من أخطاء عبد الناصر فى عنفوان حكمه ، لن يفكر أبدا فى أن يحكم على النسق الساداتى ، وفعلا ، جاء مبارك تزفه تلك الآمال ويزفها هو الى الشعب ، ولم تكن مصادفة أبدا أن كان أول عمل سياسى داخلى يقوم به أن يفرج عن آلاف المعتقلين ، بل ويقابلهم فى القصر الجمهورى مقابلة ترضية خاطر وما يشبه الاعتذار كما فعله سلفه ، وانخبنا ، فى اجماع حقيقى لأول مرة . حسنى مبارك رئيسا ، وسرت فى الشعب روح أمل جديدة . خاصة وقد بدأ حكم مبارك يمسك بتلابيب لصوص عصر السادات ورموز فسادهم ويحاكمهم ويسمح للمعارضة باستعادة أحزابها وجرائدها ويكم أوسع من الحرية ، وما لبث أن أعقب هذا بالتفاته ود الى الدول العربية التى انتهزت فرصة ما فعله السادات وقطعت كل ما بينها وبين - ليست القاهرة الرسمية فقط ولكن - الشعب المصرى كله ، بنقابات وتنظيماته وهيئاته .

وبدأ مبارك بمنظمة التحرير ، وتلك كانت بداية هامة جدا ، وفى بضعة شهور كان عرفات فى القاهرة ، وكانت قيادة المنظمة توافق على دوام الاتصال مع مصر والتعاون معها ، ثم جاء دور الأردن ، ودول الخليج ، وحدثت محاولات

مع ليبيا وسوريا ، وبدأ كما لو ان الأرض التي فقدتها مصر
فى عهد السادات عربيا تسترد شبرا شبرا ، وبلدا بلدا . .
حتى ليكاد الانسان وهو يراجع سياسة مبارك العربية لا يجد
الا أقل القليل من المشاكل والأخطاء ، وكلها موروثة بكليتها
من القيود التى قيدها بنا الرئيس السادات ، بتلك العلاقات
الخاصة جدا مع أمريكا ، وبالتعاون الاستراتيجى الاسرائيلى
الامريكى الذى فى ظله لن تستطيع مصر وحدها ان تجابه
ذلك التحدى ، ولكنى شخصيا أعتقد أن كل تلك القيود
أمور موقوتة تماما وأن باستعادة مصر لقدرتها وقوتها
الذاتية ، واستعادة الالتفاف العربى حول مصر ومع مصر
سوف يتغير الحال حتى بدون قتال .

فالمضحك ان بعض البلاد العربية (الصامدة والرافضة)
تتصور ان كامب ديفيد لا تزال هى السبب فى المصائب التى
حلت والتى لا تزال تعل بالأمة العربية جمعاء وهو قول
يبعث حقا على الرثاء فلم يحدث فى تاريخ العالم أن تسببت
معاهدة - مهما كانت بنود تلك المعاهدة - فى تفرقة أمة
بأسرها وتمزيقها نتفا ، ان كامب ديفيد كارثة هذا صحيح ،
كارثة بكل معنى الكلمة ، ولكن كامب ديفيد هى الجزء
الظاهر الصغير من جبل الثلج المختفى تحت سطح الماء والذى
تعانيه أمتنا العربية .

لقد حولت كامب ديفيد انتصار أكتوبر العسكرى الى
هزيمة سياسية ، حتى لو كانت قد أدت الى تحرير سيناء ،
فقد كان ثمن تحرير سيناء هو عزل مصر عربيا واسلاميا
وأفريقيا وآسيويا ، وهو ثمن فادح ، ولكن كل بلد عربى
قد قام بما يشبه كامب ديفيد بل وربما أسوأ ، ففرق الجيش
السورى فى الوضع اللبناني الى درجة الشلل التام الذى ألغى
فاعلية سوريا ، والوقية بين العراق وايران الى حد اراقة

كم من الدماء لم يرق في كل التاريخ الاسلامي بين دولتين
اسلاميتين ، وتشويه سمعة العرب بالصداق تهمة الارهاب
بليبيا وضربها على مرأى ومسمع من العالم دون أن تستطيع
دولة عربية أو غير عربية أن تصنع شيئاً ازاء هذا الارهاب
الريجاني الاجرامي ، والاشتباك الليبي التشادي ، وانصوماً الى
الحبشي ، والسوداني - السوداني ، والشيوعي الفلسطيني
الماروني الدرزي السنّي ، والمؤامرة على سعر البترول
والنزول به من حيث كان ٣٤ دولارا للبرميل الى سبعة وعشرة
دولارات - تلك التي سميتها مذبحة صابرا وشاتيل
البتروولية ، ضرب المفاعل النووي العراقي ، وضرب الكوماندوز
المصريين واختطاف الكرامة المصرية الطائرة واتهام مسؤوليها
- علنا وعلى الملأ ، بالكذب ، ثم أخيرا هذا العمل الاجرامي
الكبير بتزويد ايران بأسلحة عبر اسرائيل ، واعطاء العراق
معلومات خاطئة عن أهداف إيرانية كاذبة ، والوقية بين
الفصائل المتقاتلة في لبنان ، بحيث اذا هدأت الأحوال بين
أهل والمنظمة ، فجرت سيارة ملغمة في قرية شيعية ليظن ان
الفلسطينيين هم الذين فعلوها ، أو يحدث العكس ويفجر
صاروخ أو لغم في مخيم فلسطيني لتقوم القيامة بين اللبنانيين
الشيعيين والفلسطينيين ان تشويه سمعة العرب ومحاولة دمج
سوريا بأنها دولة ارهابية ، وكذلك ليبيا ، وفي نفس الوقت
التعامل مع ما سماه كارتر وريجان الدولة الارهابية الأولى
في العالم ، ايران ، ثم بالغش والخديعة والفجور ارسال
أرباح الأسلحة المباعة لايران عبر اسرائيل الى المناهضين
للحكومة الشرعية في نيكاراغوا ، أي ضرب العالم الثالث
بالعالم الثالث ، كلها أعمال ليست فقط غير أخلاقية ، وغير
انسانية ، ولكنها أعمال مافيا مجرمة محترفة آلت على نفسها
أن تسيطر على العالم بالقوة الغاشمة ، وأن تنفق مئات

المليارات من الدولارات لاشعال حرب ذرية يفتنى بها العالم الاشتراكي والعالم الثالث ، واغراق دول الجنوب الفقيرة بمئات المليارات من الدولارات كديون ، وفي نفس الوقت خسف الأرض بأسعار منتجاتها التصديرية لتبقى مغروسة في وحل الدين والفقر والمرض والفاقة الى آذانها .

كل هذا تفعله دولة أفلتت كالوحش الكاسر من قفص السلوك البشرى وانطلقت أسودها ونمورها وثعابينها وكلابها تنهش وتقتل وتحرض وتقهر وتستأصل أى قيمة بشرية أو انسانية وأى شريعة من شرائع الله ، تبشر بكل ما يزخر به قاموس الشيطان من موبقات لقد أتيح لى ان أشهد بعض أحداث انتاج هوليوود من الأفلام ، وفوق انها كلها دعاية فى غاية الذكاء ، والعبقرية لشعب الله (المختار) المختار ليلعب أسوأ دور لعبه شعب فى تاريخ البشر ، فانها تقطع الجذور العميقة التى تربط الانسان الفرد أو الشعب يجلس البشر ، وكان هدفها الأسمى أن تحول الكرة الأرضية الى غابة متوحشة لا يسرى فيها أى قانون حتى لو كان قانون الغابة نفسه حيث البقاء للأقوى ، انما البقاء فيها للاحط وللأخس وللشاذ وللأنانى والخيبة والفشل والضياع لكل من يحاول أن يتحلى بصفة واحدة من صفات الانس أو حتى الوحش .

لا يمكن أن يكون هذا كله قد حدث لأن مصر لا تزال ملتزمة ، حكوميا فقط ، بكامب ديفيد ، فاذا كان لكل شيء سييء جانبه الحسن ، فالجانب الحسن فى كامب ديفيد انها أقنعت اسرائيل وأمريكا ان أى معاهدة صلح أو اعتراف توقع مع أى حكومة عربية على حدة ، أو مع عدة حكومات

عربية ، ولا يكون العدل والحق هما أساسا توقيعهما ، فهي لا تساوى المداد الذى كتبت به ، وآلاف السياح الاسرائيليين يأتون الى مصر ، وما يرونه فى عيون الناس ، وما يقرأونه فى تعبيرات وجوههم ، يؤكد لهم بالدليل القاطع ان صلح حكومة مع حكومة لا قيمة له بالمرّة ، أما الشعوب فهي لا تقبل الا الصلح العادل ، وطالما ان اسرائيل باغية ومعتدية وملتهمة لفلسطين كلها ، ولعبة دور الشيطان فى المنطقة فان أحلامها فى الصلح هي أضغاث أحلام ، وغربتها فى المنطقة ستظل تتعانق مع الزمن اذ الزمن باستمرار العدوان هو مع تعميق العدوان وفى النهاية انفجاره .

كل ما فى الأمر ان هناك شيئا واحدا لا بد أن نملك الشجاعة لقوله والاعتراف به ، ان ما نراه فى ساحتنا العربية من تمزق وتشردم وانعدام ارادة وتفتت كلمة وقرار ، ان ما نراه يحدث فى منطقتنا منذ عام ١٩٧٩ الى الآن ان هو الا علامات هزيمة غير معلنة ، أقولها مرة أخرى علامات هزيمة غير معلنة .

والهزيمة أبدا ليست كارثة ، وكلمة الزعيم الصينى الكبير صن يات صن لا تزال ترن فى أذنى حين فشلت ثورته ضد الاحتلال اليابانى فقال : ليس هذا سوى فشلنا أو هزيمتنا الثالثة عشرة .

ان أولى بوادر الانتصار هي الكف عن مغادة النفس ، والاعتراف أنك هزمت ، وأولى بوادر النجاح هي ايقاف التحجج بالاسباب الواهية والاعتراف بأنك رسبت ، فحين يدرك الانسان أنه فعلا يعاني هزيمة ، وانه فعلا قد فشل فى تحقيق الهدف فان الطبيعة الانسانية سرعان ما تكتسب القدرة على التحدى ، وتتشكل لها من داخلها قوة مارء أعظم

تبادر الى الاستعداد للتحدى القادم ومن ثم الى النجاح والانتصار ، ولولا اننا اعترفنا بأننا هزمنا عام ١٩٦٧ بل وجاء هذا الاعتراف على لسان قائدنا العظيم نفسه ، بل واعتبر ان الهزيمة هي اولا هزيمته شخصيا وبادر وأعلن انه مسئول عنها - لولا هذا ما ركبتنا روح التحدى ولما بدأنا الاستعداد الجدى للمعركة المقبلة ، ولما بلغ التحدى مدى جعل الجيش المصرى الباسل ينطلق كالمرجل المغلى يحطم خطوط أعدائه ويبلغ شىء الهزيمة بهم .



لكن الامور على ساحتنا العربية تؤكد ، لكل ذى عيتين ، ولكل أعشى انها علامات هزيمة لا يعانيتها عالمنا العربى فقط ، ولكن العالم الثالث كله يعانيتها .

واذا كانت تلك الهزيمة قد أخذت شكل الصراع بين الطوائف فى بعض بلادنا العربية ، وشكل الحروب بين نظم ونظم ، وشكل عملاء يحكمون ، ووطنيين يحكم عليهم ، شكل سيادة الفرقة والتعصب ، شكل الهروب من الجهاد فى سبيل الله الى الاغراق فى شرح النعوى والصرف وسحب روح التضحية والفداء والايمان من ديننا الحنيف وتحويله الى ما يشبه التعاويذ ، ومودات الازياء والحجاب ، واسقاط هزيمة الرجال على جنس النساء واعتباره أنه الجنس الخاطيء والمذنب والمثير للفتنة على الأرض (أى احلال نسائنا الفاضلات محل الاستعمار والصهيونية فى غرس الفتنة وتضليل الجماعة واغواء الفرد) .

اذا كانت الهزيمة على المستوى العربى العام قد أخذت هذا الشكل ، فهى فى مصر قد أخذت طابعا - فى رأى - أكثر

خطرا ، اذ هي أوصلت الاحساس بالهزيمة الى قلب وعقل الفرد نفسه ، أن لامبالاتنا ، ان فتورنا ، أن يأسنا ، أن كرهنا لبعضنا البعض ، ان معصياتنا في حق أنفسنا وفي حق دولتنا التي كثر فيها : نهب الأموال ، وشيوع الارتشاء ، والتكالب على الطعام والشراب واللذة المريضة العابرة .

بل ان يؤدي الحال الى أن تصل الهزيمة الى الحد الذي أصبح أسهل شيء للمواطن المصري أن يقول : لنس هناك من فائدة ترجى ، وسعد زغلول قال : مافيش فايده ، ومصر حالة ميئوس منها ، أو أن يصل الى الحد الذي أصبح منتهى الأمل والهجرة والاقامة في مجتمع يتمتع بالنظام والصحة والعدل والتقدم ، الى أن تيأس تماما وتكفر ، كل على حدة ، . اننا ممكن أن نصنع من أنفسنا شيئا ، ومن بلادنا دولة قوية قادرة ، ومن ديوننا وفرة نرفع بها عن كاهلنا عبء اليأس والمذلة والخضوع .

ذلك هو الشكل وتلك هي الأشكال التي أخذتها الهزيمة الثالثة في بلادنا الحبيبة مصر .

في الهزيمة الأولى عام ١٩٤٨ رفضناها واستنكرناها وقامت ثورة ٢٣ يوليو ترد لنا الاعتبار ، وترد لنا الاحساس ان العالم لم ينته بهزيمة ٤٨ وأن العمل الجاد لا بد أن يبدأ . في هزيمة ٦٧ اكتشفنا اننا هزمنا لأننا قمنا بثورة على الورق ، فاجراءاتنا فيها كانت قرارات ، وقواتنا المسلحة تركناها لمن لم يرعها ومن لم يكون بهاجيشا حقيقيا للخلاص .

وكان ان شددنا الأحزمة على البطون ، وبنينا قواعد الصواريخ تحت وابل القنابل الاسرائيلية حتى ان العمال

والعاملات الذين كانوا يعانون فى بناء تلك القواعد وكان معظمهم من أبناء الشرقية كانوا يعرفون أن ثلثهم على الأقل لن يعود لبيته - ان كان له بيت - فى آخر النهار ، ومع هذا فقد كانوا يذهبون الى عملهم وهم يغنون أغاني الأفراح ويفردون وكأنهم ذاهبون الى زفة انتصار .

وهكذا عبرنا القنال فى ٧٣ وانتصرنا .

فى هزيمتنا الثالثة تلك ، نحن لسنا أمام هزيمة عسكرية بالوسوسة ، ولا بضعة قواد من الجيش ممكن عزلهم ومحاكمتهم واحلال غيرهم - أكثر كفاءة - محلهم . . نحن أمام هزيمة لا ترى لها آثارا ملموسة واضحة ، وكأنما قصد أن يكون الأمر كذلك ، انها هزيمة نحس بأعراضها ولكننا لا نعترف بأننا مرضى واننا مهزومون واننا فى حاجة الى هبة كبرى ، من كل النواحي ، توقف جسدنا الذى خدرته قرصة ذباب ، تسمى تسمى ، التى تسبب مرض النوم المستعمر العليل .

أعرف ان الكثيرين سيزايدون ويغالون ويقولون : بل انت المهزوم ، بل انت المخطيء بل انت النائم ، وشيء من هذا لا يهمنى من قليل أو كثير ، ليت الأمر كذلك ، ليتنى النائم المقروص فى شعب صاح حى ، وليت كلماتى كلها تخاريف حمى ، فانا أعلم وأنتم تعلمون اننا كلنا نعانى نفس الشعور . ومادام الأمر كذلك ، فالمرض عام ، وسببه واحد مهزومون يخدعونهم بقولهم انهم غير مهزومين ، بل يريدون اقناعهم بأن المسألة « شوية ديون ، وشوية سلبيات ، وشوية انحرافات » وباجراء هنا واجراء هناك ، بالمحافظة على الديمقراطية ، وعلى القائمة النسيبية ننقد أنفسنا منها ونشفى .

لا . . . هذه هزيمة ألبسوها طاقية اخفاء بحيث لا تراها .
ولن تراها الا اذا توقفتنا لحظة ورمقنا حياتنا ، وما نعانيه
ونحسه فى لحظة صحوة ، فأننى لأكاد أقسم اننا اذا تبينا
الصورة لومضة فلن ننام بعدها أبداً ، أجسامنا نفسهاسترفض
النوم وتأبأه ، قوى الحياة التى نحن بالضرورة مزودون بها ،
ستستيقظ وترفض وتقول : لا لن أقبل ، ولن نقبل أن نحيا
مهزومين .

فحتى الديدان ترفض حياة الهزيمة ، وتزحف ،
مليمترا مليمترا ، لتخرج من المأزق ، وتنقض على فريستها
أو عدوها وتنتصر .

حتى الديدان اذا آيقت انها هزمت أو فى سبيلها لأن
تهزم ، تنتفض فيها كل ما تمتلكه من قوى المقاومة ،
وتستحيل من ارادة الدودة حيث ركنت واستكانت الى ارادة
العملاق المستوحش فى الدفاع عن حياته وعن حقه فى
حياته ، وقدرته على هذا الدفاع .

لقد بدأنا القضية بعرض الفتور ، ثم اكتشفنا ان
الفتور راجع لحالة الغضب ، وها نحن أخيرا نضع أيدينا على
سبب الغضب انهم قد هربوا الهزيمة الى كل منا دون أن
يدرى ، ولأنه لا يدري فهو لا يملك أن يصنع لغضبه أو
لفتوره شيئاً .

ربما ان أدرك السبب ، وبطل العجب ، وأيقن ان الهزيمة
وصلت الى عقر داره وتجويف صدره ، انقلب غضبه من
الآخرين الى غضب على هزيمته الخافية وانقلب غضبه على
الهزيمة ومنها الى ارادة عظمى لقهرها ، وهزيمة الهزيمة .

ولأننا نعرف حال انساننا وما آل اليه .

فلا تطلبوا منه ولا تتوقعوا أن يهب من نومه المريض
أو مرضه النائم فجأة ، ويمتشق حسامه ويقضى على الهزيمة
وهازميه بضربة واحدة .

ليكن مطلبنا منه مثلما فكرت ودبرت قيادة المقاومة
الفرنسية أيام الاحتلال ، شيئاً بسيطاً جداً فى استطاعته ،
ومن أمكن أن نبدأ به ، وتصعد مع البداية خطوات فوقها
خطوات الى أن تصل الى العمل الجماعى الكامل العملاق .

ليكن شيئاً بسيطاً جداً لا شعار اشتر البضائع المصرية
ولا تشجعوا منتجاتنا المحلية ولا حتى شعار أن يشتري
الانسان شيئاً على الاطلاق .

لتكن البداية أن نطلب من المواطنين عكس ما طالبت به
المقاومة الفرنسية أن يسرعوا فى انهاء الأعمال المطلوبة
منهم .

فقط يسرعون فى انهاء الأعمال المطلوبة منهم .

فقط ينجزون فى ساعة ما يأخذ ساعتين لانجازه .

بهذا ومن هنا تصعد السلم ونتعلم خطوة خطوة أن
نصعد الى أن نبلغ الدرجة التى ينقلب فيها غضبنا على
ما ساد حياتنا من تراخ وفتور الى غضبنا على الشعور الخفى
بالهزيمة الذى استخفى علينا ومن غضبنا على ادراكنا اننا
هزمنا الى ارادتنا الكبرى ، أن نهزم هزيمتنا ونقهرها .

دعونا من الحديث عن الجبهة والحوار الناصرى الاسلامى
وأخبار الشيخ صلاح أبو اسماعيل مع حزب الاحرار وعن
المقارنة بين عبد الناصر والسادات وبين عصر الملك وعصر
الثورة .

دعونا من هذا كله .

ولنبداً بهذا الجهد الصغير القادرين عليه تماماً ، ان
نسرع اذا مشينا ، أن نسرع اذا عملنا أن نسرع في اتخاذ
قرارنا أن نسرع في تصحيح خطتنا * * أن نسرع بنفس
النسبة التي تسرع بها الدودة اذا أحست بالخطر وأدركت
ان بطئها هزيمة وهزيمتها في بطئها .

عبقرية المعارف

أعتقد ان الكتابة عن الأمراض عامة ، وعن أمراض
الكاتب خاصة ، مادة غير محببة الى القراء ، ذلك انى أعتقد
ان القارئ مشغل بالمشاكل ، صحية كانت أو غير صحية ،
ويريد ، اذا قرأ ، أن يقرأ شيئاً آخر ولكنى هنا لن أتحدث
عن مرض خاص أو عام ، ولكنى أتحدث عن ظاهرة مصرية
أصبحت فعلاً مشكلة خطيرة من مشاكل شعبنا ، ذلك هو
الاهمال ، والاهمال ليس مقصوداً على المرافق العامة ،
ونظافة الأمكنة والشوارع ، ولكنه امتد حتى وصل الى
الانسان منا ذاته ، كثيراً ما أتوه وأنا أصدق فى أجسام
المواطنين والمواطنات السائرين والسائرات فى الشارع ،
واكتشف ان أجسامنا كمواطنين قد ترهلت بطريقة مزعجة ،
ترهلا لا يكاد يعادله الا ترهل الملامح وعبوسها وكأنها هى
واقعة تحت تأثير وابل لا يرحم من رذاذ الاكتئاب والمشاكل
والهم المقيم ليل نهار ، وفى أشهر الصيف الأولى أحسست انى
أترهل بطريقة مطردة حتى أصبحت ألث لى أى مجهود .

ولكنى مثلى مثل أى مواطن آخر كنت أقول لنفسي انه
الكسل ، والا مجهود ، وكميات الطعام التى لا داعى لها ،

فى الحقيقة كنت أؤجل التفكير فى جسمى أو فى صحتى
باعتبار ان هناك أشياء أكثر أهمية بكثير ، وهذا يعتبر فى
الحرف العلمى المتحضر جريمة لا تفتقر ، وبعد أيام من
الأحازة بالخارج - بدا عقلى - كما يقولون - يروق ، أجازة
حقيقتية لم أقرأ فيها جريدة أو كتابا أو انشغلت بأى قضية
على الإطلاق فقد كان مخى مشغلا بعد عام حافل من القتال
بالقام ضد القصور ، وضد الغباء ولايقاظ الوعى فى
أجهزة تريدنا أن نحيا كالسلامة ، نأكل ونشرب ونتناسل
وننام .

المهم ، حين راق عقلى تذكرت انى لم أعمل فحصا شاملا
لجسدى منذ أكثر من سبع سنوات ، صحيح ان طبيبى الدكتور
مجدى يعقوب الذى أجرى لى العملية منذ اثنى عشر عاما
أوصانى بعمل فحص شامل كل ستة أشهر مرة ، ولكنى ،
بعد عام أو عامين ، وبطريقتنا غير الجميلة ، أهملت كل
شئ وهكذا رفعت سماعة التليفون وطلبت مجدى يعقوب
لتحديد موعد ، تذكرت مساعدته حالتى وعمليتى ولكنها
اعتذرت ان الدكتور مجدى يعقوب مشغول تماما باكتشافاته
الأخيرة فى زراعة القلب والرئتين وانها تحيلنى الى طبيب
زميله . . فى الحقيقة بعد هنيهة من الضيق وخيبة الأمل ، اذ
المفروض ان من يعمل عملا أو عملية ما أن يظل يتابع
صاحبها مهما كانت مشاغله ، بعد قليل عذرت السيدة
وعذرت مجدى يعقوب ودعوت له فى سرى أن يواصل
نجاحاته ، وأيضا اعتذرت عن الذهاب الى الذى لا أعرفه ،
وفجأة اكتشفت ان صديقى الدكتور ذهنى فراج كان المساعد
الأول لمجدى يعقوب فى عمليتى وانه يعرف حالتى تماما ،
وطلبتة فاذا بجهاز تسجيل يرد على قائلا انه فى أجازة فى
اسبانيا وانه سيحضر بعد أسبوع ، وانتظرت على آخره

الجمهر ، وتنفست الصعداء وأنا أطلبه فيرد هو على ويمطيني
موتدا بعد ساعة في عيادته في شارع هارلي الذي لا يستطيع
أن يفتح فيه عيادة الا من وصل الى شأو علمي خطير في الطب
وأصبح على الأذل في مرتبة « مستشار » طبي أو جراحى .
في الحقيقة لا بد أن أعترف بشيء ، نحن في كثير من الأحيان
نجنى على من نعرفهم شخصيا جناية بالغة ولأن محمد ذهني
فراج كان من شباب العائلة الأصغر فلم أكن أتصور انه ،
وحده ، يستطيع أن يكمل دراسته في انجلترا ، ويصبح
واحدا من أعظم جراحى القلب وأطبائه في لندن، ومستشارا
لواحد من أعرق مستشفيات انجلترا، مستشفى وستمينيستر
التاريخى ، كل هذا وأنا مازلت أنظر اليه باعتباره ذهني
فراج الطبيب الشاب حديث التخرج فى رأى ، وان كان قد
مضى على تخرجه الآن أكثر من عشرين عاما ووصل الى كل
ما وصل اليه .

والحقيقة ان مقابلتى معه كانت عاصفة فقد قال لى
بصريح العبارة انى أنتحر واننى بالحالة التى كنت فيها
معرض للموت فجأة ، ذلك انه وجد فى جسدى كمية من المياه
الزائدة تعادل أكثر من ثمانية لترات ، ونتيجة لهذا فهناك
ارتباك فى دق القلب ، .. الخ .. كل ما كنت خائفا منه
.. حتى لقد قلت لنفسى انه يحاول اخافتى ليس الا .

ووصف لى دواء مدرا للبول اسمه فى مصر لازيكس ،
فقلت له اننى أتناوله بانتظام ، قال : ومع هذا هو علاجك
مع دواء آخر .

وكانت المفاجأة .

بعد ثمان وأربعين ساعة فقط من تناول اللازيكس
الانجليزى اختفت تماما آثار المياه الزائدة ، وعاد تنفسى

طبيعيا ، وعدت أسير لمسافة ميلين وثلاثة أميال بمنتهى البساطة مما دعانى للتوقف طويلا عند الدواء المصرى ، فاما أن الجرعة المكتوبة عليه ليست مضبوطة ، واما أن المادة الفعالة فيه قديمة أو فقدت فاعليتها ، واما أن المعامل الأوروبية تطور من أدويتها باستمرار ، وهو شيء لا يحدث للأسف عندنا الا اننا غالبا ما نكتفى باستيراد المادة الفعالة التى درجنا عليها ، ليس هذا بأى حال من الأحوال طعننا فى الدواء المصرى فاننى أشهد وانى ومعى الملايين نعالج من هذا الدواء الرخيص جدا بالقياس الى أثمانه فى السوق العالمية ولكن ما أطلبه وما أعتقد ان لى الحق فيه ، هو أن يقوم مركز الدواء المصرى وهو هيئة علمية محترمة قامت لتعاير الجرعات الموجودة فى كل دواء وتقارنها بالجرعات المكتوبة عليه ، وتقيس مقدار فاعلية العناصر الواردة فيه . وتفعل هذا مرة كل ستة أشهر على الأقل ، وأنا لم أعد أسمع عن هذا المركز ، ولا عن نشاطه ، وتفاجأ كل حين بواقعة عن تقصيره ، وآخر المفاجآت كانت فى نوع من القطرة ان بها نوعا غريبا من الفطريات ، رجائى من الزميل الكبير الدكتور محمد راغب دويدار أن يعيد لهذا المركز مكانته وسيطرته اننى أعرف تماما انه لا يوجد غش فى الدواء ولكن الاهمال قد يكون له عواقب أخطر ، وشركات الأدوية عندنا كلها - تقريبا - قطاع عام ، ومسألة التدقيق الشديد فى صناعة كالأدوية مسألة حياة أو موت وبالمناسبة أرجو ألا ألقى من الشركات والمؤسسات الدوائية ردودا انشائية طويلة فنحن حين ننقد احدى صناعاتنا ، وهى هنا أهم الصناعات ، لا نتوحي تشويها أو تشهيرا وانما فى الحقيقة وفى هذا المقام بالذات ، نتوحي صحة الشعب ، الذى لا يعرف من أسرار تركيب الدواء كثيرا أو قليلا ولا حل الا باحياء دور الرقابة على

الدواء واحياء حقها فى مصادرة أو اعدام أى دواء لا يطابق المواصفات . . ومحاسبة المسئولين عن ذلك .

المهم انى ، بنفس الجرعات ، ونفس المادة شفيت من هذا الماء الزائد ، ولكن ما دور ذهنى فراج فى هذا ؟

دوره ان بعض أطباء القلب الدين كشفوا على سواء فى أمريكا أو اليابان قد شخصوا الأمر باعتبار ان العيب فى القلب ، تشخيص ذهنى فراج كان ان العيب ليس فى القلب وانما فى الماء الزائد الموجود بالجسم ، اذا طرد عاد الجسم الى حجمه الطبيعى وعاد القلب الى طبيعته ، وقد تبدو تلك القضية من البساطة بحيث لا تستدعى أى عبقريه ولكنها ليست كذلك ، اذ معنى ان العيب فى عضلة القلب ان لا حل فى يد الطبيب أو المريض بينما بالتشخيص الثانى الحل فى يد الطبيب والمريض .

شكرا لنايعة من نوابغ مصر الشابة ، وأسف تماما لبيئاتنا الطاردة التى تقدم مواهبنا الى حضارات أخرى على أطباق من الفضة .

ان أؤمن ما فى ذلك الشعب هو شبابيه ، وحين يقرأ الانسان عن مشاكل الخريجين ، وتعيين الخريجين والبطالة المقنعة يحس بأن هناك شيئاً خطأ ، واننا مقصرون فى حق اكتشاف وتشغيل ورعاية أجيال لو أتاحت لها الفرصة كاملة. لجعلت من مصر جنة الله فى أرضه ، لماذا يا الهى لا نعقد مؤتمرا علميا جادا ومصغرا جدا ومحددة مهمته تماما : بحث الثروة البشرية المصرية المهدرة وفتح الطرق المسدودة أمام استغلالها وتنميتها ؟!

مولد القاهرة الكبرى

محافظتنا القاهرة والجيزة أو باختصار القاهرة الكبرى
فى عيد أو فى مولد ، وهو مولد ، لحسن الحظ ، أصحابه
حاضرون * * فأنا أسكن فى الجيزة وأعمل فى القاهرة ،
والجيزة مشغولة تماما بمهرجان عايدة تحت سفح الهرم ،
والقاهرة مشغولة تماما بمهرجان مترو الانفاق تحت سطح
الأرض وفوق سطح الأرض *

وقد أهدانا الدكتور عبد الحميد حسن بمناسبة عايدة
هدية رائعة الجمال هى ساعة زهور أقامتها « وكالة الاهرام
للإعلان » « حازه ببلاش كده » وتصادف انى لم أر الساعة
حين عدت من الأجازة ، ولكنى فوجئت فى الحادية عشرة
مساء ثم فى الثانية عشرة بأجراس تدق فى ميدان الجلاء
القريب جدا من بيتى وأنا لا أعرف السبب ترى ما هذه
الضجة الغريبة على ضجبات الليل فى حيننا ، أنا أعرف ضجبات
الليل عندنا تماما ، فبعد انتهاء حركة المرور الرهيبة فى
شارع النيل وشارع لطفى حسونة يكون الموعد قد حان لكلب
مجنون لا بد مصابا بالسعار ، بالمناسبة أين مكافحة الكلاب -
المسعورة فى الجيزة ؟ اذ يبدأ النباح بالضبط فى الثانية من
صباح كل يوم ، وأستمع جيدا لأعرف لماذا ينبع هذا الكلب
المنكود ، وأصيحخ السمع ، فلا ألمح نسمة أو حركة أو انسانا
فى الشارع ومع ذلك يظل ينبع وينبع وكأنه ينادى غفاة
البشر أن يهبوا للماء الكأس قبل أن يملأ كأس كف القدر ،
ولا يتوقف من النباح - شكرا له - الا عند طلوع الشمس *
وقبل أذان الفجر بدقائق أسمع فرقعة « فسبا » مهولة الوقع
وسط السكون الشام ، ولها عشر سنوات بالضبط وهى
تفرقع فى نفس الوقت تماما من نهاية كل ليلة ، حتى خمنت
انها لا بد تخص موزع اشتراكات الجرائد لشارعنا أما تلك

الدقات النحاسية ففد كانت غريبة تماما ، وحين دقت دقتين ونظرت في الساعة ووجدت انها الثانية الا دقيقة عرفت ان الدقات لساعة ، ولكن أى ساعة لم أعرف الا فى الصباح حين لمحت السور المقام حول سرة الميدان ، العقارب الحاملة للزهور *

وفى الصباح رجوت من الصديق الكبير الدكتور عبد الحميد حسن محافظ الجيزة أن يعقد مع سكان منطقة الجلاء اتفاقا ، ان تدق الساعة فى النهار فقط وأن (تنام) دقائقها الى الثامنة صباحا ، وكان الرجل كريما ومن الليلة التالية اختفت دقات الليل النحاسية ، ولكن عواء الكلب ظل على انتظامه وكذلك فرقعات الفسبيا والأمر لله من قبل ومن بعد * *

أما محافظة القاهرة فكلما رأيت كم ونوع العمل الجارى فى ميدان التحرير وشارع رمسيس وميدان رمسيس وقرأنا ان افتتاح مترو الانفاق سيكون يوم ٢٧ سبتمبر ومعه انتهاء كل أعمال الأسفلت ورصف الميدانين والشارع ، تأكدت انه من المستحيل أن ينتهى كل هذا العمل بعد أيام لا تزيد على أسبوع * وحدث أن جمعتنى مناسبة اجتماعية قريبة مع اللواء يوسف صبرى أبو طالب محافظ القاهرة وحدثته فى هذا وعن شكى فى امكانية تنفيذه ، فأكد لى بما لا يدع مجالا للشك ان كل الأعمال السطحية فى الميدانين والشارع ستنتهى فعلا يوم ٢٧ وان ما سيتبقى هو تشجير الشارع والميدانين ذلك الذى سيأخذ وقتا أطول *

ولو أن القائل كان هو المحافظ الذى أنشأ الحديقة الدولية الجميلة فى موعد قياسي ، وكثيرا من الحداثق غيرها، إلا اننى من فرط عدم تأكدى ، قلت له آتقبل رهانا على هذا

يا سيادة المحافظ ، قال : أقبل ولم نتفق على قيمة الرهان
أو نوعه .

ولكنه رهان أتمنى ان أخسره فهو على الأقل سيثبت لى انه
بالارادة الكفاء وبالمدير الكفاء ممكن أن نحل مشاكل مثيرة .
جدا متراكمة فوق بعضها من قديم الزمان الى الآن .

وسيثبت لى شيئاً آخر ، اننا ، المصريين ، كأحصنة
السباق ، لا تتبدى قدرتنا المخيفة على العمل والانجاز الا قرب
النهاية ، نهاية السباق أو نهاية الدراسة أو نهاية المشاريع ،
والا فما الذى كان يمنع أن ينجز كثير من العمل الجارى
انجازه الآن أثناء التشطيبات الأخيرة لأول مترو انفاق فى
آسيا وأفريقيا باستثناء اليابان .

مركز الدائرة

سران كيران من أسرار الوجود يحيراني سر الكون ،
ومر الشعب المصرى . .

أما الكون فعلماء الفلك والطبيعة النووية والكيميائية
وعلماء الفضاء عاكفون على دراسته ، وكل يوم أقرأ جديدا
عن اكتشاف مجرة ما ، أو سرعة ما أسرع من سرعة الضوء
التي أجمع العلماء على انها أسرع سرعة فى الكون منذ عهد
أينشتين ، أقرأ عن البقع السوداء التي تتكشف فيها المادة
بالتقارب الشديد بين ذراتها وبين مكونات الذرات داخلها ،
بحيث يمكن أن يصل ثقل ما يوازى كرة المطاط منها ، ثقل
الكرة الأرضية كلها ، الكون يتمدد ، الكون ذات يوم سيعود
الى الانكماش ، الكون ينبض ، الكون يتحرك ، الى أين وفى
أى اتجاه ، وهل ما هو خارج الكون فضاء أثيرى كما كنا
نعتقد ، أم انه لا يوجد للكون ، خارج ، فكل الكون داخل كل
الكون ، والأحداث كلها تدور منه ومن داخله .

وأنا هنا لا أتحدث عن خلق الكون ولا عن الخالق سبحانه ،
اننى انما فقط أورد بعضا من البحوث التي كتبت لسير هذا

الشيء الكونى الذى نحن البشر منه ، وهو منا ، والذى يعتبر فيه الانسان العين الوسيطة بين الكون الاكبر الـ () والكون الأصغر الذى يوجد داخل الذرة الـ () ولهذا فهو وحده الذى يدرك وجودهما معا ، ورغم ذلك فمعلوماته عن كنه هذا الوجود لا تزال قشرية تماما ولم تصل بعد الى أى حد أدنى معقول لادراك كنه التركيبة الكونية الصغرى أو الكبرى .

ذلك عن سر الكون . .

أما السر الذى يكاد يجاوز فى صعوبته سر الكون ، فهو سر الشعب المصرى . . الشعب المصرى بالذات . . ولا أقولها كمصرى منحاز لمصر ، ولا فخور أو متفاخر ، انما أقولها لأؤكد حقيقة أنفقت حال عمرى ، ذلك الذى أنفقت نصفه فى تأمل الكون وخالقه ، أنفقت نصفه الآخر فى تأمل شعبنا المصرى هذا وسره .

انه من جنس الانسان قطعا ، بل من المحتمل تماما أن يكون من أول الكائنات البشرية التى وجدت على سطح الأرض ولهذا فتاريخه هو أطول تاريخ لأى شعب ، فقد وحد الملك « مينا » القطرين من أكثر من خمسة آلاف سنة ، ولكن قبل هذه الوحدة كانت هناك دولتان عاشتا طويلا ولم يعرف عنهما شيء ، وقبل الدولتين كانت ثمة عشائر وقبائل وعصور صيد وزراعة وتاريخ طويل طويل ، سر لا يمكن أن تعرف منه أبدا ماذا يريد هذا الشعب وماذا لا يريد ، ماذا يفيظه وماذا يسعده !!

لماذا تبادر الى ذهنى السران الآن ؟

الجواب حقا غريب ، اذ هو يتعلق بترشيح الرئيس
حسنى مبارك ومبايعته . . ذلك اننى امضيت الأسبوع الماضى
كله أستمع الى صرخات شباب متشنج يشجب الطريقة
الاعلانية المواكبة المصطنعة التى تدور على صفحات الجرائد
وشاشات التليفزيون . . والغريب انى حين كنت أناقش هذا
الساخط أو ذاك وأقول على سبيل الدعابة ، وماذا يغضبك . .
هل انت ضد مبارك ؟ الغريب ان الجواب من كل الشباب
الذين سألتهم كان يأتى على هيئة : أبدا . . أنا مع مبارك .
اذن لماذا غضبك ؟

وهنا تبدأ تتفجر على السنة الجميع ، من هنا وهناك .
أجزاء من حمم بركانية طال غليانها فى النفوس التى مجت
طويلا فكرة فسرهما على الاجمماع وفكرة مبايعة المحافظين
والوزراء للرئيس وبنقود الدولة والمواطنين ، فكرة خلق
ما يشبه الرأى العام الزائف والمزيه الداعى أولئك الذين
يريدون وقرروا انتخاب مبارك فعلا ، أن ينتخبوه !

لو كان هذا الخطأ البشع فى حق مبارك وفى حق عهده
قد ارتكب فى بلد آخر أعصابه ليست فى ثلاجة ، كأعصاب
الشعب المصرى ، لكان قد ركب رأسه وأسقط ذلك الرئيس
الذى يدعون اليه بطريقة مستفزة لا ذوق فيها ولا صدق
ولا شئ سوى النفاق الأعمى . . تلك الحملة الفوغائية
الاعلامية جعلت نفسى تجزع حقا عن أن أكتب رأى فى اعادة
ترشيح مبارك ، وبالطبع لم أكن وحدى ، انى أعرف عشرات
من عقلاء المصريين الفاهمين الواعين المقدرين لموقف مصر
الخطير فى وسط شرق أوسط تحركه أمريكا واسرائيل .
ووضع داخلى يتحكم فيه الجشع والتعصب والجهل ، أعرف
عشرات من هؤلاء ، كانوا ينوون ، بل كتبوا فعلا ، مقالات
موضوعية تماما ، تقييما لفترة حكم مبارك السابقة ، وطلبوا

منه أن يرشح نفسه لفترة قادمة ، ولكنهم لا يفعلون هذا على بياض ، كل منهم كان يطالب الرئيس بمجرد موافقة مجلس الشعب على ترشيحه أن يلقي بيانه الانتخابي الأول الذي يحدد فيه على وجه الدقة واليقين ماذا سيكون عليه أن يفعله خلال السنوات الست القادمة ، وعلى ضوء هذا البرنامج يتم الاستفتاء ، اذ هو سيشكل عقدا سياسيا اجتماعيا اقتصاديا بين الرئيس وبين الشعب ترجع اليه وقت الخلاف أو الاختلاف ، ويكون هو الأساس في الحكم والدستور المحدود للمرحلة القادمة .

ولكن هؤلاء العاقلين طورا الصفحات ووضعوا الأقلام باعتبار ان آراءهم تلك ستضيع وسط الزفة ووسط المواد ، ووسط بضعة موظفين من موظفي الحكم المحلي ، وللأسف جهات لها احترامها وتقديرها ، لديهم نقود الشعوب يشترون بها صفحات الجرائد ، ولديهم التليفزيون الملاكى يذيعون منه ويقولون ما يشاءون .

والشعب الماكر الخبيث يتفرج ، ويضحك من صميم قلبه ، حتى اذا التقى بصديق أو مسئول مهما كان صغيرا انفجر فيه بالسخط والغضب ، سخط وغضب اعتقد ان مصدرهما هو هذه المحاولة البشعة للاعتداء على حق المواطنين في ابداء الرأى أو حتى فى تكوين الرأى . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى، أدرك الشعب أن كل هؤلاء المزيفين بمئات الألوف لآراء المحافظات والجامعات والهيئات معظمهم - ولا أقول كلهم - جماعات الانتهاز التى دأبت ومنذ هيئة التحرير الى الآن على أن نركب أعلى الموجات ، تصرخ وتزعق بآخر ما تستطيع وتمتلك من ميكروفونات وتمتلك عبقريه خاصة فى ازجاء المدح والنفاق دون الحاجة حتى الى محترف كتابة يصوغ لها ما تريد قوله : انهم اذا ليسوا ناخبين ، أو مؤيدين

لمبارك « بالروح والدم نفديك يا . . » فلم يفد أحد أحدا
ولا بالدم ولا بالمال « انهم انما باعلاناتهم يرشحون أنفسهم
هم وليس مبارك ليبقوا فى الصورة أثناء عهد الرئاسة القادم
أو ربما يضرب الحظ مع بعضهم ويختار لمنصب أعلى .

لقد كنت من أوائل من طلبوا مقابلة الرئيس مبارك
بعد انتخابه فى ١٣ أكتوبر ١٩٨١ ، فقد كنت أريد أن
أطمئن على الرجل الذى ألقى اليه مقاليد أمورنا فى واحدة
من أدق مراحل حياتنا . . وكتبت عن تلك اللقاءات وقلت
فى أحداها ان رجلا مثلا مبارك لا يمكن أن يخون القضية
المصرية لسببين رئيسيين : لأنه أولا ضابط جيش ، والجيش
المصرى منذ ما قبل عرابى والى الآن هو مدرسة أولى للوطنية
المصرية ، ان هذا الشاب الذى يدخل الكلية الحربية ليخوض
حربا قد يفقد فيها حياته دفاعا عن بلاده وشعبه ، شاب غير
عادى ، وطنى بالضرورة ، شجاع بالسليقة . أما السبب الثانى
فهو انه حارب اسرائيل دفاعا عن مصر ، وما دام ضابطا
ومحاربا فمضى رابع المستحيلات أن يخون أو يفرط .

ولقد مضت سنوات حكم الرئيس مبارك الأولى ، والشعب
ينتظر تغيرات عظمية تزيج من على وجه الساحة الطفمة
الباغية التى أودت بكبيرها الى حتفه أولئك الذين جعلوا من
عبد الناصر بنفاقهم اليومى شبه اله لا ترد له كلمة . . ولكن ،
لأن الرئيس مبارك ، ذكر لى أثناء تلك اللقاءات انه أبدا لم
يسع لوظيفة ما من وظائف الدولة منذ تخرج من كلية
الطيران ، وأصبح مدرسا بها ، وتفانى فى أداء وظيفته حتى
وجد نفسه ذا يوم مرقى الى رتبة أركان حرب الكلية ، وبنفس
المجهود والتفانى عينه عبد الناصر مديرا لكلية الطيران ، ثم

عينه الرئيس السادات رئيسا لسلاح الطيران وخاض الحرب، وفوجيء بنفسه يعين نائبا لرئيس الجمهورية ، والمحيطون بالرئيس مبارك ، وهم قليلون ، يذكرون انه أمضى فى بيته ثلاثة أيام بعد ما عرض عليه الرئيس السادات منصب النائب، يفكر فى الكيفية التى يعتذر بها عن هذا المنصب ، فمبارك اذا عرفته عن قرب رجلا لا تهمة المناصب ، ولا يسعى اليها ، شاب طيار مصرى يحيا حياة الطيارين المثالية ، يستيقظ مبكرا جدا ويعد الشاى ، أحيانا بنفسه ، لأولاده ، ثم يمارس رياضته المفضلة الاسكواش لأكثر من ساعتين ، ثم يبدأ (يدرس) مشاكل مصر وحلولها : ذاك انه جىء به الى الحكم من القوات المسلحة البعيدة فى شئونها تماما عن الحياة المدنية ، وعن المشاكل الكثيرة المعقدة للدولة وللشعب ، بلا حرج كان يقول انه يدرس ، ويتشاور ، ويعقد جلسات خاصة لا يعلن عنها ، باختصار ، ودون خدش لمكانته كان مبارك (يتمتم) كيف يدير مصر ادارة وطنية نظيفة ، تحل مشاكلها العاجلة وتفتح الباب أمام مستقبل أكثر ازدهارا .

ورغم ان بعض من يكونون فى مرحلة التعلم تأخذهم العزة بالنفس والتمسك المتعصب بالرأى ، الا أن الرجل كان يمتلك ميزة فريدة ربما لا يتمتع بها كثيرون ممن تربوا فى الحياة العسكرية ، وهى قدرته على تقبل النقد ، وتمسكه الشديد بالديمقراطية ، وبالذات بحرية الكتابة ، وأشهد انى منذ أكتوبر ١٩٨١ لم تشطب لى كلمة واحدة من مقال واحد بينما لى دوسيه كامل من المقالات المرفوضة وأوامر الفصل فى العهود السابقة . ذلك انه كان أيضا يتعلم من النقد . . بل ويتعلم من أخطائه . . ولقد أخطأ الرئيس مبارك ذات مرة فى حقى نتيجة دسائس قام بها اناس يرحمهم الله أحياء وأمواتا . . يحيطون به ويغذونه بمعلومات يتضح

بعد هذا ان معظمها كاذب . . ولقد كتبت أدافع عن نفسى وأتهمه انه - وهو الرئيس للدولة قد تجنى على - فلمن أشكو ويشكو أى انسان رئيس الدولة اذا تجنى عليه ، حتى القضاء لا يستطيع الحكم ضده (الا بعد اجراءات مستحيلة بنص الدستور) . .

ولكن لأن خبرتى بطبائع النفوس لا تجعلنى أحكم على الانسان بخطأ حتى ولو كان الخطأ ضدى فلقد ظللت أؤمن ان مبارك هو الحل منذ أن انتخب . . وكأنما أراد الله لمصر أن يأتى لها بحاكم ينفر من فكرة الزعامة ولا يسعى لأمجاد . وانما يريد أن يسوس بلاده وشعبه ويؤدى واجبه هذا بمنتهى التفانى كما كان يفعل وهو مدرس بالكلية الجوية حين كان يستيقظ فى الخامسة صباحا ليوظظ الطلبة جميعا الى طابور رياضة يتعلمون فيه الجدية والمحافظة على أجسادهم وصحتهم حتى ضج الطلبة منه ولكنى أعتقد انهم الآن قد أدركوا فائدة ما كان يصنعه مدرسه بهم . .

لقد كان مبارك هو الحل الأمثل لتناقضات مصر الصارخة بعد عصر السادات والانفتاح المجنون والانكفاء على أقدام الأمريكان والاسرائيليين ولقد حدثت أثناء حكمه أحداث مروعة . أقلها اضراب جنود الامن المركزى . وبدايات الفتنة الطائفية المهولة ، ولو كان مبارك قد تصرف بعصبية اللحظة لفجر براكين هائلة لا تزال تغلى فى نفوس الشعب ، ولكنه استعمل الزمن معه ، واستعمل الصبر - يا لقدرة على الصبر الطويل - معه . والنتيجة ليست سيئة بالمرة . صحيح لم يتحقق كل ما حلمنا به ومن أجله خرجنا لخروج رجل واحد ، بلا لافتات ولا صفحات ولا برامج متلفذة تنتخبه ، لم يتحقق الشئ الكثير ، بل ولا أعتقد انه خلال السنوات القادمة ستحقق معجزات ، فزمن المعجزات قد انتهى ، وزمن

الرؤساء أصحاب المعجزات انتهى ، ونحن بشر ، ومبارك
بشر ، مصرى مثلنا ونحن مصريون مثله ، ولا يزال هو
أيضا مركز الدائرة المصرية ، تلك الدائرة التي يشمل
محيطها من أقصى اليمين الى أقصى اليسار ، ومن المفكرين
لغيرهم الحاكمين باعدامهم ، الى أصحاب العقول والعقول
الاسلامية الرحبة ، ومن شيخ الأزهر الى البابا شنودة ..
ولأنه مركز الدائرة ، ولأن الدائرة أوسع من مصر اذ هي
تشمل بلادنا العربية التي تمردت مرة - وكان لها الحق -
وقطعت علاقتها بنا ، فبدون أن يتحرك المركز ها هي علاقتنا
العربية تستعاد ، ان لم يكن على المستوى الرسمي فعلى
المستوى السياسى والاقتصادى والثقافى لدرجة انى كدت
أضحك وأنا أقرأ بطاقة الدعوة فى افتتاح معرض السعودية
بين الأمس واليوم ، ومذكورة فى أعلاها : سفارة باكستان
- قسم رعاية المصالح السعودية - يا للعار ..

شكرا أيها الرئيس مبارك على قيادتك للسفينة بكل
ما تملك من جهد وكفاءة طوال ستة أعوام ..

شكرا ان السفينة لم تفرق ..

ولم تصدم ..

وان ركايبها لا يزالون أحياء مع ان حملها زاد بازدياد
مطالبهم واحتياجاتهم .. ومع اننا - بتجربتنا معك واثقون
انك ستمضى مستقيما كما مضيت .. الا اننا نحن الآخرين
نريد أن نرى معك الطريق - ولهذا انت مطالب أيها الرئيس
بأن تعلن لنا - وفى أقل الكلمات برنامجا - لكى تكون هناك
عملية استفتاء حقيقية ، اذ أن هذا البرنامج لو لم يعلن
فلا فائدة من الاستفتاء أصلا .. فأنت المرشح الأوحى ،
وأنت مركز الدائرة ومركز اجماع المصريين ، وكلهم لم

ينتخبوا سواك ، فلماذا الاستفتاء .. الا اذا كان استفتاء
على برنامجك وليس على شخصك ، فهو استفتاء أساسا على
حاضر مصر ومستقبلها ومن أجلها وليس استفتاء على شخص
الرئيس مهما أجمع عليه .. أليس كذلك يا سيادة الرئيس؟!
والى أن نلتقى ان شاء الله بعد اسابيع الأجازة أتمنى
لكم أطيب الأوقات ..

وذهبت للدعوة الغامضة

كانت الدعوة غامضة تشبه ما تكون بالألغاز : بيان ميداني للجيش الثالث ، المشير محمد عبد الحليم أبو غزالة يدعوكم : الوجود في مطار المأظة الحربى الساعة ٩٠٠ ، أسعدتنى الدعوة تماما رغم غموضها وفى نفس الوقت رحت أطارد مختلف الأعذار التى يمكننى أن أتعلل بها، واستيقظت فى السادسة صباحا لأصل الى طريق المطار فى الثامنة والنصف ، وأقضى نصف ساعة كاملة أبحث عن مدخل مطار المأظة مع اننى كنت قد سافرت منه مرة على ما أذكر قبل افتتاح المطار الجديد - القديم حاليا، ذلك ان المباني أحاطت بالمطار حتى ابتلعتة تماما ولولا سائق تاكسى شهم طلب منى أن أتبعه ليرينى باب المطار ما وصلت ، ووصلت .

وجوه باسمه مرحبة من قادة سلاح الطيران ، وجه الصديق الكبير الفريق صفى الدين أبو شناف رئيس هيئة أركان حرب القوات المسلحة وأشواق وعناق . . هذا رجل أحب التحدث معه فقد صاحبنا فى زيارتنا للمصانع الحربية وأحسست احساسا عميقا اننى يمكن أن ألقى كل ما لدى من أسئلة وهواجس ولم يتردد أبدا أو يبدو عليه انزعاج ما لأى

سؤال ، وهى اجابات عميقة معقولة تماما ومن لحظة تلك
المواجهات الصريحة أحسست اننا أكثر من أصدقاء .

— الى أين يا سيادة الفريق .

— الى سيناء .

نعم كان قلبى يحدثنى اننا ذاهبون الى سيناء فصحيح
ان الجيش الثالث يحتل جانبا من الضفة الشرقية للقناة
ومدينة السويس ولكن فرحتى أكدت لى اننا بسبيلنا الى
القيام بزيارة لمكان ما فى سيناء تدور فيه معركة بالذخيرة
الحية وتصور لأمر ما أن المعركة ستكون فى المنطقة (أ) أى
فى الجانب الشرقى المباشر لسيناء لم آكن أتصور أبدا أن
المعركة ستكون فى أحد المضائق الثلاثة الرئيسية لسيناء
مضيق الجدى أضيقها جميعا وأصعبها غزوا ، اذ أن المعركة
كما شرحها لى الفريق أبو شناف ستفترض أن العدو وقد قام
بغزو سيناء مرة أخرى وانه نجح فى الاستيلاء على مضيق
الجدى وان قوات الجيش الثالث الميدانى ستقوم بصد الهجوم
وطرد العدو من المضيق واحتلاله وطرد العدو الغازى منه .

ومع الزميلين والصديقين صلاح منتصر ومحفوظ
عبد الرحمن ركبنا ومعنا محافظ السويس الضاحك المتفائل
أبدا اللواء تحسين شنن وكوكبة من كبار الضباط ركبنا
هليكوبتر من الطراز الذى تركبه فرق الصاعقة والمظلات .

ولأن تلك أول مرة فى حياتى أركب هليكوبتر فقد بدت
التجربة مثيرة تماما ولكن الاثارة لم تستمر سوى بضع
دقائق فالركوب فى هذا النوع من الطائرات يستلزم لياقة
بدنية عالية وقدرة على احتمال الضجيج بحيث لا بد أن تكون
(طبله) أذنك مصنوعة من الصلب الرقيق فضجيج محركها

عال تماما وكأنك تطير بوابور جاز كبير مما تصنع الطعمية بواسطته ، صحيح ان الطيران لم يستغرق أكثر من ساعة لكنها تساوى بحساب الطيران المدنى العادى ست ساعات من التعب والارهاق .

عبرت الطائرة قناة السويس ولأول مرة أرى القناة من علو منخفض وأدرك ان عمقها الحقيقى هو فى مجرى رئيسى على جانبيه مياه ، هذا حقيقى ولكنها مياه ضحلة لا تحتل الا ملاحه القوارب فوقها .

ثم بدأ الشاطئ الغربى لصحراء سيناء شاطئ رملى مثله مثل شواطئ البحر الأحمر وخليج السويس وفجأة وجدنا أنفسنا فوق هضبة سيناء التى تحتل وسط سيناء من الشمال الى الجنوب هنا كشرت الطبيعة عن أنيابها وأصبحت متجهمة قاسية التضاريس هذه الهضبة المتجهمة لا يمكن القتال فوقها فمسالكها وعرة واختراقها مستحيل الا من ثلاثة أو أربعة مضايق متعرجة تضيق تماما عند الحافة الشرقية للهضبة بحيث يصبح عرض نفق - مثل الجدى - لا يسمح الا بمرور دبابة واحدة وبحيث يمكن لأى كتيبة واحدة أن تدافع عن كل نفق الى ما شاء الله وكنا نقرأ عن هذا كله ونقرأ عن ترك الجيش لمواقعه شرق المضايق والتقهقر بالأمر الى غرب القناة وكنا نندهش نحن المدنيين الذين لا يعرفون شيئاً عن العسكرية لهذا الذى يحدث وكنا نستنكره ولكن ما فائدة رأينا المدنى الذى يأتى دائماً بعد اعطاء الأمر وفوات الأوان .

وعلى الطبيعة تبدو المسألة واضحة تماماً فالممر وان كان ممرا الا انه حصن طبيعى ضد العدو فمنه ننفذ الى غرب سيناء وبه نستطيع أن نحصن مصر والجزء الأكبر من سيناء

ضد أى غزو قادم من الشرق هبطت الهليكوبتر واستقبلنا
البلواء عادل القاضي قائد الجيش الثالث وما أن هدأ - على
المقاعد - فوران الدم الحادث من وابلور الجاز الذى كنا نركبه
حتى جاء المشير الذى احتفل بشجاعتنا فى الحضور وكانت
الخيمة عامرة بالملحقين العسكريين العرب وأعضاء من مجلسي
الشعب والشورى وكبار قواد القوات المسلحة وكانت الريح
قد بدأت تصفر ورغم حرص قيادة الجيش الثالث على توفير
الراحة لنا الا انها تقف عاجزة أمام أحوال الجو المتقلبة فقد
بدأت الهضبة التى كنا نطل منها على الممر الواقع تحتنا
بكيلو متر بدأت تقذفنا بكميات من الرمال الى درجة أكاد
أقول فيها اننا عدنا من سيناء رجالا من رمال من قمة شعرنا
الى ما بين أصابع أقدامنا .

وبداً البيان .

وكان البيان عبارة عن محاولة استرداد السيطرة على
النفق وطرد العدو منه ولهذا كانت قوات الجيش الثالث
تهاجم من يميننا الى يسارنا ولست بخبير عسكري حتى أدلى
برأى فيما حدث ولكننى كنت منفعلاً تماماً بأشياء كثيرة
جداً . أولها اننا فى المنطقة (ب) حسب معاهدة كامب ديفيد
تلك المنطقة ذات التسليح الخفيف وكنت كثيراً ما أتذكر هذا
وأحس بالفصحة من قبول تلك الشروط المتعسفة ورضائنا
بها ها نحن الآن فى قلب المنطقة (ب) وحيث سيشارك الطيران
مع المدفعية مع الدبابات مع قوات الصاعقة فى هذا البيان
العسكري اما ما أذهلنى فى ذلك البيان فهو التوقيت الدقيق
لتدخل الدبابات مع التمهيد بمدفعية الميدان الثقيلة ثم
اجتياز حائط النايالم الذى أقامه العدو ليحد من زحف قوات
المشاة المحمولة فوق الدبابات أو النازلة من أعلى الجبل المقابل
ثم الطيران المصرى، ياللعممة وأنا أشاهد لأول مرة فى حياتى

طائرة هليكوبتر من صنع مصر تقذف صواريخ صناعة
مصرية شاهدها قبلا فى مصنع صقر وتصيب الهدف بدقة
رائعة الى حد أن الطائرة (الحازيل) تصوب من بعد أكثر من
أربعة كيلو مترات على هدف - مفروض انه كمين للعدو -
لا يتعدى حجم بابه المتر المربع فتتسفه تماما ثم توالى
موجات الهجوم بحيث لا يحدث خطأ يؤدى الى أن تقذف
القوات المصرية بنيرانها على قوات مصرية توالى موجات
الهجوم واصرار عليه ومفاجآت المدفعية الثقيلة التى تهز
الجبل حتى ليرتجش وكأنه أصيب بحمى صاعقة ثم وفى ظل
ظروف جوية سيئة تماما وكأنما كانت تعمل لصالح العدو
تثبت طائرات الهليكوبتر نفسها حتى تسقط كل منها عشرين
مقاتلا من الصاعقة ينزلون بسلك الى الأرض حيث الأرض
لا تصلح حتى لهبوط الهليكوبتر رياح عاصفة شديدة بحيث
ان مطارات مصر المدنية أغلقت فى وجه الطائرات يومها
اما الصواعق فقد كانت من صنعنا نحن وفجأة أحسست
انى فى جو حرب حقيقية لأول مرة فى حياتى والجيش
المقاتل جيشى هذه المرة لقد اشتركت بمعركة واحدة فى
حرب التحرير الجزائرية ضد فرنسا وكان نصيبى خلعا فى
الركبة اليمنى لا يزال يؤلمنى الى الآن ، ولكن معركة بهذا
الحجم وباشتراك كل تلك القوات لم أجربها أبدا والغريب
فى الأمر انها حرب لا ترى المقاتلين فيها فلو أنهم من لـون
الطبيعة وأجهزة تنشينهم بالرادار والليزر ولكنك قطعاً ترى
ارادة الحرب والصدام واضحين من خلال مشهد حافل بدخان
دانات المدافع والدخان المخفى لتحركات المشاة ودخان النابالم
التي صنع بها العدو حاجزا من لهب يحد من تقدم المشاة حرب
بمعناها الحديث تماما ان العدو ليس هناك وانما نحن أيضا
الذين نضع العراقيل ونحاول صد الهجوم ، ولكنها بكل

المقاييس حرب ترتعش لها قلوبنا كما يرتعش لها الجبل
ونصفق بتلقائية لدى كل رمية تصيب ، وكل تحصين للمعدو
يسقط .

وصحيح ان المشير أبو غزالة قد قال في تصريح صحفى
له ان هذا بيان عسكرى فقط لا علاقة له أبدا بالوضع
السياسى الحاضر وليس له أى معنى آخر غير المعنى المباشر
وهو تحقيق مناورات عسكرية لرفع الكفاءة القتالية للقوات
المسلحة مناورات ذات مواعيد محددة سلفا ولا علاقة لها
بمجريات الأمور .

ولكنى أقول ان دوى المدفعية المصرية كان يخترق اذن
الأصم ويصل الى رقع ومعبرى الحدود ويسمعه كل ذى أذن
تسمع ولا يسمعه أولئك الذين لا يريدون أن يسمعوا .



انتهى البيان الذى بلغت الدقة فيه حد ان كل قائد
تشكيل يحين دوره فى وصف ما نراه كانت كلماته هى
بالضبط مؤقتة مع أداء التشكيل لا ثانية زيادة أو نقص وفى
العودة سعدت جدا بنبا اقبال المطارات فى سيناء وجميع
مطارات مصر اذ معنى هذا اننا لن نركب واپور الجاز مرة
أخرى وانما ستأخذنا السيارات عبر مسارات ملتوية طويلة
جدا حتى نصل أخيرا مبنى قيادة الجيش الثالث وكان المشير
أبو غزالة قد وصل اليه قبلنا وكان لقاء حافلا طويلا مع
المشير ناقشناه فى كل شئ ولم يتردد أمام أى سؤال وكان
بعضها محرجا وكنت سعيدا به تمام السعادة فاذا كان قد
حرص على اقامة صناعة عسكرية مصرية متطورة فها هو ذا
يرينا اليوم ما طلبته أثناء زيارتنا للمصانع الحربية من أن
يرينا هذه المدفعية المصرية الصنع والصواريخ صقر والذخيرة

المصرية والليزر والرادار فى حالة (فعل) وكانت هذه
الدعوة الفامضة للبيان العسكرى للجيش الثالث حيث نرى
مئات الشباب المصرى المقاتل يستعملون أسلحة مصرية وذخيرة
مصرية فى قتل العدو الغازى القادم من الشرق *

لقد كان يوما من أجمل أيام حياتى *

الرسالة وصلت وشكرا يا سيادة المشير *

الرقم القومى

من أشق الأمور على النفس أن يحس الانسان انه ظلم أو
انه مظلوم وأحيانا يجد المظلوم نفسه عاجزا عن أن يثبت
انه على حق وهذا ما حدث لى من تسوية مدة خدمتى بالحكومة
وبالصحافة فقد سقط ملف خدمتى كطبيب فى الادارة
الصحية لمدينة القاهرة مدة حوالى تسع سنوات بعد التخرج
الى أن استقلت من الحكومة والتحقت بجريدة الجمهورية
وحاولت المستحيل للعثور على ملف خدمتى فى أضاير وزارة
الصحة وفى الادارة الصحية للقاهرة تلك التى كانت تتبع
فى أيامنا وزارة الشئون البلدية والقروية أو حتى فى
وزارة الثقافة التى عملت فيها بعض الوقت منتدبا من
الشئون البلدية صحة مصر دون جدوى والحقيقة انى
أحسست بغيظ لا مثيل له فتلک السنوات بالذات هى أشقى
سنوات عمرى حيث كنت أستيقظ فى السادسة صباحا وأعود
بعد الخامسة كعضو لجنة التصاريح لفتح المحلات العامة أو
كقائم بأعمال حكيمباشى محافظة القاهرة لست سنوات
متتالية حيث كنت أعمل مفتش صحة لبولاق أحيانا وللدرب
الأحمر أساسا وأحيانا مصر الجديدة أو مصر القديمة ،
جبتها « كعابى » على قدمى كل حوارى ودروب القاهرة وحتى

مدافنها ثم تسقط هذه المدة من خدمتي كيف ، احسست
بنفس الاحساس الذى يرسله لى بعض القراء أحيانا
والذى قل فى الآونة الأخيرة تماما والاحساس بأنه ممكن أن
تضيع تلك اذا ضاع ملفك أو جزء منه وهكذا بعناد شخصى
مشروع آليت على نفسى أن أسترد حقى الضائع هذا مهما
كان الثمن ومع هذا عجزت تماما فالمطلوب هو ملف الخدمة
الموضحة به أقساط التأمينات والملف مفقود *

وحين استشرت الأستاذ سعيد ماهر مسئول التأمينات فى
مؤسسة الاهرام قال لى لم يعد أمامك الا أن تلجأ لوزير الشؤون
الاجتماعية وتطالب بحقوقك وأنا شخصيا أستحى من مقابلة
أى مسئول فى الدولة أو طلب شىء لنفسى ولكن كلما تذكرت
السنوات التسع من الشقاء والكدر وضياعها على لم أستطع
أن أمنع نفسى من الاتصال بمكتب الوزير وأخذ موعدا وأنا
يأس تقريبا اذا ذهبت فستقول لى حتما أين الملف ولا ملف
اذن لا فائدة وكانت أول مرة أرى فيها الدكتور أمال عثمان
عن قرب تلك الوزيرة التى تبدو غير اجتماعية بالمرّة التى
تبدو فى صورها صغيرة الحجم صامّة أبدا وبدأت أسرد
عليها مشكلتي ففوجئت بأنها ترد على بأنها لهذا أنشأت لأول
مرة فى مصر كومبيوتر مركزيا يرصد فيه كل فرد من
الشعب المصرى ابتداء من تاريخ مولده الى الوظائف التى
تقلدها الى يوم حلول خروجه على المعاش ، وكانت المفاجأة
الكبرى انهاء لموضوعى وأمثاله قد أصدرت قرارا بـ لجنة تشكل
لدراسة الحالات التى تشبه حالاتى وكتبت طلبا وضعت فيه
كل البيانات التى لدى ثم عدنا الى حديثنا عن الرقم القومى
لكل مواطن فى مصر وما عانت فى سبيل الحصول على حقه
من الضغط من وزارات أخرى كانت تريد أن تكون هى
صاحبه وانه تم رصد أكثر من ثلاثة عشر مليوناً مصرياً

ومصرية وسيتم رصد جميع المصريين فى عام ٩٩ ان شاء الله واصطحبتنى فى جولة داخل هذا المخ الجبار الذى له أكثر من أربعمئة فرع فى أنحاء مصر على اتصال به ويستطيع أن يغذيها بالمعلومات بالتليفون تطور هائل فما فى ذلك من شك اذن لم تعد هناك أضاير وملفات ترعى فيها الفيران أبدا كل شىء مسجل على اسطوانات الكمبيوتر وغير قابل للضياع أبدا يالها من نقلة حضارية رائعة لو كنت مثلى قد ضاع ملفك وذهبت الى مخازن الارشيف فى وزارة الصحة تلال وتلال من الأوراق والملفات مستحيل أن تعثر فيها ولو كنت الجن الأحمر نفسه على ملفك .

أما نحن اليوم فبضغطة زر تجد اسمك وكل المعلومات المهمة عنك .

سألتهاعنى لو ذكرت لك اسما أستطيع العثور عليه ؟

اذا كان مقيدا .

قلت : هل الرئيس محمد حسنى مبارك مقيد .

قالت : نعم .

قلت (فى سرى) بعد اذنك يا ريس هل يمكنى أن أراه فطلبت من مدير المركز أن يجد رقم ١٦ وفى توال سريع كانت صفحة الشاشة قد امتلأت بمعلومات ولكنى وقفت طويلا لدى الاسم اذ كان لا يبدو عليه انه اسم الرئيس فقد كان مكتوبا هكذا محمد حسنى عبد الرحيم مبارك .

قلت لها : أمتأكدة يا دكتورة ان هذا اسم الرئيس .

قالت : الرئيس نفسه استغرب منه .

شكرت الدكتورة آمال عثمان وعدت لمكتبى ومازلت فى انتظار قرار اللجنة ولكنى ذهبت مظلوما وخرجت سعيدا

مؤمنا أخيرا اننا قد استغنينا عن الاضابير والمخازن التي تملأ
البدرونات وتأكلها مياه الرشح .

المحافظ المثقف

فى ليلة شرقاوية حافلة كان لى لقاء رائع فى قصر ثقافة
الزقازيق ، الغريب انها كانت أول مرة يدعونى محافظ
للشرقية لتلك الليلة الثقافية والدعوة نفسها كانت فى
توقيت غريب اذ كنت أعتزم أن أوجه خطابا مفتوحا على
على الصفحة الى الدكتور محمود الشريف رئيس معهد الأورام
سابقا ومحافظ الشرقية الحالى وكان مضمون الخطاب هو
لومه على ترك مكانه الطبيعى كواحد من أعظم الجراحين
المصريين يرأس أهم وحدة جراحية فى علاج السرطان ولكنى
قبل أن أشرع فى كتابة الخطاب تلقيت مكالمة تليفونية منه
وفىها يطلب منى تحديد موعد لأمسية ثقافية تعقد فى قصر
الثقافة وفى نقاشنا صرحت له بنيتى فضحك وقال الحمد
لله : أنا قادم لتوى من غرفة العمليات بالمستشفى الأميرى اذ
أنا أزاول الجراحة يوما واحدا فى الاسبوع هو يوم الاحد ،
وبقية الأيام أقوم بعملى كمحافظ ثم انك يا فلان آخر من
يلومنى على هذا ألم تترك انت الطب للكتابة ؟

وفعلا كنت أتوقع نفس الاستنكار بل ليت العكس هو
الصحيح وأن تختار محافظينا من كبار رجال العلم والثقافة
القادرين على الادارة الواعية والادراك السياسى المستنير لقد
فشلت تجربة تعيين ضباط البوليس الذين أحيلوا للاستيداع
محافظين وها هو الدكتور محمود الشريف يحاول بكل ما
يملك من جهد أن يعالج أخطاء سلفه الذى ويا للغرابه عين
تأتى يوم الاستغناء عنه رئيس مجلس ادارة شركة الريان

لتوظيف الأموال وعندى صورتان له واحدة له وهو يوقع العقد كمحافظ مع شركة الريان على صفقة بصحراء بلبيس والثانية بعدها بيوم أو بيومين وهو يمثل شركة الريان ان هذا يجرنا الى حديث لا بد من البدء فيه الريان ، ان هذا يجرنا الى حديث لا بد معها من محاسبة المسؤولين المحافظين أو الوزراء أو رؤساء البنوك بعد اقالتهم أو استقالتهم اذ أن أحدا لم يحاسب ذلك المحافظ أبدا أو حتى يسأله ولا أحد سأل الوزير الذى لا يزال وزيرا وكان يعمل أو بالأصح يعمل مستشارا لشركات المرأة الحديدية .

ولكن هذا موضوع آخر أمل أن أتناوله قريبا ان شاء الله .

فى تلك الليلة أحسست بمزيج غريب من العواطف وأنا ألتقى مع الوجوه الشرقاوية الحلوة أحسست انى لأول مرة أتحدث من القلب الى القلب حديث الانسان الى أهله وعشيرته ان الشرقاوى نموذج للمصرى المنتمى الى محافظته دون تعصب انسان سمح طيب شهم يحسن الظن تماما بالآخرين ولهذا يطلقون عليه التشنيعات والنكات فهو انسان فيه براءة الصحراء التى تحد جانبه الشرقى وطيبة قلب الفلاح المصرى ، والشرقية هى الرحم الذى أنتج لمصر كثيرا من فنانيها وثوارها حيث تتفاعل المصرية فيه مع الشامية والسعودية وحيث يتعايش الاقباط والمسلمون فى سلام منذ مئات السنين وحيث تمتزج حضارة البحر الأبيض بحضارة الدلتا ، الفرعونى بالقبطى بالفن الإسلامى مما يجعلنى أستعمل تعبير عبقرية المكان على الشرقية باعتبارها لا بد أن تنسحب على عبقرية الانسان وتفانينه الموهلة فى الابداع .

كانت زيارة أرجعتنى لشبابى فى الزقازيق الثانوية لأول حب سحب فيه والد الفتاة وكان صعيديا حمشا البندقية .

فانسحبت فى سلام الى ناظر الثانوية المرعب الى ليلة جاء فيها يوسف بك وهبى ليمثل رواية ووقفت ساعات على باب الممثلين لأراه وأرى المرحوم محمود المليجى الى آلاف الذكريات كنت أتحدث أو كنت أعود أعيش أو كنت أتكلم حديث المرتاح الى أهل ينصتون .

ليس مهما ما كنت أحسه ولكن المهم اننى مع الدكتور محمود الشريف أتعنى أن تصبح الزقازيق واحدة من أهم العواصم الثقافية المصرية وشهادة لله لولا صلاح مرعى مدير الثقافة الجماهيرية فى الشرقية ذلك الذى بالكاد استطاع ان يحافظ على فرقة الشرقية للفنون الشعبية حتى لتطلبها البلاد الأوروبية بالاسم أتمنى أن يتحول قصر الثقافة فى عهده الجديد وبزعامة المحافظ الى معمل تخريج فنانين وفنانات لطرحهم على المستوى القومى والمحلى أيضا .

على بركة الله وبالتوفيق التام يا دكتور محمود الشريف .

أحفادك ياطه

لم يكن تجوالى طويلا ولا متعبا ، ولكنى كنت ألهث وقلبى
يخفق بفرحة ، نادرا ، نادرا ، ما تنتابنى ، شباب شباب ،
أولاد وبنات ، محجبات وسافرات ومنقيات ، أطفال ،
بالآلاف ، شيوخ ، أساتذة جامعة وأشباه حفاه ، عرب
بمقالات وخواجات ، ألوف البشر تموج ، تنوء تلتقى
وتتفرق وتعود الى اللقاء ، الجورغم الشتاء دافىء ، والعاصفة
الرملية الترايبية أخفاها جمال الازدحام ، أجمل ازدحام
قلا تدافع فيه ولا حدة ولا خناقة ولا كلمة غضب ، العالم
فقط هو صوت الضحكات ، والمجاميع من الطلاب ، والعائلات
.. كل هذا فى معرض ، يا الله ، للكتاب للثقافة ، لعيد
الكلمة ، قاهرته العزيزة ، الآن أحبك كما لا يمكن أن يكون
قد أحبك قيس لك ، يا حبيبتي العزيزة ، يا قاهرته وعاصمتي
وملجئى وانتمائى ومثوائى ، تعودى الى نفسك فتعودى
أيضا ، تعودى الى أنا كفرى حتى ..

هذا هو المعرض العشرون للكتاب ، فى لمعة خاطفة
لمعت فى ذاكرتى صورة أول معرض كما أقيم لأول مرة فى
أرض المعارض القديمة بالجزيرة فى يناير عام ٦٨ وافتتحه
رئيس الوزراء حينذاك ، أو افتتحه وزير لست أذكره ،

وكما رأيته ، فى اليوم التالى ، الناس مجموعات قليلة متناثرة فى أرض المعرض الصغيرة تماما بالقياس تماما بالقياس الى أرض المعرض الحالى ، مجموعات قليلة تبدو وكأنها تتجمع لتحتفى من برد خفى وقشعريرة الغربة ، اذ كانوا فعلا قد تجمعوا على غربة بعد هزيمة ٦٧ ، فى العالم التالى لها مباشرة ، ومظاهرات الطلبة ، وتمزق الصدر المصرى بآلام الذبحة العسكرية التى أخذته على خوانه ، بمجموعات المثقفين والمتعلمين القليلة ، التى قدمت وكأنما لتحىى الذكرى السنوية لعاصمة الفكر والابداع التى كانت ، مدهولين لا يعرفون العدو من الصديق ، مهزومين لا يعرفون من هزمهم أهى اسرائيل أم المناط بهم هزيمة اسرائيل ، جو كئيب كأيام أمشير ومحاولة للتشبث بالثقافة والكتاب بعدما ، تقريبا ، ضاع كل شىء ومعه أيضا الثقافة والكتاب .

ولكن ما أمامى الآن هو القاهرة القاهرة ، القاهرة التى رفعت الرأس المنكس ووقفت وانضبطت وحاربت وانتصرت وقاومت سرقة الانتصار القاهرة ٨٨ ، القاهرة فى معرض للقاهريين ، والقاهريون فى معرض لقاهرتهم الجديدة ، أخذوا عشرين عاما ليعيدوها ويصنعوها ولكنهم صنعوها ، وكأنما من جديد أنشأوها وكأنما بسواعدهم واقتصادهم المحدود والمقاطعة ، الاتهامات وسيول النسل المتزايد والازدحامات واختناقات وقفزات الاسعار المريبة ، أوقفوها ومن مريلة روضة الأطفال الممزقة ، علموها ، وألبسوها ، وفى العشرين ها هى فى فستان الزفاف .

أبيض أبيض ذلك اليوم ، عبوس الناس فى الشوارع الذى كان يدعونى أنا الآخر للعبوس والاكتئاب انقشع ، الناس فرحانة وكأنهم أطفال ، والأطفال مجانين بالمسرح وأمهاتهم معتزات انهن بصحبتهن الى معرض الكتاب ، وأجنحة

كتب الأطفال - والكمبيوتر ، ويرفع أب ابنه ذا السنوات الخمس ليصافحني ويقول لنا هذا فلان يا ولد وأفرح بالولد المعرض وفي فرحة طفولية أقبله وأعطيه كتابا وكأنما سيقراه، فعملة الحب اليوم هي الكتاب، سقط الدولار، والدينار والجنيه وساد الكتاب وبجنون زاد سعره ولكنه لا يزال مطلوبا ومرغوبا وجميلا جدا والله ، هذه الصفوف والأجنحة ودور النشر المتنافسة ، عمك الحاج مديولى بجلبابه واقف وسط مملكته أو بالأصح حديقته الحافلة بالفكر والفن والأغلفة من كل مكان فى العالم ، تحس ان اليوم يومه والعيد عيده ، وأتذكر قولا قديما قاله مرة فى برنامج تليفزيونى واستعجبت يومها للقول اذ قال وهو يفسر مهنة بيع الكتب ونشرها : الكتاب حب ، صدقت يا حاج ، فها أنا ذا أرى بعينى أن الحب أيضا كتب .

يا أستاذنا طه حسين الذى قلت فى أعوام عجاف ، أخشى أن تكون القاهرة قد فقدت دورها كعاصمة للثقافة ألا تحس فى مرقدك العظيم القريب بدبيب الآلاف والآلاف من القراء، والكتاب والمتعلمين والمثقفين وأبناء وبنات وأمهات الشعب الزاحقين الى معرض الكتاب من كل مكان من القاهرة وعمان والرياض وبغداد وجنيف وتونس والمغرب واليمن الامارات وعواصم أوروبا ، ألا تحس بجبال الكتب القادمة من كل أنحاء الدنيا قد ثبتت أرض معرضنا وأصبحت رواسى وأثقلا تجعلنى أجرو وأقول لك لقد عدنا يا طه حسين والعود أحمد ، لقد عدنا الى طه حسين وعاد الينا طه حسين ومئات معه ، أأست فرحا بأحفادك الكتاب الشبان وكتبهم تعرض وتترجم وتدرس وملامحهم ثابتة الوثوق أمام الكاميرات والميكروفونات وجماهير الندوات الماشدة عدنا وعادت

القاهرة ليست عاصمة فقط ، ولكن عادت عيدا للثقافة
والشعراء وللکلمة والرمز الذى يجمع أمة العرب ويستأمنونه
على كل أمجادهم ، على كل أبى علائهم كل متنبئهم ، على
قرطبهم وبنخاريهم وحتى على المقدس مصحفهم وأنا جيلهم ،
على كل ألوان فنونهم وكمبيوتراتهم وأدب أطفالهم ،
موسيقاهم ورقصهم ، مسرحهم ورباباتهم ، سبحان الله العلى
العظيم ، الازدهام الذى لا أطيعه فى شوارعنا أكاد أضمه
الى صدرى هنا ، أحس احساسا جسديا ان الكتابة مهمة جدا
وانها فى خير وان القراءة فى خير أكثر أحس بشباب وطالما
ظلمناهم واتهمناهم بقلة الاطلاع عارفين ومطلعين ومنتجين
حتى المذیعة الشابة التى نقلت الى الملايين وقارئ المعرض
أحس فيها بتليفزيوننا جديدا يتحدث لغة جديدة ليست
بباروكة ولا فستان سهرة وانما هى جيل جديد فصيح كنت
شفوفا أن أعرف اسمها وعرفته : راوية راشد زوجة كاتب
شاب موهوب اسمه - وتذكر يا أستاذنا اسمه محمد المنسى
قندیل كتب قصة عظيمة اسمها « بيع نفس بشرية » أحفادك
أحفادك يا طه ، مئات أحفادك ، امتداداتك عبد الحكيم قاسم
وجمال الفیطانى ومجید طوبيا وإبراهيم اصلان وصنع الله
إبراهيم ويوسف القعيد وعبد الفتاح رزق وصالح مرسى
وفريدة النقاش وصالح عيسى ومحمد روميث وبهاء طاهر
وسعيد الكفراوى ويوسف أبو رية واعتدال عثمان وعبدالله
الطوخى وإبراهيم أبو سنة ومحمد عفيفى مطر وسناء البيسى
وسناء فتح الله وشمس الدين والمخزنجى ومحمود الوردانى
ومحمد الجمل وسعيد سالم وإبراهيم عبد المجيد ومحمد السيد
محمد وسيد خجاب ويسرى الجندى وأحمد هاشم الشريف
ونادية عابد ومفيد فوزى وماجدة الجندى وزينب صادق
ونوال السعداوى ومحمود عبد الوهاب وسحر خليفة وأليفة

رفعت و منى حلمى وأحمد الشيخ وفهمى حسين أبو عوف
وقنديل ونهاد صليحة ووجدى حافظ وصالح إبراهيم ومأمون
غريب ومحمد سلماوى ومحمد عبد القدوس وعبد العزيز
حمودة ومحمد عنانى وسيزا قاسم ولطفة الزيات وجلال
السيد وبهجت عثمان وخيرى شلبى وجلال العشرى ومحمد
جلال وفتحية العسال واقبال بركة ورؤوف توفيق .

وكلمتى القصيرة تلك لو استطردت لما وسعت ربع
الكائن فى الحديقة الزاهرة كبرت الحديقة يا أستاذنا جدا
أشجار كافورها استطالت ووصلت عنان السماء ويسمينها
لا نظير له فرائحته مصرية عربية أصيلة وكأنما بذوره قد
اشتقت من عطور جدتى القديمة الزاعقة لقد زرت قبل
أسبوعين مصانع سلاحنا وخرجت وكتبت مبهورا واليوم وأنا
أرى أبداع قواتنا الكتابية يدق قلبى دقة عنيفة فرحة ليتوقف
بعدها ويقول فجأة ، والله والله لن نهزم أبدا والله والله
لن نموت أبدا ولن ندع الفساد والنصب الثقافى والعلمى
أبدا حتما سيتوقف وسيتوقف كل الهاربين والمتهربين والمهربين
الكذابين والأفاقين والعابثين الذين يعيشون فى الأرض فسادا
فاذا كنا نصنع السلام ونبدع مثل هذه الكلمة وغدا باذن
لا يدخل فمننا سوى خبزنا من أرضنا خبزنا الحلال من أرضنا
الحلال فسنسحق ولو كأطفال الضفة وغزة ، بالحجارة وبالكلمة
وبطبيتنا وبصدقنا ، أعدائنا وكل قنابلهم الذرية
والهيدروجينية وأكاذيبهم وادعاءاتهم وبطشهم الجبان
ووجودهم الرعديد .

تم مستريحا يا طه حسين فلقد ساهمت فى صنع كل هذا
حين أطلقتها وقلتها التعليم كالماء والهواء ، كان لابد أن
يأتى ذلك اليوم الذى يصبح فيه أحد تلاميذك قائلا ، أهمية

أن نتثقف ياناس ، وكان لابد أن يأتى اليوم العيد الذى
يمضى صائعا قائلا : والثقافة أيضا لابد أن تكون كالتعليم
كالماء كالهواء كالخبز ، حتى كالخبز المدعوم والخبز الآلى لابد
أن يدعم فخبزنا الثقافى عيبه انه أصبح غاليا تماما
يا أستاذنا ، والله يرحم أيامكم الحلوة حين كان الكتاب ككيلو
اللحم بخمسة قروش . .

هؤلاء الشبان ولحاهم السمحة

قال لى صديق : أتعب أن أترى شيئا جديدا فى مصر ،
قلت : ياريت قال : تعال معى ، وذهبت معه الى المعادى ، ولم
أسأله عما سيرينى فقد أحببت له أن يفاجئنى كما أحسست
من ابتسامته الغامضة ، ذهبنا الى المعادى ولففنا قليلا فى
شوارعها الجميلة وانتهينا الى محل يشبه المصنع أو مصنع
يشبه المحل ، وهبطنا من سيارة صديقى الفاخرة فهو رجل من
أصحاب الثروات الحلال ، ودخلنا المكان نظيفا وأنيقا بطريقة
غير عادية وكأنه حجرة عمليات معقمة ، وتطلعت فوجدت
وكان محتوياته معرضا للموبليات أو للتجارة الأجنبية
والبائعون لا يقفون عند المعروضات ولكن كل منهم أمامه
كمبيوتر ومقعد يجلس عليه الزبون ، ونحن لانزال واقفين
سألته ، ما هى الحكاية قال : عندي بنت ستتزوج عقبال
عندك وأحسست بخيبة الأمل قليلا فما الجديد فى بنت تتزوج
ويأتى أبوها الثرى لينتقى لها مطبخا أنيقا أو موبيليا فاخرة ،
حيا صديقى أحد الموظفين وكانت له حبة شابة سوداء
مهذبة تماما وعلى وجهه سيماء الأدب الجم والانضباط
والجدية فلم يسرف فى تحيتنا سلمنا عليه وجلسنا ثم تركنا
قليلا فانتهزت الفرصة وسألت صديقى ما هى الحكاية ، قال

هذا مصنع للموبيليات أقامه هؤلاء الشبان بأحدث الطرق العلمية وأنا قادم الآن لاختيار نوع المطبخ ، قلت له : اذن قم بنا نتفرج قال : سنتفرج دون ان نقوم ، وكان الموظف قد عاد بورقة فيها ارقام ضربها على حروف الكمبيوتر ، وانتظر قليلا وضرب حروفا أخرى ثم ادار الكمبيوتر ناحيتنا وبعد ثوان قليلة ظهر لنا مسقط رأسي وأفقى لمطبخ كامل على شاشة الكمبيوتر ، مطبخ كان له نظير خشبي حقيقي معروض أمامنا فقلت لصديقي : وما الداعي للكمبيوتر اذن : قال : لان المقاسات مختلفة والفتحات فى شقة ابنتى والاجهزة مختلفة وبدأت أهتم أكثر ، تأمل صديقى الرسم الالكترونى ثم قال : ان ابنتى تفضل وضع الثلاجة هنا وماكينة غسيل الأطباق تحت الحوض ، أوما الموظف الذى بدأت أدرك انه مهندس شاب برأسه ، ونقر على الكمبيوتر بضع مرات وانتظر وانتظرنا بعد ثوان كان الرسم الجديد قد هبط على الشاشة من أعلى الى أسفل ورأينا أمامنا المطبخ محورا كما طلب الصديق الذى ظل يتأمله طويلا ثم اكتشف شيئا قد نسيه فذكره للمهندس الشاب ، فأعاد المهندس العملية وبيضع نقرات وانتظار أقل ظهرت صورة المطبخ كما يريد الصديق تماما ، قال : هذا هو بالضبط ما نريده كم سيتكلف ، وبكلتا يديه راح المهندس يدق على زراير الكمبيوتر واذا بقائمة تظهر على الشاشة موضعا بها تفاصيل أسعار كل مكون من المكونات وفى النهاية مجموع التكاليف ، كان الرقم عاليا هذا صحيح ولكن المهندس شرح الموقف قائلا ان مصنعنا يعمل للتصدير الى سويسرا وغيرها من بلدان أوروبا فوقتنا كامل تماما وتلك هى تكاليفنا بالضبط وحاول صديقى كمادتنا أن يخفض فى الثمن أو يجعله كما يقولون بالانجليزية رقما دائريا أى يرفع كسور

الآلاف ولكن المهندس الشاب هز رأسه بكل أدب ورقة وجدية قائلاً : هذه هي أسعارنا لا نستطيع تخفيضها قرشاً واحداً ، وكان واضحاً لا فائدة فاستسلم صديقى وقال : ومتى التسليم ضرب المهندس الزراير وقال يوم كذا شهر كذا من الساعة الثانية الى الرابعة بعد الظهر .

ودعونا من القصة فما أكتبها فالمصنع فى الحقيقة يملكه مهندس شاب من المؤمنين بالتيار الاسلامى الجديد ، وكذلك كل العاملين لديه ، لهم ذقون وساعة صلاة العصر كان كل منهم يذهب ليصلى لينذهب بعده زميله وهكذا والمصنع مزود بأحدث التكنولوجيا فى صناعة الأثاث وكل حساباته الهندسية والمالية والزمنية يقوم بها الكمبيوتر وكما علمت فان آلات النجارة نفسها فيها كمبيوتر يقوم بكل العمل والشبان الذين يعملون فيه نشيطيين مؤدبين صامتين أغلب الوقت وكأنك فى مسجد وكان العمل عبادة وأدبهم وطريقتهم فى المعاملة تفوق الوصف وانضباطهم يفوق الحد وثقافتهم ودرائتهم واسعة ودقيقة تماماً .

وأحسست بفخر شديد .

أدركت لماذا كنت أغضب حين أقرأ وأرى وأسمع الجمعية الميكروفونية باسم الدين الحنيف . . أدركت لماذا كنت أعترض على أصحاب الآراء القائلة بضرورة العودة الى حياة البادية ونبت العلم والتكنولوجيا وربما اعتلاء الجمال وسيلة للمواصلات ، كنت أغضب لأنى أعرف ومتأكد ودارس ان الاسلام ليس هكذا أبداً ، وان ذلك الدين الذى دفع العلوم والكشوف مئات السنين الى الأمام لا يمكن أن يعطى ظهره للعلم وللتحضر وللتطور ، كنت أغضب لأنى أعلم ان

الاسلام ليس دين التعصب الاعمى المدجج بالسلاح والرصاص
القاتل لمن يتوهم انهم معرضوه أو مخالفوه وانما هو دين
الحجة والمنطق والعلم والموعظة الحسنة .

أحسست بفخر شديد .

هؤلاء الشبان مؤمنون مسلمون ذلك الاسلام المفرح
الهادف الى اتقان كل شيء من أول التصرف في الطريق الى
العمل الى العبادة ، الاسلام القائل : (ان الله يحب اذا عمل
أحدكم عملا أن يتقنه) بتفانيه يتقنه بالكمبيوتر يتقنه ،
باستيراد التكنولوجيا والعلوم تمهيدا لاتقانها وتأصيلها
حتى نستطيع بهذا أن نصدرها هذا هو الاسلام في أعظم
صوره . الاسلام في الكلمة العظيمة التي يتجاهلونها دائما
الدين المعاملة العمل عبادة : لا غلظة في القول ولا شدة
في المعاملة ولا استغناء عن رضا الناس بارضاء المولى
سبحانه وتعالى فارضاء الناس فيه ارضاء للمولى ، هذا هو
الاسلام ، لا خزعبلات فيه ، اسلام العلم والعمل والتقوى
اسلام الرجل والمرأة ، الجاد السمع المؤدب المذهب المنضبط ،
هذا هو الاسلام الذي يدفع المسلمين الى أمام والى تقدم
يجعلنا نتلفت ذات يوم لنطبق الحد فنجد كل الناس قد
صلحوا ولم يعد هناك آثم ينبغي أن يطبق عليه الحد أو
العقاب ، الاسلام الذي يرقى بالنفوس ويسمو بالروح
ويؤمن ايماننا قاطعا ان سلوك المسلم هو الذي يحاسب عليه
وهو الذي نراه منه وهو الذي يعاملنا به وليس هو ما يقوله
أو يجهر به أو يعذب به الناس في ميكرفونه وقد أمرهم
الله في كتابه أن يجعلوا الليل لباسا وراحة للعقل والبدن .
لم أكن أريد أن أغادر هذا المكان الجميل الذي لم أعرف
صاحبه ومديره من العامل فيه ولا الرئيس مع الرؤوس

فكل منصرف الى عمله يجد فيه ويتقنه بوازع من ضمير حي
وليس عن خوف من عقاب .

اللهم اذا كان التيار الاسلامى هكذا فأنا أول المنضمين
فاذا شئتم حزبا يبشر بهذا ويعمل به يخاطب العقل
فيما وينهر ما عن الغوغائية فخذوني معكم .

وودعت الناس والمكان وأنا أقول لنفسي سبحان الله ،
ما لهذا الدين العظيم يستحيل عند بعض الناس الى وسيلة
قهر وتعذيب واستعباد في حين انه في حقيقته وعند المسلمين
حقا وهو هكذا كما رأيت عنوانا للتحضر والرقى الأخلاقي
والعلمي والمهني والايمان العميق الذي لا يتباهى به أحد
على أحد ولا يكفر به أحد .

رب ارزقنا بكثير من أمثال هؤلاء الشبان الملتحين في
وقار العاملين في جدية العارفين ربهم عن ذكاء ووعي وحب
وايمان عميق .

أجادر في عينيك

أحب الطيران ، وأكرهه • فالطيران سفر ، وللسفر
خمسون فائدة ، ولكن السفر بالطائرات بالذات يعطيني
متسعا كبيرا من الوقت أستطيع أن أتأمل فيه أحوالنا وأحوال
نفسى ، فإذا زاد هذا المتسع كثيرا وطويلا وبدا الملل من قلة
الحركة وطول الزمن فإنه يصبح عبئا كبيرا على النفس ، وما
أكاد أسمع ذلك الجرس المخصوص الموجه لطاقم الطائرة
والذى يعنى الاستعداد للهبوط ، حتى أتنفس الصعداء •

والرحلة هذه المرة كانت طويلة جدا ، من الرياض فى
المملكة العربية السعودية الى المغرب مع توقف ست ساعات
فى القاهرة ، رحلة طويلة جدا رحت أستعيد فيها ما شاهدته
فى الجنادرية من طقوس للحياة القبلية القديمة الجميلة ،
ثم مناقشات الكتاب والمثقفين حول التراث • وها أنا على
الغداء أو العشاء أو فى الندوات كنت ألح رجلا وسيمًا
طويلا له مهابة خاصة ، وكنت أسأل عن يكون ، فقد
كان لا يبدو أنه واحد من كتاب العالم العربى ، فجميعهم ،
المعروفون ، اعرفهم وكذلك لا يبدو أستاذًا جامعيًا وفى
جلسة ما سألت جارى فى الجلوس الصديق والشاعر عبد الله

الشيئى أحد قلائل الظرفاء الموجودين فى العالم العربى ..
وما أمتع أن يجلس الانسان معه ويكون ثالثنا محمود
السعدنى ، تصبح الجلسة تفجرات من الضحكات ، ولأننا قليلا
ما نضحك هذه الأيام ، لست أدرى لم ، فساعة مع محمود
السعدنى وعبد الله الشيئى نعمة من نعم الله فى هذا الطقس
العربى المتزمت .

سألت الشيئى عن ذلك الرجل فقال لى : الا تعرفه ؟
أنه وزير الثقافة المغربى .. وقدما لبعضنا البعض بعد
الندوة وكانت لى مع هذا الرجل قصة غريبة ، ولكن قبل ان
نتهى من الجنادرية أحب أن أوضح للقراء لماذا أقطع أعمالى
وأصر على الذهاب الى مهرجان وندوة ثقافية ، تعقد فى
الجنادرية (هذه هى السنة الرابعة) ويكون موضوعها
الموروث الشعبى والابداع الفكرى والفنى ، ذلك أننى
أعتبر ان مناقشة هذه الموضوعات فى المملكة السعودية
مسألة خطيرة جدا ، فالمملكة فى الآونة الأخيرة - خاصة بعد
أحداث الحرم - بدأت تدرك أن الجمود الفكرى هو الأرض
الخصبة لنمو التعصب والتعنت وضيق الأفق ولهذا بدأت
الدولة (تتقدم) المراكز الفكرية والأدبية السائدة فى
المملكة . وبدأت تدعو مثقفين من اتجاهات كثيرة وتضعهم
وجها لوجه أمام الثقافة التراثية السائدة ، وهذه خطوة
عظيمة لا شك ، لأن زحزحة الجسد الرجعى الجاثم على قلب
الثقافة السعودية هى زحزحة أيضا لنفس هذه الاتجاهات
السائدة فى مصر وفى كل أنحاء الوطن العربى ، ذلك أن
السعودية لها وضع دينى وروحى خاص بالأمة العربية ،
ويصر الكثيرون على خلط المفاهيم الإسلامية بالمفاهيم
الثقافية والفكرية ، فتكون النتيجة الجمود التام - بمعنى

توقف أو توقيف عقل المجتمع عن أن يعمل ويفكر ويتقدم ،
وزمان قال العقاد : أنا أفكر فأنا مسلم ، وللأسف انتهينا هذه
الأيام الى من يقولون أنا لا أفكر ، اذن فأنا مسلم حقيقى ،
ولقد سألنى كاتب سعودى ذو لحية بيضاء جليلة : لماذا
تنفقون الوقت والجهد فى مناقشة هذه الخيالات (يقصد
السير الشعبية من سيف بن ذى يزن الى عنتره وآل ليلة
والزير سالم) انها خيالات ، مجرد خيالات ، لماذا تضيعون
وقتكم فى مناقشتها ؟ قلت له : اذن ماذا تريد منا أن نناقش ؟
قال : الحقائق التى حدثت فى التاريخ مثل الخلفاء الراشدين
ومعاوية وغيرهم من أبطال الاسلام . قلت له : أتعنى أن
الاسلام الحقيقى ضد الخيال ؟ انك بهذا يا رجل تسلب
الانسان - سواء كان مسلما أو غير مسلم - أعظم موهبة
منحها الله له ، وهى القدرة على التخيل وتجسيد هذا الخيال
فى أعمال فنية ، ان الحيوان لا خيال له ، انه لا يرى الا ما
أمامه فقط وهو لا يستطيع أن يتخيل أبدا شيئا غير ما يراه
رأى العين . أما المخ البشرى ففيه مراكز هائلة للتخيل ، نعمة
من الله ، لولاها لأصبحنا سائمة أو كالسائمة .

وسؤال ذلك الكاتب السعودى لم يأت مع فراغ ، فهناك
مدرسة بأكملها فى العالم العربى وفى السعودية على رأسها
الأستاذ عبد الله بن ادريس رهيبة السطوة على النفوس
واشتراكها فى تلك الندوات انما يهدف الى تغليب الجانب
القائل بالتمسك التام بالموروث وبكل ما صنعه الآباء
والأجداد ، وعدم التحرر منه لشعرة ، والا فقدنا لفتنا
العربية وفقدنا بالتالى اسلامنا وكأننا اذا أعطينا انساننا
الحديث أو مثقفا حرية الحركة ، وأبحنا له أن يخرج على
تعاليم الآباء والأجداد والموروث فانه حتما سيضل
وسيضيع ، معاذ الله .

الى هذا الحد يبلغ عدم ثقتنا بأنفسنا فنحن مثل الأجداد بشر ، وقد كانوا بشرا ، وعاشوا حياتهم وتصرفوا فيها (وكانوا أعلم بشئون دنياهم) ، وأصبحت حياتهم وتصرفاتهم (تراثا) ، هذا صحيح ، ولكننا أيضا لنا حقنا فى أن نعيش مثلهم ونتصرف حسبما تمليه علينا ظروف حياتنا الراهنة (ونحن أعلم بشئون دنيانا) بحيث تصبح حياتنا وتصرفاتنا تراثا أيضا للأجيال القادمة التى لا بد لها هى الأخرى أن تحيا حياتها وتتصرف تصرفاتها .

ولكنهم يردون عليك ويقولون هذا خروج ومروق سينتهى بك الى أن تترك الدين هذه قضية لم أفهمها أبدا ، أعتقد اننى لن أفهمها ، هل التمسك بالدين يعنى أن تحيا مثلما كان يحيا الناس أيام معاوية وأيام العباس مثلا ، والا خرجنا على الدين ما علاقة الدين وهو ايمان كامن فى النفس وفى القلب لا يتزحزح . . ما علاقة هذا بأن أركب سيارة بدلا من الجمل ، أو أن آكل هامبرجر من لحم البقر بدلا من الخروف (والفتة) .

. . المهم لى عامان وأنا أحضر ذلك المهرجان والمعركة لا تزال محتدمة بين أنصار الجمود وأنصار التقدم ، يا الهى . . ان المشوار أمامنا طويل !

كان ذلك الرجل الذى لفت انتباهى هو وزير الثقافة المغربى ، وهو مثل زميلى فاروق حسنى عندنا ، نموذج فاخر للمثقف المتعدد الاهتمامات والقدرات . . هذا الرجل كان هو وصديق عمره (الذى أصبح وكيلا لوزارة الثقافة المغربية) يعملان فى الأمم المتحدة فى نيويورك لمدة عشرين عاما متوالية ، وفجأة قررا أن يتركا العمل فى أمريكا

ويعودا معا الى بلدهما المغرب ، بل ليس حتى الى المغرب ،
وانما الى مسقط رأسيهما فى قرية (اسيلة) وهى قرية
صغيرة على المحيط الأطلنطى ، قرية فقيرة يعمل معظم
سكانها بالصيد ، وكأى قرية صغيرة فى العالم الثالث لم يكن
بها ماء نقى أو كهرباء أو تليفونات أو أى شىء .. هذا
الرجل « محمد بن عيسى » قرر أن يحيل القرية الى جنة من
جنات الله بعد عودته من أمريكا قرار رجل واحد أو رجلين
لو أن كل مثقف فى العالم العربى قرر أن يفعل مثلهما
لأصبح العالم العربى جنة ، وبدأ بالاستعانة بنفر من
زملائهما من الفنانين ، بجمع نقود قليلة تمكنا بها من طلاء
القرية باللون الأبيض الجميل ، وبهذا الطلاء فقط تحول
موقف أهل القرية من هؤلاء المثقفين الأفندية الغرباء ..
وبدأوا يسمحون لأولادهم سواء أكانوا تلامذة أم غير
تلامذة أن يعملوا معهم بالاستعانة بهؤلاء الأولاد بدأ الأفندية
ينظفون شوارع القرية ثم بواسطة بعض التبرعات يحفرون
بئرا للماء ، ويدخلون « موتور » كهرباء ، فيضيئون القرية
ثم بدأ الفن استقدموا أصدقاءهم الفنانين من الدار البيضاء
مراكش وعهدوا الى كل منهم برسم حوائط القرية بل
حتى برسم شوارعها بعد سفلتتها ، ولكى يتموا هذا العمل
الكبير كان عليهم أن يرشحوا أنفسهم للمجلس البلدى
للقرية (تعداد القرية اثنان وعشرون ألفا) ونجحنا فى
الانتخابات بعد كفاح رهيب طبعاً ، فتراث القرية المعتادون
على تولى مناصب المجلس البلدى بحكم النفوذ أبوا أن يفسحوا
المجال لهؤلاء الغزاة الجدد المسلحين بالفن والفكر والرغبة
الشديدة فى التغيير ، وحين تمت لهما السيطرة على المجلس
البلدى ، استعانا بقوة المجلس وأمواله فى أحداث هذا

التغيير ، وفعلًا ، وبعد أقل من عامين كانت (أصيلة) قد أصبحت جنة ، أو متحفا حيا للجمال يضم الزرع الأخضر واللوحات على الجدران وعلى الأرض ، وهنا بدأت الحكومة المركزية تفتن الى هذا الحدث وتحاول الاستيلاء عليه وتحويل (أصيلة) الى قرية سياحية ، وهنا وقف محمد بن عيسى وصديقه ، أو بالأصح نأما بالطول عند مدخل القرية وأبيا أن يدخلها سائح واحد - قال لي محمد بن عيسى : كنا لا نريد أن نحول أنفسنا وأهل القرية الى قروء فى حديقة حيوان يتفرج عليها السياح كنا نريد أصيلة لنفسها ولأنفسنا ، وقلنا على جثتنا اذا مر سائح واحد •

وفعلًا لم يمر سائح واحد ووصلت المعركة الى الملك الحسن الثانى فاستقدم هؤلاء الفتية وكان ان عهد الى محمد ابن عيسى بوزارة الثقافة •

والذى حدث ان محمد بن عيسى طور الفكر وتفتح ذهنه عن اقامة مهرجان أصيلة للفنون والآداب كل عام ، وأقيم المهرجان وأصبحت حديث أوروبا وأمريكا انتقلت من قرية صيادين فى العالم الثالث الى لوحة عالمية يرنو اليها أى أوروبى أو غير أوروبى ، يرغب أن يراها رأى العين •

أرأيت ما أقصده •• ان مجهود فرد واحد أو فردين مخلصين ممكن أن يحولا قرانا الموحشة الى جنات •• فقط أين الارادة •

أكتب هذا وأنا فى طريقى الى أجادير أو أغادير ، تلك المدينة البطلة التى وقفت فى وجه الاستعمار، مثل بورسعيد، موقفا بطوليا عظيما ، ثم بعد زوال الاستعمار الأسباني

والفرنسي ، أصبحت مدينة سياحية عالمية ، وحيث أنهيت
أعمال مشاركتي مع المجلس القومي للثقافة في المغرب في
اللجنة التحضيرية للمهرجان القومي الثقافي العربي الذي
سيُعقد في أغادير في أكتوبر القادم باذن الله هانذا في
طريقي لمشاهدة معالم المدينة وقضاء اجازة يومين قبل
العودة للقاهرة لكي أشهد أعظم حدث روحي ، حلول رمضان
المعظم في القاهرة المعز *

رسالة من الجنادرية

لا أعتقد ان الانسان منا يتحكم فى حياته تماما .. وفى الاسبوع الماضى فتحت موضوعا مهما - كان له صدىه الغريب لدى القراء - وكان مفروضا فى مفكرتى لهذا الاسبوع ان أتابع الموضوع وأخبر القارئ بآخر ما توصلت اليه حياه ، ولكن الأقدار كانت تخبىء لى شيئا آخر ، اذ كان الميعاد ان قد حلا معا فى وقت متقارب جدا وكنت قد كتبت ووافقت منذ بضعة أشهر على حضور مهرجان الجنادرية الذى يعقد فى الرياض وعلى الاشتراك فى التحضير للمؤتمر الثقافى القومى الذى يعقد فى المغرب فى أكتوبر القادم ان شاء الله ، وبدأت التليفونات والاتصالات والتذاكر المعدة سلفا وكان لابد أن أسافر وفعلنا قررت حضور الجنادرية أولا ثم الطيران رأسا الى المغرب لحضور الاجتماع ولكن طوّل الوقت كنت مشغولا بقضية الطالب محمد حامد الحماسى ومشكلة فصله من معهد الفنادق فى بور سعيد اثر محاولته تعليق صور للانتفاضة الفلسطينية وها آنذا من الرياض أتابع الاتصال بمكتبى فى الاهرام وعلمت ان الدكتور فتحى سرور قد اتصل بى ووعد بالتحقيق السريع فى القضية ، ثم جاءتنى مكالمة من اللواء زكى بدر وزير الداخلية ولأن

الاتصال لم يحدث والمتصل كان مدير مكتبه فلم أعرف بالضبط ماهية الرسالة كل ما أعرفه ان لدى عودتي القريبة ان شاء الله سأتابع القضية معهما ، لا لكى اطمئن على مصير الطالب محمد حامد الحماسى فقط ولكن لكى نشارك جميعا فى وضع بروتوكول للنشاط السياسى المشروع الذى لا بد أن يقوم به الطلبة والشباب ، فالعقل الحاكم الحديث يعتبر أن المظاهرات السياسية والمؤتمرات المنظمة وكافة الأنشطة النقابية والشعبية هى مصدر من مصادر القوة لديه وأمامنا المثل فى اسرائيل تلك التى تلعب هذا الدور بمهارة شديدة فهى تترك فيضان مظاهرات (السلام الآن) تهتف ضد الاحتلال الاسرائيلى للضفة ولغزة فى نفس الوقت الذى تفتح فيه القنابل والرشاشات على الشباب والفتيات العرب المتظاهرين وسماح الحكومة الاسرائيلية لمظاهرات ونشاطات جماعات (السلام الآن) هو خير دعاية - من ناحية أخرى - لديمقراطية الحكومة الاسرائيلية تجاه مواطنيها الاسرائيليين فقط لكى تخفى بهذه الديمقراطية الفاشية التى تعامل بها المواطنين الفلسطينيين العرب .

اذن الى الأسابيع القادمة ان شاء الله لكى نناقش هذا الموضوع بعمق أكثر وبفاعلية أرجو أن تكون أكثر بحيث تؤدي الى اتفاق على أسلوب لمعاملة النشاطات الشعبية التى قد يبدو بعضها مخالفا لما تقوله الحكومة . ولكنه - وهذا هو الغريب - يتفق تماما مع التصريحات التى يدلى بها الرئيس حسنى مبارك .

والآن أنا أكتب لكم هذه الكلمة وأنا فى مهرجان الجنادرية وهى منطقة صحراوية تبعد عن الرياض بحوالى

خمسين كيلو مترا وهو مهرجان سنوى يقيمه (الحرس الوطنى السعودى) للثقافة والفنون الشعبية وقد يبدو الأمر محيرا قليلا اذ أن الحرس الوطنى نوع من الميليشيا العسكرية المكونة من أبناء جميع القبائل فى المملكة العربية السعودية وذلك حتى (يحرس) وحده شبه الجزيرة العربية - ان مسألة البترول والنقود السعودية الكثيرة والعلاقات المتحسنة قليلا السيئة فى معظم الأحيان قد منعنا عن دراسة ما حدث ويعتد فى الجزيرة العربية منذ الثلاثينات والى الآن فى حين ان السعودية واحدة من أهم البلاد العربية بل أهم بلاد العالم كله وعلاقتها بمصر علاقة أزلية مصيرية ، كان الملك عبد العزيز ووالده الملك السابق منفيين فى الكويت بعد صراع حول الحكم ثم قرر الملك عبد العزيز أن يعود ويفتح الرياض وفعل هذا بسبعة عشر مقاتلا لا غير ، ولأن الرجل كانت له رؤية تاريخية بعيدة فقد أخذ على عاتقه مهمة القضاء على الوضع القبلى فى الجزيرة العربية والذى كانت تتحكم فيه قبائل وسلاطين ومحل حروب مستمرة حول المراعى ، أنشأ الملك عبد العزيز جيشا وحارب زعماء القبائل بلا هوادة وبالقوة مرة والزواج مرة وبالسلاسة مرة استطاع أن يوحد شبه الجزيرة العربية التى تصل مساحتها الى ثلاثة أضعاف مساحة فرنسا وأخيرا تم له فى النهاية الانتصار وأصبحت شبه الجزيرة العربية مملكة واحدة وأنجب الملك عبد العزيز أربعين ولدا كان أكبرهم الملك سعود الذى تولى الحكم من بعده ثم فيصل الذى استشهد فى حادث غامض ثم الملك خالد الذى توفى وتولى بعده الملك فهد .

ولا بد أن بلاد نبينا العربى محظوظة حقا فمناها خرجت رسالة الاسلام تعيد الايمان الى قلوب كفرت وتمنح الحق

للمؤمنين أصحاب الديانات السماوية الأخرى أن يحيوا في
سلام تحت ظل الدولة الإسلامية الكبرى التي فتحها العرب
وامتدت من الأندلس الى ازبكستان الى الهند والصين
وأفريقيا .

أقول محظوظة لأن البترول بدأ يظهر في السعودية في
أوائل الثلاثينيات ولو لم يكن الملك عبد العزيز قد (وحد)
شبه الجزيرة كلها في دولة واحدة لو لم يكن هذا قد حدث
وظهر البترول في عهد الانقسامات والقبائل لكانت المملكة
العربية السعودية اليوم عشرات من الامارات الصغيرة المتنافرة
المتنازعة فاكتشاف البترول اذن بعد قيام الدولة جعل العائد
لا يضيع في منازعات وحروب صغيرة انما تسلمته الدولة
السعودية الجديدة وأصبح لها شأنها الكبير الآن .

بقيت مسألة الحرس الوطني والثقافة فالحرس الوطني
أنشئ من كل أبناء القبائل ليحافظ على (الأمن) الداخلي
وهو جهة مستقلة تماما لا علاقة لها بالجيش الذي يحافظ على
الأمن الخارجي ولا بوزارة الداخلية التي تقوم بأعمال أي
وزارة داخلية في أي بلد آخر .

اما أن يتبنى الحرس الوطني الثقافة ورعايتها في
المملكة ولأنها بدت لي غريبة أن يقوم تنظيم عسكري بالاشراف
على الثقافة فان الشيخ عبد العزيز التويجري مساعد رئيس
الحرس الوطني الأمير عبد الله بن عبد العزيز ولي العهد
ونائب رئيس الوزراء اذ الملك فهد هو رئيس الوزراء
ذكر لي الشيخ عبد العزيز ان مهمة الحرس الوطني أكبر من
مجرد المحافظة على الأمن فهو المسئول عن المحافظة على التراث
العربي في شبه الجزيرة وعلى ربط الحاضر بالماضي باستمرار

بعيـث لا ينشأ جيل مترف تماماً من السعوديين لا يعرفون شيئاً من واقعهم فى الماضى القريب ولهذا جاءت فكرة اقامة مهرجان الجنادرية والمهرجان يرأسه الأمير عبدالله الذى يحب الموسيقى وله صلات كثيرة بمعظم الموسيقيين فى العالم العربى فى الحقيقة أن يوم أمس يوم الافتتاح كان حدثاً فعلاً ، فان تتبنى المملكة العربية السعودية فكرة اقامة مهرجان عن العلاقة بين الموروث الشعبى والابداع الفنى والفكرى شئ يكاد يصل الى المعجزة فكلمة شعبى نفسها كانت لا تذكر قبلاً فى المملكة وان تعترف المملكة (بالابداع) الفنى والفكرى شئ خطير يكاد يكون انقلاباً فى التفكير ، وأن يدعى الى حضور هذا المهرجان والاشتراك فى الندوات والمناقشات كتاب من أمثالنا وشعراء ، كانوا موضوعين فى القائمة السوداء ومحظوراً عليهم دخول المملكة فهو علامة أن المملكة تتطور بخطوات واسعة الى الامام ليس فقط فى الانشاءات الخرافية والطرق ووسائل الاتصالات والمواصلات وانما أيضاً فى (التفكير) مع الحفاظ على التقاليد العربية الراسخة وكنت جالساً لمشاهدة المهرجان قريباً من جلسة خادم الحرمين وولى العهد الأمير عبد الله وكان مذهلاً تماماً أن أرى الأمير بدر واقفاً بغير عباءة رهن إشارة الملك وولى العهد مع انه أخوهما بل فى حفل العشاء الذى تلا هذا المهرجان الشعبى ظل الأمير جالساً خلف أخيه الملك مباشرة دون أن يسمح لنفسه أن يشارك فى تناول العشاء ، الحقيقة أعجبتنى هذه الطريقة العظيمة فى الولاء بين أطراف العائلة الواحدة بل حتى حين عزمنا الشيخ عبدالعزيز التويجى وهو فوق انه نائب رئيس الحرس الوطنى أرى انه من أنبغ المواهب التى أنجبتها صحراء نجد على طول تاريخها فهو بدوى مع قمة رأسه الى

أخصص قدمه وهو يكتب على السليقة ، يجلس هائما هكذا
ثم يملأ وقد قرأت كتاب (رسائل ولدى) وكذلك كتابه
الآخر والمهم تماما (رسائل الى المتنبي) ولأول مرة كان
كاتباً يأخذنى من يدى ليطلعنى على خفايا ودهاليز
وعبقرية المتنبي وهى ليست فقط رسائل للمتنبي ولكنها
عملية حوار عظيمة بين بدوى كاتب وبدوى شاعر تكاد
تتلمس فيها كيف تنطق صحراء نجد حكمة وتفانين وصورا
شعرية أخاذة وفلسفة كليهما الابى المتواضع أشد ما يكون
تواضعا اعتزازا بالذات وبما تنطوى عليه من مزايا ومن
خير ..

أما كتاب عبد العزيز التويجى الأخير عن (حاطب ليل
شجر) ذلك الذى كتب مقدمته الدكتور زكى نجيب محمود
فهو فى رأى تمثل قانتا أضجره العيش الرضى وبات يحن
الى الحياة الصحراوية فى بدايتها الأولى والغريب ان هذا
الحنين من القوة بحيث ان كل الصور الشعبية والفلسفية
الواردة فيه مأخوذة عن حياة البادية وطقوسها وراعيها
وحتى شياها .

حين عزمنا الشيخ عبد العزيز على العشاء فوجئت ان
الذى يخدم علينا هم أبناءه ان الانسان منا فى مصر يكاد
يقبل يد ابنه ليحضر مجرد حفل عشاء يقيمه لأصدقاء فما
بالك وهؤلاء لا يحضرون فقط بل زيادة فى الاعزاز والتكريم
يتولون هم وليس أحدا غيرهم ، مهمة القيام على راحة
الضيوف مع أن أكبر أبناء الشيخ هو الشيخ عبد المحسن
التويجى رئيس ديوان ولي العهد بنفسه يحضر لك الماء
ويعزم عليك ويعتنى بكل ضيف عناية خاصة .

فى المهرجان أخذنى الأمير بدر من ىدى وتوجهنا معا الى
حيث الملك فهد وولى العهد وباعزاز صافحنى خادم الحرمين
وولى العهد وكنت أتصوره سلاما مجرد سلام لكن الملك قال
لى : نحن معتزون وممتنون للرئيس حسنى مبارك على
تصريحاته بمناسبة تهديدات شامير .

تهديدات شامير بضرب قواعد الصواريخ فى المملكة ،
ان هذا الموقف ليس جديدا على وعلى الرئيس حسنى مبارك
فقد تعودنا منه الشهامة والرجولة حين يجد الجد .

قلت له : حبذا أن نسمع هذه الاشادة فى القاهرة .
قال : أنا قادم الى القاهرة ان شاء الله بعد العيد
مباشرة .

قلت : مرحبا بك فالشوق مزدوج وكبير أترككم الآن اذ
أنا فى الطريق الى قاعة المناقشات فى الجنادرية لمناقشة
موضوع هام تماما هو التراث الشعبى وعلاقته بالقضية
العربية الحديثة .

أترككم ومعى وفد مصرى كبير يناهز الأربعين كاتبيا
وشاعرا وناقدا ودارسا ، أكبر وفد اذ حجمه حجم كل الوفود
العربية والأجنبية المجتمعين .

وكل الوفد محل حفاوة الداعين ورعايتهم وبالذات
الدكتور أحمد هيكى وزير الثقافة السابق والدكتور
عبد الحميد يونس أستاذ الأدب الشعبى والدكتور عبد القادر
القط والشاعر فاروق شوشة والناقد رجاء النقاش والروائى

الشاب صنع الله ابراهيم ومعنا أيضا الشاعر محمد الفيتوري
والقاص السوري زكريا تامر والروائي السوداني الكبير
الطيب صالح ووزير الثقافة المغربي والكاتب د. عبدالكريم
غلاب عدد لا يحصى من المبدعين والنقاد العرب .

في ألمانيا

كنا ديكور عدالة وكان علينا
أن نخاطب أدمغة محصنة ضد أي نفاق

كانت الأقدار لي بالمرصاد ، فقبل زيارتي لليابان ،
زرت ألمانيا الغربية ، بدعوة غريبة في أسبابها وظروفها ،
وجعلتني ظروف زيارتي لهذين الشعبين الخطيرين أومح
باعتماد راسخ ، ان محور « ألمانيا - اليابان » الذي حدث
في الحرب العالمية الثانية لم يتم صدفة أبدا .

أبدا ليس صدفة .

ولم يتحالف الجرماني مع الأتزام ضد الانجلو ساكسون
والسلوفاك عبثا .

بل الحقيقة تكاد تتضح لعيني الآن ، انه تحالف المتطرفين
ضد أوروبا السوية ، وكان طبيعيا جدا وقد قفزت الى قمة
الوجود شخصية متطرفة أخرى ، أميركية هذه المرة ، أن يحدث
هذا التلاقى بين الثلاثة ويصبح محور « أميركا - ألمانيا -
اليابان » أعتى معاقل الرأسمالية في كل تاريخها ، على
استعداد لمواجهة العالم كله .

ولقد استعملت التطرف هنا بهدف التخفيف ، فالواقع
انه ليس تطرفا ، فلقد ذكرت ان هذه الأنواع البشرية

موجودة فى حالة كونهم أصحاء عقليا ، اذا تكاثفت الظروف واحتدت وبدأت الشخصية تمرض مرضها المقابل المحدد ، فالشيزودية تصاب بالشيزوفرنيا أو مرض انفصام الشخصية ، والبارانودية تصاب بجنون الفكرة النابتة وهكذا .

وبكل المقاييس العلمية اذا طبقناها فلا يمكن اعتبار الشخصية الشيزودية اليابانية والقهرية الألمانية شخصيات عادية ، لقد تأمرت ظروف كل منهما الخاصة لتدفع بمؤثر التوازن كثيرا أو قليلا تجاه المرض ، هناك شعوب أخرى تنضوى تحت بند الشخصية القهرية ، وكذلك الشيزودية ، ولكنها أبدا لا يمكن أن يبلغ بها الأمر هذا الحد غير العادى الذى وصلت اليه اليابان .

ظروف العزلة فى اليابان ، والاحساس انهم الأقل قامة وشكلا وحضارة من آسيا والصين ، ظروف ألمانيا التى مكنتها شخصيتها من أن تتفوق دائما وتحاول التسيد على القارة أو العالم ، بحيث يتكفل الجميع ، أكثر من مرة ، ضدها . . بهذه الظروف كلها لم تعد الشخصية اليابانية مجرد شخصية شيزودية ، ولا الألمانية مجرد نمط قهرى ، لقد نما الازدواج فى اليابانية حتى بلغ مرحلة الاحساس الخطير بمركب النقص الذى يكاد يدفعها الى الانتحار عملا وقوة طلبا للتفوق ، وبلغ مرحلة الاحساس الخطير بمركب الكمال فى ألمانيا النازية الى حد الايمان الأعمى بالنفس ، والكفر الأعمى بالآخرين ، الى مرحلة المرض ، والغريب انه ، وكلاهما على طرفى نقيض ، هذا يريد الانتحار تفوقا أو التفوق انتحارا وهذا يريد الانتحار كمالا يلتقيان لقاء مروعا مخيفا ، لقاء المرض بالنقص مع المرض بالكمال ، لقاء الحسامية بالسيادة

على الدنيا فعلا بأولئك المتطلعين الى هذا الاحساس المعانين
من مركب النقص .

لقاء دائما تترتب عليه أوخم العواقب ، حتى الهزيمة
العسكرية الساحقة لا تكفى لكسر المحرك المخيف المريض الذى
يلهب كيان الشخصية كلها فتكاد تصوم عن الحياة ، وتعمى
عن أى مما فيها الا عن هدف اثبات التفوق أو فرضه فرضا ،
تهزم الدنيا عسكرية وتنزع من أياديهم المريضة لعبة السلاح
التي كلفت عالمنا ٤٠ مليونا من الضحايا ، فيوافقون وهم
يخفون الابتسامة فى الأكمام . . فاذا كنا انهزمنا فى مباراة
القوة فتعالوا لتلبس قوتنا ثوب التمدين وتتبارز رأسماليا
وصناعيا ، وينهار المتسابقون واحدا اثر الآخر ، ولا يبقى
فى الساحة الا ذوو الدوافع غير البشرية ، غير السوية ، غير
العاقلة ، للتفوق والانتاج ، أميركا وألمانيا واليابان بل حتى
ليبدأ التسابق المخيف الآخر بين المرضى أنفسهم ، تسابق
أنانى شرير هدفه انفراد الواحد منهم بسيادة البشرية جمعاء ،
ومع هذا ، ولأن هناك معسكرا اشتراكيا آخر ، بنظام آخر ،
فالرغبة فى الانفراد لا تمنع تكاتف الجميع ، والرأسمال
اليابانى نافذ على الالمانى ، والاثنان كتلة واحدة مع
الاميركى ، السمة الرأسمالية واحدة ، ولكن الضحية هى
شعوب هذه البلاد . . التي يصرعها ويجردها من انسانيتها
وينمى فيها الاثرة والأنانية والعداء للآخرين ، هذه الآلة
الرأسمالية الجهنمية وهى تعمل وبمعدل مخيف . .

وبالعلم والعلماء قد اشتروهم تماما يسخرون لهم كل
حقائق العلم الانسانى ، كل آفاقه ، كل انتصار على قوى
الطبيعة ، يسخرون لهم هذا كله ليغذى هذا الجوع المرض

الشهوانى لامتلاك العالم فى قبضة يد وتحت تصرف ضفطة
اصبع اصبعى ، أحرك الدنيا بسبابتى أنا ، حتى لو كانت
الحركة الى الجحيم •

ألا يكون من نعمة الله على بشره ان العالم ليس ساحة
خالية يرقص فيها المجانين الثلاثة رقصة الحياة - الموت -
الجنون • وأن هناك معسكرا آخر نشأ لكنه ، انسانيا جاء ،
وانسانيا يعمل ، الصين قادمة ، وألمانية الديمقراطية ،
تشيكوسلوفاكيا ، يوغسلافيا ، الاتحاد السوفياتى الثانى فى
الانتاج • • الصناعة الانسانية أيضا تمضى ، تقف ، تلاحق
خطو المجانين ، بيدها تأخذ بيد العالم الثالث ، علمها غير
أنانى ، اكتشافاتها لا يحتكرها بيت عريق فى عدائه للانسان
• • انما هى ملك لنا ولهم وللدنيا لو أرادت •

ضاع الأمان

فى ألمانيا • •

فجأة أحسست انى فى فيلم من أفلام الجاسوسية وجيمس
بوند • • فقدت الأمن • • وأغرب الاجابات جاءتنى حين
سألت الهرميشلر مدير الأكاديمية الانجيلية (وهى شئ
كالجامعة الأزهرية الدينية عندنا) لماذا دعانى ودعا وفدا
مصريا ثقافيا لألمانيا ؟ لم تأتنى اجابة شافية واحدة ، كل
مرة كانت الاجابة مختلفة ، هذه المرة قال : بصراحة أنا
لا أفعل هذا حبا فى مصر والعرب فقط ، انى ، انما أقوم
به محافظة على اليهود أنفسهم انى فيما أرى انهم اعتمدوا
على القوة فقط كى يفرضوا وجودهم فالمحتم أن يصمد
العرب ، بالغريزة حتى الى القوة وقد يطول الزمن ولكن

النتيجة أن يهزم اليهود فى النهاية ويؤدى فرض الوجود
هكذا الى استئصال الوجود ، أنا اذن من أنصار التعايش
والتفاهم مع العرب .

ولأتى لم أجد فى ملامحه الطيبة أو التى تبدو كذلك أى
أشارة تؤكد صدقه أو تنفيه فقد سكت ، ولم أشأ أن أجادل .
نحن اذن كوفد ثقافى عربى ، لسنا فقط ديكور عدالة
ولكن نجىء لأن مصلحة اليهود فى المدى الطويل تقتضى
هذا المجرىء .

وهكذا عرفت حقيقة أخرى عن الشخصية الألمانية ، ان
تركيب الشخصية القهرية يحتم أن يكون ايمان الشخص
كاملا بالجهاز الذى يحركه وبالبروغرام الذى يغذيه ، وايمان
الشخصية الألمانية بقدرتها ايمان يبلغ حد العبط أحيانا ، أو
بالضبط حد الغباء ان الغباء الالماني المشهور ليس هو الغباء
نتيجة قلة الذكاء أو الحيلة ؟ ولكنه نتيجة لتولى الشخصية
الألمانية نفسها مهمة الغاء كل قدرات العقل التلقائية على
التصرف . . فهم لا يعترفون أبدا بما يسمى لدينا فكرة
اللحظة أو وحى الساعة ، ما لم تكن الفكرة قد نشأت ونوقشت
واطمان الشخص تماما الى سلامتها بحيث يركبها فى عقله
وتصبح جزءا من برنامج هذا الجهاز العقلى الالكترونى ،
فانه أبدا لا يمكن أن يحفل بها أو ينفذها ، لقد اختصروا
وظائف كثيرة من وظائف العقل بحيث لم يعد له الا وظيفة أن
يناقش ويقتنع أو يقنع ، وحاولوا بالنظام المطبق والقانون
أن يجنبوا انسانهم حاجته الى التصرف الفردى أو المبتكر أو
التلقائى وهكذا فانه رغم دقة نظام المرور مثلا وصرامته

فحوادث المرور هناك في ألمانيا أكثر منها في بلادنا العربية..
السائق العربي باستطاعته اذا لمح الخطر أن يتصرف ، ربما
حسبما تعلم أو تعود وربما يبتكر التصرف نفسه ابتكارا .
السائق الألماني اذا رأى الخطر ماثلا ولم يكن لديه فيما يعرفه
من نظام وقوانين للطريقة التي لابد عليه اتباعها لمواجهة
ذلك الخطر فانه لا يقدم على أى تصرف بالمرة ، ويظل ماضيا
الى الخطر حتى الكارثة . . كأنه بطل تراجيدى وليس انسانا
من أهم ملكاته قدرته على التصرف اللحظى المبتكر .

ذلك الاختناق

وجاءت ليلة الندوة الثقافية التي كنا قد دعينا اليها في
برلين ، وكان على بعد قراءة أعمالى أن ألقى كلمة .

كنت أعلم انى هنا فى قم الأسد ، وانه نفس الجمهور
الذى أحاط بنا من أول لحظة لوصولنا وكأنما ليكون حزاما
أو حائطا آخر لبرلين ، ازداد عدده حتى قارب المائة هذا
صحيح ، ولكن النوع أبدا لم يتغير ، أنه جمهور مختار ومنتقى
بعناية بحيث كلماتنا ان نفذت فانما تنفذ الى ادمغة مطعمة
تماما ضد أى نفاذ ، أو تنفذ الى ادمغة نحن بغير حاجة اليها
لأنها ادمغة غير محايدة .

ومع هذا فقد كان لابد ان اواجههم بالحقيقة ، كيف
يصنعون بمجئتنا مسرحية جيدة الاخراج كمادة الالمان ،
مختارة الجمهور بحيث ينتقى دور الجمهور ، عرضها يتم
سرا حتى لا يتسرب خبرها الى المواطن الألماني العادى ، ونحن
لا نعرف أيضا كيف تتسرب ، فجمهورنا هو حراسنا ، واختلط

الحابل بالنابل ، والمعالم تاهت ، الالماني الانجيلي .
البروتستانتى يحدثك وكأنه مصرى ، والمصرى وكأنه انجيلي ،
والعرب كل فى طريقه ، وكل فقد الثقة فى الآخر ، وكل
يكيل الاتهامات للآخر ، وعليك فى النهاية أن تختار حزبا من
أحزاب ، أو أى مخابرات تشاء ، وتتهم به غيرك أو يتهمك
غيرك به .

قلت الحقيقة هذا صحيح ، كل الحقيقة ، بادئا بأنى لم
أقبل المجيء الا بناء على الخطاب الذى أرسله الطلبة المصريون
ولولاه ما جئنا .

قلت كيف أحس لأول مرة فى حياتى انى أختنق اختناقاً .
حقيقيا فى برلين « الحرة » وان دكتاتورية اكسل شبرنجر
(أكبر صحفى المانى صهيونى) أبشع ألف مرة من دكتاتورية
السادج الجمجاع عويلز . . حتى يسارك يا « برلين » لا يثلج
القلب . . (٣٣) منظمة يسارية تتطاحن وتتحارب ، ما أسعد
اليمن بهذا اليسار اذن . . وما أذكى المخابرات الامريكية
وهى بعد لم تعد تتنكر فى أحزاب الرجعية والعمالة المكشوفة
ولكن مادام اليسار هو المودة بعد ثورة الشباب عام ٦٨ «
فليكن التنكر يساريا متقنا ، وليكن داعرا أيضا ، ولتقم
جامعة برلين « الحرة » معرضا هدفه اقناعك بالماركسية
والشيوعية بالصورة واللوحة والتجسيم . . معرضا لا يزوره
أحد ، ولتمول حكومة برلين مسرحا يعرض أعمال « برخت »
و « جوركى » لتبدو زاهية المكانة ، وليتولى العمال دور
الرجعية بحيث - كما ذكر لى طالب يسارى حين سألته ما رأى
العمال حين يذهبون اليهم ليعلموهم الماركسية - نظرية
الطبقة العاملة ذاتها - يضربون هؤلاء الطلبة ويعنفوهم .

اذ لقنتهم صحافة شبرنجران الشيوعية اذا جاءت ستجردهم
من كل « المكاسب » أو التأمينات والتوابل الرأسالية .

الحكام الرجعيون اذن هم الذين يعرضون لافتات
الشيوعية وصورها ويدعون لمبادئها ، والعمال ، التقدميون
هكذا مفروض ، هم الذين يقومون للرجعية بدور كلب
الحراسة بحيث يقطعون دابر أى شيوعى يحاول خرق النظام
والتسلل .

مركب النقص وركب العظمة

تحدثنا فى الأسبوع الماضى عن الندوة الثقافية التى كنا دعينا إليها فى برلين ، وقلت كنا محاطين بنوع من الجمهور جرى اختياره وانتقاؤه بعناية بحيث كلماتنا أن نفذت فانما تنفذ الى أدمغة مطعمة ضد أى نفاذ ، أو تنفذ الى أدمغة نحن بغير حاجة إليها لأنها أدمغة غير محايدة .

وقلت انه كان على أن أواجههم بالحقيقة ، ثم تحدثت عن اليسار فى برلين . . . واليوم أتابع مختتما الرحلة :

أذكى غباء

بعد كلمتى ، حل على القاعة وجوم هائل ، الذين أخرجوا الرواية لم يحسبوا حساب هذه المفاجأة ، ولكن ، ما أهمية أن أصرخ ملء صوتى بالحقيقة وأنا فى حضرة جمهور محسوب ومختار ؟ ما الأهمية والحقيقة خنقها سهل ولقد خنقوها وخنقونا معها ، وجاءوا بنا علنا أمام أنفسهم سرا وبتكتم شديد بعيدا عن أى رأى عام المانى محايد ، أو

حتى رأى معاد ، ليتسنى لهم تغذية العقول الألمانية بمزيد
ذكى جديد من أقوال ورؤى ووجهات نظر اسرائيل ؟

واكتشفت حقيقة أخرى جديدة غريبة عن تلك الشخصية
الألمانية المفرطة فى خصائصها وغناها .

اكتشفت انه ، رغم ايمانها المطلق بتفوقها الكامل فهى
تكاد تكون أعبط شخصية من شخصيات الشعوب .

والألماني الغربى ليس أبدا عبيطا بالوراثة أو بانعدام
الذكاء . . انه عبيط بالعمد وبالحساب المدبر وكالعادة بخطة
كاملة الاتقان ، فمن طبيعة الشخصية القهرية الألمانية أيضا
قابليتها للتمسك بايمانها بالأشياء ومقاومتها أى ايمان
جديد . . باختصار اذا كنا نسمى أجهزة الدعاية وصناعة
الكتاب والفيلم والصورة أجهزة صناعة العقول ، فان العقل
الألماني من أسهل عقول الدنيا قابلية للصناعة والتشكيل ،
ذلك انه ، بحكم تكوينه أيضا ، شعب غير شكاك .

انه يقبل منك ما تقوله ويظل يصدق حتى يثبت له أو
تثبت له الظروف كذبه وحينئذ لا يعود يصدقك أبدا حتى لو
كانت كذبتك الأولى والاخيرة ، الناس عنده اما كذابون تماما
أو صادقون تماما ، وهو يأخذ كلامك من معانيه الأولى
المباشرة ، فطبيعة الشخصية القهرية أيضا انها لا تعمل الخيال
كثيرا الخيال ذاتى وكذاب ويدعو أحيانا لاعادة النظر ، ولهذا
تغذى عقلها بأى برنامج تقبله العقول حتى تمضى كالقطار
اذا وضع فوق القضبان ، مهما أن تبلغ بحركتها أقصى سرعة
وتحقق الأهداف .

صناعة العقول

• وعن عمد تدار صناعة العقول في ألمانيا •

بعد عصر الثقافة الالمانية الذهبى ، بظهور الرأسماليين وبيوت الاحتكار ، بدأ عصر صناعة العقل الالمانى بطريقة تخدم تماما هؤلاء السادة الجدد ، ولكن تصنع العقل على هواك لا بد أولا أن تعزله عن العالم ، وهكذا نشأت بدعة احتقار لغات الآخرين والاصرار على الالمانية ، ثم تطعيم الشعب ضد الثقافة ، وهكذا نشأت أيضا بدعة تحسس المسدس اذا ذكرت الثقافة وبدعة حرق الكتب ، فى الواقع بدعة اخفاء الحقائق عن الشعب يدركون جيدا انه مولع بها وانها ان وجدت لن يصدق غيرها •

اخفاء الحقائق من ناحية وادخال صناعة جديدة اسمها صناعة صنع الحقائق •

والأمر ليس مجرد الفاظ ، والمسائل هناك لا يأخذونها هزلا ، ان تصنيع الحقائق شيء مختلف تماما عما تعودناه من « فبركتها » هنا ، ان نصنع حقيقة كاللؤلؤة الصناعية مستحيل أن يميزها عن الطبيعية الا انسان ذو مستوى خاص ، عمل صعب ، واذا عدنا لتاريخ صنع « حقيقة صناعية » كحكاية سيادة الجنس الأرى لوجدنا أن الاتقان فى تزييفها بلغ درجة تكاد ترفعها الى مستوى الحقائق العلمية ، واليهود أعرف الناس بالألمان ، واليهود كانوا قد وضعوا عيونهم على ألمانيا ما بعد هتلر ، ان الالمان فى نظرهم الشعب المثالى لتحقيق أهدافهم هم من ألمانيا ، الالمانى مثالى لأن قدرته على العمل وجنونه ياتقانه تحتم نجاح أى صناعة أو نظام يقوم

على أرض ألمانيا ، الألماني مثالي لأنه ينتمي لشعب خرج من الحرب بمنح مغسول من آثار الثقافة أى الحقيقة الحقّة ، أصلح تربة لتربية الحقائق المصنوعة ، بل حتى صالح أيضا لتربية العقد ومركبات الذنب الصناعية .

كان مطلوباً أن تصنع تركيبة نفسية تجعل شعباً بأكمله يحيا أعواماً طويلة ولا يزال يحيا ، وقد استولت عليه تماماً عقدة انه أذنب ، وقد عولج ضميره بحيث أصبح لا يرضى أبداً إلا إذا كان ارضاءه على هيئة نقود أو صناعة أو أى شئ يقدم لاسرائيل .

ولكى تنجح الخطة كان لابد من « كادر » يهودى كامل ينفذها . . كان لابد من امساك كل الخيوط التى تحرك الرأى العام وتصنعه بأيديهم هم .

وكانت الحكومة الألمانية تدفع لكل يهودى ألماني يعود الى ألمانيا بعد الحرب كذا ألف مارك تعويضا له ، غير التعويض الهائل الذى رصدته الحكومة لاسرائيل .

ونما الرأسمال الألماني فى أحضان رأسماليين عتاة يهود ، خبرة الألمان وطاقاتهم ودولارات أميركا وناب اليهود الذكى الأزرق .

وبينما اليابان تنمو وتتوسع ، كانت ألمانيا أيضا وبسرعة مذهلة تمضى حتى لتصل الى درجة أصبحت البنوك الألمانية ترفض أن تودع فيها النقود كدولارات ، انما تشترط أن تكون العملة المودعة بالمارك .

إذا المارك أصبح أكثر قوة من الدولار ، وفى نفس الوقت كانت الجمارك الأميركية تفرض ضريبة تلو الضريبة

تحمى صناعتها «الوطنية» من صناعات اليابان وهى تغزوها
فى عقر دارها .

كان الانسان القهرى والانسان الانفصالى قد انتصرا
ذلك ان الشعب المتجانس حتى فى مرضه أو فى صحته ، أكثر
اثارة للربح ، ومرض أن تحيا هناك ، فى ألمانيا أو اليابان
الغريبة تطاردك وتطردك . . غريب مع المتعالى هنا ، غريب
مع المنطوى المؤدب الشاعر بمركب النقص هناك ، غير ان
الدهش من هذا الصراع المجانينى هذا؟ هو أيهما يعمر أكثر .
المريض بمركب النقص .

أم المريض بمركب الكمال والسمو والتفوق .

أنا شخصيا أعتقد ان اليابانى سيكسب ، ليس فقط لأن
حالته أشد ، وانما لأن مركب النقص يزود الشخصية بفجوة
أيدية لا تشبع ولا ترتوى . . ولا تؤمن مهما فعلت انها
أصبحت سيدة الآخرين أو انها وصلت ، أما الألمان فاعتقادى
انهم بالتوحيد اذا توحدوا ، وبالاتقسام اذا ظلوا هكذا
فانهم قادمون على كارثة لم يهيئوا أنفسهم لها أبدا ، ان يبدأ
العالم الذى احتقروه طويلا واحدا اثر الآخر يسبقهم .
مشدوهين هم حيارى ، يجدون أنفسهم مطالبين بأن يشكوا
فى شيء لم يكن ليقتررب منه الشك مهما طغى ، فى تفوق
العقل والطريقة والقدرة الألمانية .

لقد كانت ألمانيا بصناعاتها ومؤسساتها تبهرنى وأرى
فيها صورة الاعجاز الأوروبى الصناعى .

بعد زيارتى لليابان ، بدت ألمانيا كالقريه ، فما يصنعه
الأقزام السمر فى ركن الدنيا الشرقى شيء هائل مخيف لن
يصدقه العالم حتى بعد وقوعه .

• والذكاء دائما وليد الشك فى الذكاء •

والغباء نتيجة حتمية للايمان المطلق بالذكاء •

وهكذا غباء ألمانيا •

ويا له من غباء ••

اذ فى النهاية يتضح السبب فى حماس الأكاديمية
لتوجيه دعوة ثقافية أنا رئيسها لمصر :

فلقد قامت السلطات المصرية بالقبض على أحد المصريين
من أصدقاء الهر ميشلر والأكاديمية كان يقيم فى ألمانيا
الغربية وعاد الى مصر وبدأ التحقيق معه فى التهم المنسوبة
اليه ، وهنا فقط تحرك الهر ميشلر لانقاذ صديقه وعرض أن
يقيم أسبوعا ثقافيا لمصر فى ألمانيا مقابل اطلاق سراح
الصديق ، هى صفقة اذن لعلها أغرب صفقة فى التاريخ ،
هكذا فى النهاية يتضح السبب الحقيقى وراء الدعوة ويتضح
سر الحماس ويتبدى للشخصية الالمانية جانب جديد آخر ،
انى كنت على صواب فى اعتقادى أن المسائل لا تبدو طبيعية
بالمرة ، لقد أحطنا فى برلين بذلك التكتم الشديد ، فلو تمت
زيارة حقيقية ووصلنا الى حد مخاطبة الرأى العام هناك
والالتقاء مباشرة مع جمهور المثقفين •• لو وصل صوتنا فعلا
للرأى العام واستطعنا النفاذ من حاجز الكلمة والصوت
والصورة وتعدينا لبحر الأكاذيب التى تروج هنا لغضبت
اسرائيل ولثارت ركائزها فى ألمانيا واعتبرتها ان ما حدث
جريمة ارتكبتها الأكاديمية وارتكبها ميشلر •• ولعاقبتهم
العقاب الوخيم ، وهكذا اتضح بعد آخر للشخصية الالمانية
ماركة شيرنجروشتراوس ، وكول •• انها شخصية لا تقدم

على عمل الا اذا كان يخدم أهدافها أولا وأخيرا ، حتى الملايين
التي تدفعها لاسرائيل هي في حقيقة أمرها أولا لصالح
ألمانيا ، لصالح بقاءالتخلف جاثما على أنفاس شرقنا العربي!
وحتى ولو كان لصالح اليهود فالموقف الآن يخدم اسرائيل
ويخدم ألمانيا الغربية وأميركا وكل معاقل الرأسمال ،
والتناقض ان وجد فهو ليس الرئيسى اذ التناقض الأول
ما عدا هذا فهو فرعى ولا أهمية خطيرة له .

أجل لقد خرجت من رحلتى الى اليابان وألمانيا ان
(المتعوس) الخطير قد التقى (بخائب الرجا) الأخطر كما
نقول فى أمثالنا العامية وهو لقاء يا ويل العالم منه .

المجتمعات الوسط

لشعبنا خاصية غريبة لم أكن أتصورها ، كنت أناقش ذات يوم فى لندن اخصائيا كبيرا فى اختبارات الذكاء بمستشفى « هامر سميث » حيث كان طفل مصرى يفحص من اصابة ، وحين أجريت عليه اختبارات الذكاء كانت نسبة درجاته أعلى بكثير من المعتاد فى هذه السن ، حسبت الطفل نابغة أو فلتة ، ولكن فوجئت بالاختصاصى يقول ان هذا ليس أول طفل من بلادكم أجرى له الاختبار ، هذا فى الواقع الطفل العاشر ، وهو ليس أول الحاصلين على هذه النسبة ، انه السابع . . واعتمادا على خبرتى أستطيع أن أقول ان هذه ربما أعلى نسبة للذكاء بين أطفال العالم .

وأحسست بفرحة حقيقية ، كان كلامه كالتحير المفروح المفاجيء ، وقبل أن أعلق كان هو يهز رأسه أسفا ليقول : ولكن الغريب ان أطفالكم يظلون كذلك الى حوالى الخامسة ثم تبدأ نسبة ذكائهم فى الهبوط بينما تأخذ نسبة قرنائهم الانجليز أو غيرهم فى الارتفاع بحيث يتفوقون عليهم .
بمراحل .

وتراجعت فرحتي واحترت ، واحتار معي هو الآخر ،
ولكننا بالنقاش وصلنا الى ما يمكن أن يكون السبب ، فحتي
هذه السن يكون ذكاء الطفل مستمدا من مخزونه الوراثي
من الذكاء ، ولكنه بعدها يعتمد ذكاؤه على مدى تفاعل ذكائه
الموروث مع بيئته وعلى مدى أثر البيئة في تنمية الذكاء .
تماما كأي عضلة تولد بقوة معينة ولكن قوتها تبدأ تعتمد
على التدريب والتمارين التي تزاولها .

أنحن اذن نولد أذكي ؟

هذه حقيقة . . .

الحقيقة الأخرى لمستها في تجوالى بين حضارات آسيا ،
كثيرا ما سمعت ذلك التعبير يرن في أذنى ألا تعرف انك من
مصر موطن أول الحضارات ؟

وهذه حقيقة أخرى . .

والمسألة أبدا بعد هذا ليست صدفة ، وليس معنى زوال
الحضارة عن شعب وتسليمها لشعب آخر انه يرتد الى الوراء
مثلا أو يبدأ يصبح أقل حضارة ، ان زوال معالم الحضارة
عن البلاد لا يعنى أبدا زوالها من الانسان نفسه ، واذا كان
الذكاء المصرى هو الذى أحدث فى العالم القديم ما يشبه
ثورة الصناعة والتكنولوجيا فى العصر الحديث باكتشافه
لأول ثورة فى العالم وأول تكنولوجيا : الزراعة وآلات
الزراعة ، اذا كان ذكاؤنا هو أول من بدأ يعمل الذكاء
البشرى ، فمعنى هذا انه الآن أعرق ذكاء وأخصبه وأطول
عمرًا .

كل ما فى الأمر أن الذكاء كى يصبح فعالا لا يكفى
يكون صفة موروثة أو مكتسبة ، انما التحضر والتقدم
يصنعه الذكاء الجماعى لا التفوق الفردى .

نحن اذن أول « مجتمع » ذكى عرفه الانسان ، كل ما فى
الأمر ان عمر هذا المجتمع الذكى لم يدم طويلا ، وما لبث
النظام الذى كان يتيح استثمار الذكاء جماعيا ان توقف عن
التطور وانفرط عقده ، وأصبحنا ومنذ تلك اللحظة والى
الآن أفرادا أذكىاء تماما فى مجتمع لم ينجح فى تجميع هذا
الذكاء واستثماره ، أو بالأصح فى مجتمع غبى متخلف .
أطفالنا يولدون عباقرة بالقياس الى أطفال العالم ، ومفروض
أن يتسلمهم نظام حياة ينمى هذا الذكاء الفردى ويربيه
على تكوين مجتمع ذكى يعمل طول الوقت ، ويطور نفسه
بحيث يستطيع باستمرار أن يستوعب ذكاء أفراده ، وبذكائهم
الجماعى يحيا ويتقدم وينتج ، ولكن ، لأن عكس هذا ربما
هو الذى يحدث ، بحيث يجد الفرد الذكى نفسه فى حالة
صدام مع مجتمع قاصر عن امتيعاب ذكائهم ، بحيث يتحول
بذكائه لخدمة ذاته أو بالأصح الدفاع عن ذاته وهكذا .

ميزة الذكاء الأسىوى

ولم ألس هذه الحقيقة الغريبة بقدر ما لمستها فى آسيا .
ان الفرد المصرى أو العربى اذكى ، ولكن ميزة الذكاء
الاسىوى المتوسط انه موجود فى مجتمع ذكى ، مجتمع يعرف
قيمة الذكاء . . ويهيىء له كل السبب ويعرف كيف يخلق
النظام الذى يتيح لأذكىاء كثيرين أن يعملوا معا ، أن يحدث

هذا التعاون الذكائى الكامل ، ذلك الذى يصنع فى الحقيقة
أى حضارة أو صناعة أو حتى فن ، وبالتالي يصنع الانسان
ويدربه ليكون أذكى ، بحيث يعوض بالارادة ما أفتقده
بالوراثة ، بحيث يصبح ذكاء المرء محسوباً له ، وليس
كالحال هنا محسوباً عليه ، بحيث يكتشف فى كل فرد مكن
طاقته وتفرد وقدراته ، وفى مكانها الصحيح يجيد
استخدامها .

ذلك فى رأى سر أى مجتمع ناجح ، سر أى تقدم علمى
أو صناعى أو حضارى أو ثقافى وفنى ، خاصة ونحن لم
نعد فى عصر الفلتات الفردية . . نحن فى عصر المجتمعات
الذكية ، وكما بدأ العالم ينقسم الى أغنياء وفقراء ، فكذلك
بدأ ينقسم الى مجتمعات أذكى ومجتمعات أقل ذكاء أو أغبي ،
والهوة بينهما أيضاً تتسع ، فالذكاء ثروة ذكاء ، حتى القوة
الفيصل فيها هو الذكاء ، والجيش الأقوى اليوم هو الجيش
الأذكى .

بل ان التعليم ذاته لا يحل المشكلة .

وجيش الفيتناميين مكون من فلاحين بعضهم أمى ، ومع
ذلك ولأنه الأذكى فان فرق الجيش الاميركى الأكثر تعليمًا
تتساقط فى كمائنه كما يتساقط الذباب .

ولكن الذكاء وحده ليس كل شيء . .

فبجانب الذكاء لابد من أشياء أخرى .

فلكى تلوى عنق التاريخ لابد من عمل شاق .

- والتصدى للعمل الشاق طموح انساني مشروع .
- ولكن الطموح في حاجة الى قوة وقدرة ورصيد .



أنا لم أكن بالطبع أنسوى اكتشاف قارة ، أو حتى اكتشاف طريقة مختلفة للحياة ، كان كل طموحي أن أنجح في اكتشاف سر الانسان يلوى عنق التاريخ ويقاوم ، والأنظمة في آسيا تختلف من الشيوعية - وهي في قمنها في الصين مثلاً - الى الرأسمالية في أوجها في اليابان . . ولكن مقاومة الانسان لا ترتبط بالنظام الذي يعيش في ظله ، اذا انه اذا أراد المقاومة يقاوم سواء قاوم النظام الذي يحيا في ظله ليعيش أو تضامن مع النظام ليقاوم شرا خارجيا يهدد بقاءه . ان الأصل من الانسان ، صحيح ان للنظام الأثر الأكبر في نتيجة مقاومته ولكن ما فائدة النظام اذا قاوم الانسان وحده بلا انسان ؟

• الأصل هو الانسان .

وآسيا بلاد شاسعة وأهلها كثيرون ، وليس كل شعب فيها يلوى عنق التاريخ ويقاوم ، ويعيش كل نظام فيها متحالف مع الانسان في مقاومته .

ولكن الشيء الذي لا يمكن انكاره ان المقاومة هناك معدية ، وانها تتكاثر ، وانها خطيرة الى درجة اننا سنجد أميركا بعد قليل اذا أرادت أن تستمر تعمل ضد الانسان الاسيوى فعليها أن تجند الشعب الأميركي كله وتسخر امكانياتها الصناعية كلها وترصد كل مخزونها من الرأسمال .

والانسان لا يولد يقاوم . . انه يولد كالصفحة البيضاء
التي يتولى المجتمع ملئها بالمضمون ، وحسب المجتمع يصبح
الانسان ، فاذا ولد فى مجتمع يقاوم نشأ مقاوما ، واذا ولد
فى مجتمع راضخ نشأ كذلك ، المجتمع القوى المقاوم اذن
هو ذلك الذى يستطيع أن يصنع من أفرادهِ مجتمعا قويا
مقاوما مثلما يصنع المجتمع الذكى بأذكيائه .

وهذا هو سر آسيا الأكبر ! انها قارة المجتمعات . . .
مجتمعات متباينة متأرجحة بين القمة والسفح ولكنها
باستمرار ؟ حتى التفرد والفردية ليست وليدة انفصال عن
المجتمع بقدر ما هى وليدة استخدام واستعمال لهذا المجتمع .

وانسانها جاد لأن مجتمعاتها جادة .

والهند خير مثال على هذا .

فالهند ليست دولة واحدة ، انها قارة بمفردها ، وليس
هناك ما يمكن أن يسمى بالمجتمع الهندى ، فهو مجتمع مكون
من عديد من المجتمعات . . كل لغة تكون مجتمعا ، كل دين
يكون آخر ، كل طائفة ، كل وحدة جغرافية ، كل درجة من
درجات الفقر أو الغنى ، ان الهند على عكسنا تماما هنا ،
فاذا كان مجتمعنا و مجتمع التوحيد والتوحيد ، فمجتمع الهند
هو مجتمع التعدد والاختلاف .

وقد يظن البعض ان التعدد يؤدي الى مجتمع ضعيف ،
وان التوحيد يؤدي الى مجتمع واحد قوى ، ربما العكس هو
الصحيح ، ان التوحيد التام يؤدي الى فقدان الخصائص
المتفردة ، نفس الخصائص التي يؤدي وجودها وتأكيدا الى

قوة المجتمع الأكبر ، فى حين ان الفاءها فى سبيل التوحيد
يؤدى الى طمس معالم التفرد والامتياز ، وبالتالى الى وحدة
كوحدة المتشابهين . . كوحدة الازفر .

ولهذا فالمجتمع الذكى لابد أن يكون نابعا من وحدات
أزفر ومن مجتمعات صغيرة كثيرة ذكية ، كذلك المجتمع
المقاوم هو أيضا مكون من مجتمعات كثيرة صغيرة مقاومة .
ودائما يكمن عيب أى مجتمع فى هذه النقطة البسيطة
المحددة .

تلك المجتمعات الصغيرة التى منها ينشأ الفرد الواحد
ومنها أيضا وبتلاحمها ينشأ المجتمع الكبير .

وهنا فى بلادنا تستطيع أن تضع يدك على الداء
بسهولة . . فى قرانا نحن نكون المجتمعات الأزفرى هذه
وننشأ منها ، وبها ننشئ المجتمع الأكبر .

كذلك كانت مدننا فى العصور الوسطى مكونة من أزقة
وحوار تكون حيا ، والأحياء مدينة ، والمدن تكون دولة ،
فى العصر الحديث وحين حدثت الهجرة الهائلة من القرية
الى المدينة ، ومن الزراعة والتجارة الى الصناعة ، فقد
انساننا القادم قدرته على تكوين المجتمعات الأزفر ، امتلأت
مدننا بألاف العائلات أو حتى الأفراد الذين لا يربطهم رابط
ولا يسألون أمام مجموعة ولا يحسون بالانتماء ، ومن السهل
أن يبدأ الانسان يفقد كثيرا من خصائصه الأصلية حين
ينفرط عقده ويصبح وحده يفكر ، ووحده يصنع لنفسه
القيم التى تلائمه ، ان من يفقد الانتماء يفقد الأصالة ،

والفرد حين يفقد خصائص مجتمعه الأصغر يفقد تماماً
خصائص المجتمع الأكبر .

هكذا نشأ لدينا المجتمع الغريب الفريد من نوعه ،
المكون من أفراد لا يجمعهم إلا العمل مرة ، أو القهوة ، أو
أحياناً السكن في مكان واحد .

ينجبون أبناء ينشئون أفراداً هم الآخرون . . . والنتيجة
أن الكتلة بدلاً من تكون بناء قويا تتفتت وتتسطح ، ويصبح
في مكان البناء سطح من الرمال الصغيرة المتراكمة ، بل حتى
الأشكال الحديثة للمجتمع مثل النقابات والنوادي والجمعيات
نشأت في ظل الاستعمار لوثها عن عمد ، وأخذ فيها الروح ،
وتحولت من مجتمعات جديدة مفروضة أن تكون فيها الروح
وتحولت من مجتمعات جديدة مفروضة أن تكون أداة الوجود
والمقاومة ، إلى أشكال من التجمع وظيفتها كبج جماح أفرادها
واحتوائهم وتقييد حركتهم وشلها ليس إلا .

الداء واضح وظاهر

الداء واضح وظاهر . . . لا يمكن أن يوجد شعب وحدته
الفرد ، أن الشعب ليوجد - أي الشعب - وحدته مجتمع
أصغر ، وما لم يكون أفراداً منظمين بطريقة أو بأخرى في
هذه المجتمعات الأصغر ، فالنتيجة أن شعباً كهذا ممكن أن
يكون تعداداه مائة مليون في حين أن حاصل قوته تقل بكثير
جداً عن مجموعته ، بينما شعب آخر تعداداه عشرة ملايين من
الأفراد يكونون مجتمعاتهم المختارة الأصغر لتكون بدورها
المجتمع الواحد الأكبر ، تكون حاصل قوته أكثر بكثير جداً

من الملايين العشرة ، فالعمل كمجتمع لا تكون نتيجته حاصل جمع مجهودات أفراد . ولكن العمل كجماعة يكاد يكون حاصل ضرب مجهود الواحد فى الآخرين ، وليس حاصل جمع أو أحيانا قسمة ، الداء واضح وظاهر . . . الدولة من المجتمعات الأخرى نشأت كظاهرة اجتماعية لتنظيم العلاقة بين المجتمعات الأصغر ، الدولة عندما نشأت من الخارج " من المستعمر ، من أصول لا علاقة لها بالشعب أو وحداته ، نشأت لتفتت الشعب فى الحقيقة وتكبته .

ان الروتين والقوانين واللوائح التى تحفل بها حياتنا ولا يوجد لها نظير فى أى بلاد أخرى سببه ان الدول جاءت أجنبية ، كما كان العرض أجنبيا . . . وانها تعامل الشعب كما لو كان عصاية من اللصوص وقطاع الطرق .

وقد كان هدفها على الدوام أيضا أن تحول بين الشعب وبين تحوله الى مجتمع ، أى تحول دون قيام التنظيم والمجتمعات الأصغر ، ليبقى الفرد من أبناء الشعب وحده بمفرده أمام جهاز الدولة الرهيب .

كيف بامكان مجتمع كهذا أن تنفجر طاقاته ويعمل وينتج وينمو ، والدولة تتولى بتر أى صلات تنشأ داخله لتحوله الى جسد حى كبير منتج ، وتضع ما شاء لها من قوانين كلها ليس فيها قانون واحد يحمى المواطنين ، انما كلها قوانين لحماية العقار أو الارض أو الملكية أو السيادة كلها قوانين ليس هدفها فقط تفتيت الشعب انما أيضا إحالة أفراد الى عبيد فرادى ؟

ولكن تلك قصة أخرى .

الفهرس

٥	• • • • •	مدينة الملائكة •
١٧	• • • • •	افصلونى أرجوكم - معه !! •
٢٧	• • • • •	الضحك حتى البكاء •
٣٧	• • • • •	الخروج الى الشمال •
٤٧	• • • • •	اننا نختنق •• نختنق •
٥٧	• • • • •	خطاب من راكبة أتوبيس •
٦١	• • • • •	فلنكتشف أنفسنا •
٧٣	• • • • •	التليفزيون •
٨٣	• • • • •	الشعب القوى هو الذى يغير •
٩١	• • • • •	وداعا أيها المجلس والى غير لقاء •
١٠٣	• • • • •	المندوب الغائب •
١٢١	• • • • •	اللس ذو الأقدام الكبيرة •
١٤٩	• • • • •	عبقرية المعارف •
١٥٧	• • • • •	مركز الدائرة •
١٦٧	• • • • •	وذهبت للدعوة الغامضة •
١٧٩	• • • • •	أحفادك يا طه •
١٨٩	• • • • •	أجادير فى عينيك •
١٩٧	• • • • •	رسالة من الجنادرية •
		فى ألمانيا كنا ديكور عدالة وكان علينا أن نخاطب أدمغة محصنة
٢٠٥	• • • • •	ضد أى نفاذ •
٢١٣	• • • • •	مركب النقص وركب العظية •
٢٢١	• • • • •	المجتمعات الوسط •

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٨٩/٥٣٥٦

ISBN ٢ - ٢٢١٢ - ٠١ - ٩٧٧

● الكاتب روحه معلقة بروح شعبه ، في مشنقة واحدة ، أو في باقة حرية واحدة .

● الكاتب هو أول من يبادر وآخر من ينكص .

● الكاتب ظاهرة اجتماعية بيولوجية ، قبل أن يكون ظاهرة فردية ، هدفها ذاتي محض .

● تلك بعض كلمات يوسف ادريس في هذا الكتاب « مدينة الملائكة » إنها رحلة في ضمير ووعي كاتب يخوض غمار الكلمة ، فنا كانت ، أو في مجالات الثقافة والسياسة والحياة اليومية رحلة تبدأ دائما من القاهرة لتحيط بأقباس من عالمنا العربى ومن أمريكا وأوروبا وآسيا .